مجلة فتح الغفار

مجلةٌ ثقافية سنوية ، تَصدُر عن جمعية (دائرة)

فتح الغَفَّار المُريدية – بالمملكة المغربية.

العدد الأول: ديسمبر 2023

إصدار إلكتروني : http://fathulghaffar.com

التنسيق

سرين عبد الحكيم امباك

سرين مود بص

د. محمدو بمب درامي

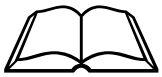

تُنشَر مقالاتُ المَجلَّة على الموقع الرَّسمي لدائرة (جمعية) «فتحُ الغفَّار» على الرابط التالي

http://fathulghaffar.com

التعريف بالمجلة

هي مجلةٌ علميةٌ سنوية ، تشرف عليها اللجنة الثقافية التابعة لدائرة (جمعية) فتح الغفار للمريدين بالمملكة المغربية.

وتعنى المجلةُ بالتراث السنغالي بالدرجة الأولى ، وبالغرب الأفريقي أيضا من خلال مقالات وبحوث ودراسات تُنتجها نخبةٌ من الطلبة الدارسين بالعربية في مجالات علوم الدين ، أو العلوم الإنسانية.

فضلا عن المقالات ، فإن المجلة تحتضن أنواعا مختلفة من المنشورات من مثل

مراجعات أو قراءات على كتب أو إصدارات جديدة

تقارير حول بحوث التخرج التي ينتجها الطلبة داخل المغرب وخارجه

ترجمات

جردٌ لقائمة البحوث الأكاديمية المنجزة في مدينة ، أو في جامعة معينة داخل المغرب وخارجه

أهداف المجلة :

- توفير منصة من أجل إبراز الحضور العلمي والثقافي للطلبة المستعربين من السنغال أو من غرب أفريقيا من داخل المغرب ومن خارجه.
- تشجيع البحث العلمي ومواكبة التطورات المعرفية لخدمة المجتمع الأكاديمي.

أركان المجلة :

- ركن ملف العدد
- ركن التراث المُريدي
- ركن واقع المُريدية
- ركن التراث السنغالي العام
- ركن شخصية العدد
- ركن استشرافي
- ركن ضيف العدد

شروط النشر:

- أن لا تتجاوز عدد الصفحات خمس عشرة صفحة

- كتابة البحث باستخدام برنامج تحرير النصوص word و الالتزام بعدد الصفحات التي تحددها المجلة مع ضرورة ترقيم الصفحات .
- ذكر المراجع المقتبس منها ، وفق معايير النظام الأكاديمي المعتمد .
- أن لا يكون البحث قد نشر ، ولو جزءا منه ، في منصة أخرى.
- **للتواصل:**

د. محمد بمب درامي

culturelتoubamaroc2015@gmail.com

Ndrame.online@gmail.com

المحتويات

تقديم العدد	أبو مدين شعيب تياو	10
أ. ركن ملف العدد		
1. العبد الخديم (ملف العدد)	عبد الحكيم امباكي	13
ب. ركن التراث المريدي		28
2. المحطات المنهجية في نشأة الفكر الخديمي وتطوره	مد فاي	30
3. المكتبة عند الشيخ الخديم	محمد بمب درامي	42
4. معالم التجديد في غيبة الشيخ الخديم البحرية	علي بدر امبي	50
5. البعد المقاصدي في فتاوى الشيخ الأسرية: فتوى نكاح الزانية بغير الزاني انموذجا	سرين مود بوسو مريم	66
6. مدخل إلى النظرية التكاملية في تراث الشيخ محمد البسوبي المشهور بالحاج امباكي بوسو	سرين مود بوسو مأمون	76
ج. ركن الأدب المريدي		91
7. الشمائل المحمدية في قصيدة جذب القلوب: دراسة وتأصيل	شيخ مصطفى غاي	92
8. بين إشراق الروح وإكراه الجسد: أدب الرحلة في الكتابات الخديمية	عبد الله غاي	98
9. البعد اللساني التربوي في المنظومات الخديمية	باي سرين انجاي	123
10. جمالية التناص الشعري في الأدب السنغالي: القصيدة المشعرية انموذجا	مام بوسو جوب	135
د. ركن التراث السنغالي العام		149
11. حركة التأليف في فقه الأسرة العملي بالسنغال: المكتبة والمسار	عمر فال	149
12. ب. تمثلات المرأة في التراث السنغالي العربي	نوغاي سيس	150

لجنة التحرير والمراجعة لهذا العدد

- وادان سوغو
- إبراهيم توري
- محمد الأمين جوب
- عمر فال
- سرين مود بوسو مأمون
- محمد بمب درامي
- مأمون بص
- عبد الله غاي
- إبراهيم بص
- سرين امباك بص

تقديم العدد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه

فقد غمرني السعادة والسرور ، واستخفّني الطرب والحبور ، وأنا أُطالعُ العدد الأول من هذه المجلة المباركة التي تصدرها «دائرة فتح الغفار» بالمملكة المغربية ، والتي احتوت في طواياها على مقالات وأبحاثٍ حبرتها أقلام شبابٍ من فرسان اليراعة ، ويدور أغلبها حول رحى أبي المحامد الشيخ الخديم —قدس الله سره-؛ هذا الإمام العارف بالله الذي قضى عمره كله في خدمة العلم ونشر لوائه ورفع مناره ، إلى الذبّ عن بيضة الدين خدمة الدين ، فنفى عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين.

كان الشيخ الخديم — قدس الله سره - من أكبر المفكّرين الذين عاشوا في هذه الديار السنغالية ، ومن أبرز الأعلام الذين عرفتهم القارة الأفريقية؛ إذ ادّرع الحزم ، وامتطَى العزم من أجل التجديد والإصلاح؛ بتعليم الناس ودعوتهم إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتزكية النفوس مما لاط بها من الأهواء والشهوات التي تصدّ عن الحق وتضل عن سواء السبيل ، كما حملَهمْ بالعلم النافع والعمل الصالح والأدب المرضي إلى حضرة قدسيةٍ يفوح منها أريج الشريعة المطهرة والحقيقة المنورة ، ويتجاذب أهلها كؤوسا مترعة بصهباء المعرفة بالله تعالى ، ويترنّحون من حميَّا المحبة والأنس.

ولمقام هذا الإمام وجلالة قدره ، وعلوّ منزلته ورفعة ذكره ، كانت الكتابة عنه سعيٍ مشكورًا ، والتعريف به عملًا مبرورًا ، وزاد المجلةَ نضارةً وتوهُّجًا وإشراق تنوّعُ مادته واختلافُ موضوعاتهِ ، وامتزاج الدراسات الشرعية بالدراسات اللغويّة والأدبيّة ، ما يؤكّد التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية وأخذ بعضها بحجز بعضٍ ، وما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من جمع بين الدراسات اللغوية والدراسات الشرعية؛ إذ فهم النص الشرعي من كتاب وسنة متوقف على معرفة اللغة والنحو والتصريف ، ورحم الله القائل: [الكامل]

عِلْمَا المعاني والبيان كلاهُما روحُ العلوم وزينةُ النِّحريرِ

ما إنْ يَصِحُّ لجاهلٍ بهما الكلا مُ على الحديثِ ولا على التفسيرِ

وعلى هذا السمت كان الأئمة المتقدمون ، حسبنا منهم الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبيّ —رحمه الله - (ت:790هـ) الذي وضع لنا أعظم كتاب في أصول الفقه ومقاصد الشريعة أسماه «الموافقات» إلى أعظمِ شرح على ألفية أبي عبد الله ابن مالك الطائي الجياني (ت:672هـ) أسماهُ: «المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية» ، وكذلك شيخنا الإمام العارف بالله أبو المحامد الشيخ الخديم —رحمه الله — الذي عقد «المقدمة الآجرومية» عقدا بديع العبارة لطيف الإشارة ، ثم ألف في العقيدة والفقه والتصوف ما لا تحيط به السطور ، وتضيق عنه الصدور.

وفي الختام ، نشكرُ لهؤلاء الشباب الخيَرة والكُتاب المهَرة ، على هذه التحفة الفريدة ، والدرة الشريدة ، ونترقبّ صدور مزيدٍ من الأعداد الرصينة المحكمة ، كما ندعو الله أن يضربَ عليهم سرادقات حفظه ، مع العافية والسداد

والتوفيق ، وأن يجزي عنا خيرا شيخنا الشيخ الخديم ، ويهبَ له ما أحبّه واختاره ورضيه له في الحال والمآل بلا آفة ولا كدر قبل الهبة وعند حصولها وبعد حصولها أبد ، إنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم

بقلم الدكتور أبو مدين شعيب تياو الأزهري الطوبوي

الأمين العام للرابطة الخديمية للباحثين والدارسين

ركن ملف العدد

العبد الخديم:

نبذة عن حياته، وإطلالة على مشروعه

بقلم الباحث: عبد الحكيم امباكي منتقى[1]

هو الشيخ أحمد بن محمد بن حبيب الله بن محمد الكبير بن حبيب الله الأول بن محمد الخير نزيل جُلُفْ بالسنغال. وهو المشهور بالشيخ أحمد بامبا والعبد الخديم وأحمد الخديم وخادم الرسول أو خديم الرسول ، ولد سنة [1270ه/1853] في قرية جده "امباكي بَوُلْ" ، وتعلم القرآنَ في صغره وحفظه مبكرا على يد والده ، وبدأ تعلّم العلوم الشرعية والعربية عند عمه العالم المفسر صَمْبَ تُكُلُورْ كَهْ ، ثم انتقل إلى والده المعلّم القاضي يتعلم ويجتهد ، ويختلف إلى من حولهم من العلماء المجاورين لهم في بلاد السنغال وفي خارجها ليستفيد منهم كالقاضي الفقيه مجَخَتِ شاعر السنغال وأديبها ، حتى تبحّر في المنقولات والمعقولات ، فنصبه والدُه مدرّسا وأستاذا مساعدا ، في مدرسته الكبيرة التي كانت شبه جامعة إسلاميّة آنذاك يرحل إليها المسلمون من كل أقطار السنغال.

وبعد وفاة والده خلفه ابنه أحمد الخديم في المدرسة يعلّم ويؤدّب ويربّي المريدين في العلم والعمل والأدب والهمّة ، ويؤلف لهم من الكتب ما يتعلق بأمور دينهم في العقيدة السنية الصحيحة والفقه المالكي والتصوف والسلوك. ومن مؤلفاته: (تزود الصغار إلى جنان الله ذي الأنهار) ، و(تزود الشبان إلى اتباع الملك الديان) ، وهما منظومتان في العقيدة والفقه والتصوف ، ومنها أيضا كتاب (مواهب القدوس في نظم نثر شيخنا السنوسي) ، وهو منظومة مطولة في العقيدة مفيدة وصلت إلى ستمائة بيت وخمسين بيتا (**650 بيتا**). وكتاب (الجوهر النفيس) وهو منظومة مطولة أيضا في الفقه المالكي مهمة نظمها وألفها في وقت مبكر جدا في حياة والده ، وقبلها والده ورضي عنها حتى أنه بنفسه درّسها بعضَ أولاده إخوةَ المؤلف. وقد وصلت إلى ستمائة بيت وستة وسبعين (**676 بيتا**).

وله أيضا كتاب (مسالك الجنان) وهو منظومة مطولة أيضا غاية في تقرير حقائق التصوف وانتقائها لبها ولبابها وصفوة السلوك الإسلامي السني الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط على حد تعبيره حينما قال في بيت من أبيات الكتاب (مسالك الجنان):

ولا تَكُنْ مُفَرِّطًا أو مُفْرِطَا

بَلِ اسْتَقِمْ في سُنَّةٍ وأقْسِطا

قد جمع فيها وأوعى وحرّر فيها وأبدع ، وقد وصلت أبياتها إلى ألف بيت وخمسمائة وثلاثة وستين بيتا (**1563 بيتا**). وله أيضا كتاب (منور الصدور) و(ملين الصدور) و (جالبة البرور) و(زاد ذوي التعلم) كُلُّها في التصوف والسلوك الإسلامي السني القويم. كما أن له في علم النحو والعربية كتاب (سعادة الطلاب وراحة طالب الإعراب) وهو منظومة سهلة ميسرة ومفيدة ، كما أنجز في علم التصريف شرحا لكتاب (نزهة الظريف في علم التصريف).

وقد جُمِّعَتْ له مجموعاتٌ ودواوينُ ضخامٌ فيها كتبه التعليمية ومنظوماته وفتاواه الفقهيّة والتوجيهية الإرشادية الدعوية السلوكية التربوية وتفاسيره القرآنية المهمة المنهضة وشروحه الحديثية النبوية النافعة المفيدة ، منها ما نشر وطبع باسم (ديوان العلوم الدينية) وآخَرُ باسم (من فتاوى الشيخ أحمد بامبا). كما أن له أيضا مئاتٍ ومآتٍ من القصائد والأشعار والمنثورات في المدح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

[1] باحث في سلك الدكتوراه ، بجامعة محمد الخامس / الرباط.

وقد نفاه المستعمر الفرنسي إلى جمهورية (الغابون) التي في جزيرة بعمق إفريقيا بعيدا عن السنغال ، بتهم مصنوعة وجَّهها المستعمر إليه مع أعوانهم من بني جلدته من السنغاليين آنذاك فقط من أجل تفريقه وفصله عن مجتمعه وعن أتباعه ومريديه ولتوقيف دعوته التجديديّة الدينية الإسلامية الإصلاحيّة الحضارية الشاملة التي كان يقوم بها ، فأقام هنالك ثمانية أعوام إلا قليلا.

ويسمي الشيخُ في اصطلاحه هذا النفيَ بالغيبة البحرية ، ويقول إنه برحلته هاته أو غيبته البحرية الجزرية هذه وفي أثنائها ، جاهد نفسَه حق الجهاد لوجه الله تعالى ، وعبدَ اللهَ تعالى ، وخَدَمَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بتأليف قصائد وأمداح وصلوات واتباعه والاقتداء به حق الاتباع ظاهرا وباطنا قلبا وجسدا؛ حتى نال بذلك في الله سبحانه وفي رسوله صلى الله عليه وسلم ما نال من الحقائق الإلهية والأسرار الملكوتية والأنوار الجبروتية والمقامات المحمدية الشريفة وما إلى ذلك من الأمور التي يقف على شواهدها من بحث واطلع وقرأ بإمعان على دواوينه الشعرية والنثرية التي كتبها بعد ذلك كديوان (الفلك المشحون) و(ديوان الفيوضات الربانية) وديوان (سلك الجواهر) وديوان (القصائد المطرزة بالآيات القرآنية) و(ديوان الأمداح النوبية) وديوان (سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين) وغيرها الكثير.

وقد صرَّح بكثير مما عاشها من شدائد ومحن وبما لاقاه من كرم الرب تعالى وتأييده الدائم المستمر له في تلك المِحَنِ بأشكالٍ وطرق ربانية عجيبة مختلفة ذكر بعضَها في كتابه: (**جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف**).

وهكذا رجعوا به بعد السنين الثمانية إلا قليلا كما سبق إلى وطنه السنغال ، ثم بعد أشهر قليلة أعادوا نفيَه مرّة ثانية بِتُهَمٍ أخرى شيطانيّة ظُلْمِيَّةٍ مخلوقة إلى أراضي (موريتانيا) بجوار السنغال ، فأقام هنالك أيضا خمس سنوات ، جاءته فيها الفتوحاتُ الإلهيَّةُ والمواهبُ الربانيّة من العلوم والمعارف والمكاشفات والكرامات بين أولياء تلك الأرض الشنقيطية الطيبة وصلحائها وصوفيّتها (من قادريَّةٍ وشاذليَّةٍ وتيجانيَّةٍ) وعلمائها وفقهائها وشعرائها وأدبائها وخواصِّها وعوامِّها ، مَن بايعه منهم ومن لم يبايعه ، حتى أطبقوا واتفقوا على لسان واحد وكلمة واحدة عن أدلة واضحة وبراهين ساطعة في قبول ولاية الشيخ أحمد الخديم ووراثته الكبرى بعلمه وإمامته ورئاسته فضلا عن كرمه وسخائه وجوده على خلق الرحمان بكل ما له بدءا بنفسه وعلمه وماله وجاهه (والجود بالنفس أغلى غاية الجود) ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ويقف عليها الباحث عن الحقيقة إذا اطلع على دواوينهم التي كتوبها في مدح الشيخ أحمد الخديم وقد جمعت بعضُها وهو كثير ، فطبعتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمكلة المغربية سنة 2005م.

هكذا قد خسر وخسأ المستعمر النافي هذه المرة كما قد خسر في المرة الأولى فأعادوه إلى السنغال مرة ثانية ففرضوا عليه إقامة جبريّة في قرية (اتيين) خمس سنوات لا يخرج ولا يتحرك ولا يأتيه أحد إلا بشروط وضوابط ضيقة قد وضعوها ، ثم لإقامة جبرية أخرى في مدينة (جربل) في حدود خمس عشرة سنة قد خففوا تلك الضوابط والشروط على الشيخ تخفيفا وسالموه مُسالَمَةَ خاسرٍ فاشلٍ خيِّبِ الظنّ وفاقد الأمل بعد كل ما فعلوه من أنواع التعذيب والنفي ومحاولات القتل فُرادى وجُمَاعَ بصيغٍ عسكرية ظاهرة متبجِّحة أو صيغ مدنية سريِّة متخفّية في مواجهة من لا يعرف في طول حياته إلا الحلم والسلام ولا يدعو أبدا إلا إلى الهدوء والسكينة والعافية لكن

بالثبات أيضا على **الإيمان الراسخ** بالتوحيد الخالص المُخَلِّص ، **والإسلام القويم** بالعلم والفقه الراشد المرشد إلى الأعمال الصالحة ، **والإحسانِ المَجيدِ** المُجيد بالتصوف السالك المُوصِل إلى الأحوال العالية والحقائق الإلهية العلوية والمقامات المحمدية الشريفة بالأخلاق الكريمة والآداب الحسنة المرضيَّة ظاهرا وباطنا ، قلبا وقالبا.

قلنا إنهم سالموه في فترة الإقامة الجبرية بمدينة (جربل) لكن أيضا كانت مع شدة المراقبة والملاحظة دائما خوفا منه ومن جماعاته وأنصاره ومُحِبّيه المُنتشرين في كل الآفاق آنذاك المؤمنين المتحرِّرين المريدين لوجه الله تعالى الواحد الأحد الفانين السالكين المتوجهين القاصدين المستقيمين على تفاوت درجات قصدهم واستقامتهم المختلفة كما هو سنة الله في الأرض وقانون الحياة في الكون ، والمستعدين أيضا كلهم لكل تضحية من أجل إقامة الدين وحفظ النفوس والأعراض تحقيقا لكرامة الإنسان ، وتحرير العقول وتنمية الأموال لصالحِ العامِّ والخاصِّ في المجتمع ، والقريب والبعيد في الأمة؛ خدمةً للإنسانية وإعلاء لكلمة الله العليا في ذلك كله واستقلالا عن كل تبعية للمستعمرين والملوك الجبابرة في صغيرة أو كبيرة فضلا عن غيرهم من الناس ، إلا اللهَ ورسولَه وتعاليمَهما ، كما يُعلِّمُهم ويُربّيهم ويُرقّيهم إلى مكارمِها أستاذُهم ومُعلِّمُهم وشيخُهم وأنيسُهم وقدوتُهم وحبيبُهم المُفضَّل وهو العبدُ الخديمُ.

وهكذا كان في إقامته الجبرية هذه المستمرة حتى ارتحل فيها إلى جوار ربه ، راضيا مَرْضِيًّا مُرْضِيًا ، وشهيدا في سبيل الله ، قدس الله أسراره وقاد له ما اختاره له ورضي له وأحب.

وقد رثاه بعده ، كما مدحه قبلُ وبعدُ ، من العلماء والشعراء والأدباء السنغاليين والشنقيطيين الموريتانيين وغيرِهم في العالم عددٌ كثيرٌ جدا لا يعدون ولا يحصون ، جمعت دواوينُ بعض منهم ، كدواوين شعراء أهل الزوايا الموريتانيين ، وديوان الشعراء السنغاليين ، وديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري ، وغير ذلك.

وقد توفي الشيخ الخديم رضي الله عنه سنة [1346هـ/1927م] في مدينة (جربل) بالسنغال ، فنقل إلى المدينة التي أسسها من قبل وسمّاها (طوبى) ، فووري جثمانُه فيها ، ومازال ضريحُه هنالك يُزار حتى الآن.

كما أن المدينة أصبحت عامرة وثانية أكبر مدينة في السنغال من ناحية السكان والوزن الاقتصادي كما أنها مستقلة في نظامها التدبيري الإداري باعتبارها مدينة دينية إسلامية تدور على مدار الإسلام وتعاليمه في صغيرة وكبيرة قدر الطاقة والجهد والاستطاعة؛ قال تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموت إلا وأنتم مسلمون**) [سورة آل عمران: 102].

وقال: (**فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**) [سورة التغابن: 16].

وهي من هذه الناحية هي الأولى في السنغال وفي إفريقيا إن وجد في أماكن أخرى من العالم حسب علمي ، والله تعالى أعلم.

وله ملايين من الأتباع في السنغال وفي غيرها من دول العالم بكل القارات الخمس. كما أن خلفاءه وذريته وأتباعه ما زالوا على دربه يتعلمون ويعلمون ويجتهدون ويصلحون ويدعون إلى دين الله الإسلام بالسنة النبوية المطهرة ، ويُربّون الناس على العلم والعمل والأدب المرضي قدر الطاقة والجهد والاستطاعة أيضا على ممر التاريخ ، لكن ينبغي على طالب الحق الباحث عن الحقيقة أن يرشُد ويتنبه إلى

ضرورة القدرة على التمييز في الناس وأنهم كما هو معروف في قوانين الكون وسنة الحياة قديما وحديثا وفي مختلف الأديان والمذاهب والنظم ليسوا سواء منهم العالم والجاهل ، ومنهم العامل والعاطل ، ومنهم المؤمن والمنافق ، ومنهم القوي والضعيف ، ومنهم المصلح والمفسد ، ومنهم الخير والشرير ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وينظر لمن أراد التوسع في حياته وسيرته وفكره وتربيته وآثاره ونموذجيته (منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم) لابنه العلامة الشيخ محمد البشير ، وكتاب (إرواء النديم من عذب حب الخديم) لتلميذه العلامة الشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، و(النفحات المسكية في السيرة البكية) للشيخ العلامة تلميذه محمد عبد الله بن عبيد الرحمان العلوي الشنقيطي ، و(حقائق عن حياة خادم الرسول وحركته الإصلاحيّة) لحفيده المصلح البارع الشيخ مصطفى لوح بن المعلم المقرئ الأكبر الشيخ عبد الرحمان تلميذ العبد الخديم ومريده ، و(خلاصة عن حياة المربي الحكيم) مع كتاب (الشيخ أحمد الخديم القائد الرباني) كلاهما لحفيده الفقيه الفرضي العالم الكاتب الخطيب الإمام أخي الكبير الشيخ أحمد خادم امباكي بن الشيخ محمد المنتقى حفظهما الله وأبقاهما.

تمهيد:

يقول الشيخ محمد البشير بن الشيخ أحمد الخديم في كتابه (منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم) ، في سياق التعريف بالشيخ أحمد الخديم وبدايته مع والدته السيدة جارة الله مريم بوصو وعلاقة هذه الأخيرة بربها ، وبقرينها أي زوجها الشيخ الإمام محمد بن حبيب الله[2] والد الشيخ أحمد الخديم ، ما لفظُه:

"وكانت الوالدةُ[3] جارةُ الله مريمُ صالحةً عفيفةً ديّنةً ، كثيرةَ الصلاةِ والصومِ والصدقةِ ، مستسلمةً لربها ، قائمةً بواجبات دينها ، بينها وبين ربها ، وفيما بينها وبين الشيخ الإمام قرينِها[4]. وكانت تُربّي أولادَها على المروءة والدين والطهارة. وكثيرا ما تَحكي عليهم حكاياتِ الصالحين.

وكان شيخُنا[5] من ذكائه العجيب وفطرته السليمة ، يُصغي لتلك الحكايات ويحفظها ، ويتكلّف – وهو لم يُكمّل التمييزَ – العملَ بما قدر عليه منها. حتى حكى عليَّ بعضُ من أثق به من الأقارب أنه حضرها[6] يوما تقول: (من دأب الصالحين قيام الليل) ، فصار من هذا الحديث كلَّما جنَّ الليلُ يقوم — وهو لم يَدخلِ

---

[2] – هو أحمد بن محمد بن حبيب الله بن محمد الكبير بن حبيب الله الأول بن محمد الخير نزيل جُلفْ بالسنغال. وهو مشهور بالشيخ أحمد بامبا والعبد الخديم وأحمد الخديم ، ولد سنة [1270ه/1853] في قرية جده "امباكي بَوُلْ" ، وتعلم القرآنَ في صغره وحفظه مبكرا على يد والده ، وبدأ تعلّم العلوم الشرعية والعربية عند عمه صَمْبَ تُكُلُورْ كَهْ ، ثم انتقل إلى والده المعلّم القاضي يتعلم ويجتهد ، ويختلف إلى من حولهم من العلماء المجاورين لهم في بلاد السنغال وفي خارجها ليستفيد منهم كالقاضي مجخَتِ شاعر السنغال وأديبها ، حتى تبحّر في المنقولات والمعقولات ، فنصبه والدُه مدرّسا وأستاذا مساعدا ، في مدرسته الكبيرة التي كانت شبه جامعة إسلاميّة آنذاك يرحل إليها المسلمون من كل أقطار السنغال.

[3] – يتحدث هنا عن السيدة جارة الله مريم في سياق ترجمة ولدِها وابنِها الشيخِ أحمدَ الخديم رضي الله عنهما.

[4] – وهو الإمام القاضي العلامة الشيخ محمد بن حبيب الله البكي المعروفُ بمَامْ مُورْ أَنْتَ سَالِي وهو زوجُها وشيخُها.

[5] – يعني به الشيخ أحمد الخديم بن السيدة جارة الله مريم ، المترجَم له في كتابه المذكور "منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم".

[6] – أي الشيخُ حضرَ والدتَها يوما تقول.

المكتبَ[7] – ويخرج إلى ساحة القرية منفردا ، يقوم الليلَ للتعوّد بعادات الصالحين كما سَمِعَ[8] !"[9].

تحليل:

إننا من خلال هذا النص الغني نجد أن السيدة مريم جارة الله مريم بوصو والدة الشيخ أحمد الخديم كانت عفيفةً وصالحةً من الصالحات بمعنى الكلمة ، كما قال تعالى في القرآن الكريم: (**فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ** الله) [سورة النساء ، الآية: 34]. تلك الصوالحُ من النساء هُنّ القوانتُ اللواتي يخدمن أزواجهن ويُطِعْنَهم ويقمْن بما عليهن لهم ، وكما قال الإمام المفسر جار الله الزمخشري رحمه الله في الكشاف: هُنّ الحوافظُ "لمواجبِ الغيب إذا كان الأزواجُ غيرَ شاهدين لهنَّ حِفْظَهنّ ما يجب عليهنّ حِفظَه في حال الغيبة ، من الفروج والبيوت والأموال. وعن النبي صلّى الله عليه وسلّم: "**خيرُ النساء امرأةٌ إن نظرتَ إليها سرَّتْكَ ، وإن أمرْتَها أطاعتْكَ وإذا غِبْتَ عنها حفِظتْك في مالها ونفسها**" [رواه أبو داود 1664]"[10].

كانتِ السيدةُ تجسّد هذه المعاني والمواصَفاتِ مطيعةً لزوجها وشيخِها ، قائمةً بواجباتها بينها وبينه ، حافظةً له في غيبه ، نافذةَ الأمر وحازمةً ، عازمةً على فعل كل شيء يُرضي زوجَها ، مُدْمنةً ومديمةً لإرضائه حتى تلبَّبَتْ بذلك واستتبّ لها الأمر وتَهَيَّأ واستقامَ. ولقد صدق الشاعرُ حينما قال في حقِّها [البسيط][11]:

مطيعةً ربَّها والشيخَ سـيدَّها
أرضتْهُ أفعالُها لـه إدمـانا

رواية:

ومما يُروى في صدق عُزْمِها وطاعتِها وخدمتها لزوجها وإرضائها إياه وتضحيتها أن الشيخ محمد زوجها استعان بها ليلةً بعد صلاة العشاء في إقامة حَظِيرةٍ أو جِدارٍ خَشَبيٍّ ساقطٍ من جُدُرِ الدار الخشبية بسبب الرياح القَبْلِيّة للأمطار ، وفي أثناء ذلك بدأت الأمطارُ تتساقط فدخل الشيخُ في بيته ، أمّا السيدةُ مريمُ فاستمرّتْ قابضةً آخذةً بذلك الجدار الذي كانا يُصلحانه ، وسطَ الأمطار؛ خوفا من سقوطه مرة أخرى ، إلى وقت صلاة الفجر ، حيث خرج الشيخُ من بيته إلى المسجد فتراءى شخصا عرف آخرَ الأمر أنه السيدةُ مريم فأصابتْه دهشةٌ وتحيّرٌ مما رأى ، وتعجَّب بهذه الأُعْجُوبةِ العُجَّابِ أيما تعجّب ، فدعا اللهَ تعالى لها ولدا صالحا **يكون تلاميذُه ومريدوه كالنجوم في الغزارة والكثرة والتعدّد**[12]!

دراية:

وهذا النوع من الفعل الأخلاقي الذي فعلته السيدةُ مريم بصدد هذا الحدث هو الذي يسمّيه الفيلسوف المغربي الدكتور طه عبد الرحمان بـ(**الشذوذية الإيجابية**)؛ حيث يأتي الرجل "**أفعالا تصادم المألوفَ من تصرّفات الجمهور**، وتخرج عن القواعد المقررة

---

[7]- أي الكُتَّاب ، يقول صاحب مختار الصحاح: "(الكتَّاب) أيضا و(المكتب) واحدٌ والجمع (الكتاتيب) و(المكاتب)". [ص 527]. ويعني به الكَاتِبُ المدرسةَ القرآنيّة.

[8]- أي كما سمع ذلك من والدته.

[9]- منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، ج.1 ، ص. 34.

[10]- الكشاف: ص. 264.

[11]- ينظر البيت في كتاب المناقب (جلوري سخن جارة) ، ص. 18.

[12]- ينظر
La Vie de Cheikh Ahmadou Bamba en BD, Cheikh Fatma Mbacké, Tome 1, PP. 52-53.

في مجاله التداولي (...) **إذكاء للوعي وإيقاظا للهمّة** (...) وتـُحيي أو ترسّخ قيمَ (**الصدق**) و(**العمل**) و(**العلم**) و(**الحكمة**)..."[13] ، وغيرها من أمثال هذه القيم التي من أجلها ينجز مثل هذا الفعل أو الحدث الإشاري.

استنباط واستنتاج:

ويمكننا أن نذكر هنا من آثار الدعاء المأثور ومن المواهب التي وهبها الله تعالى للسيدة جارة الله مريم بوصو بفعل عملها مع قرينها الشيخ الإمام من لدن الحق المنان المولى جل وعلا الرحمان ، ولدَها الرضيَّ الوليَّ الصالحَ الذي دعا لها زوجُها بصدد هذا الحدث التاريخي العظيم ، بحيث **نرى** اليومَ **أتباعَ** ولدها الشيخِ أحمدَ بامبا[14] المعروف بعبد الله وخديم الرسولِ — صلّى الله عليه وسلّم- **ومريديه منتشرين** في كل أصقاع العالم - بدون استثناءِ قارَّةٍ من القارّات الخمسة - ، "**وتعلّقتْ قلوبُ الملايين في السنغال به**"[15] ، كما قال صاحب كتاب (**من أقطاب الأمة في القرن العشرين**) الشيخ خالد محمد ثابت المصري الذي ذكر الشيخَ أحمدَ الخديمَ ضمن هذا الكتاب ثالثَ الثلاثةِ الذين اختارهم متفردين أقطابا مصلحين للأمة في هذا القرن.

الدعاء سلاح المؤمن حقا:

هذا ، فضلا عن أنَّ الشيخَ الخديمَ نفسَه قد دعا اللهَ تعالى — والدعاء مستجابٌ بفضل الله المنان بشهادة الواقع وقرائن الأحوال- أن يهبَ له **أنصارا** ينصرونه في البلدان والأمصارِ في إعلاء كلمة الله العُليا الواحدة الحقّة وتجديدِ الدين الإسلاميِّ بالسنة النبوية المطهّرة ، حيث قال وهو يدعو ربّه[16] :

وهبْ لي النُّصْرةَ في البُلدانِ

جميعِها يا خالقَ الأزمانِ

وصَيِّرِ الجميعَ لي أنصارَا

بجاهِه ورُضْ ليَ الأمصارَا

كما نرى في كتاباته يقول إن هدفه ونيّتَه هما تجديدُ الدين الإسلامي مع أتباعه الذين علّمهم وربّاهم وهيّأهم في سبيل ذلك ، حيث يقول[17] :

للمصطفى نَوَيْتُ ما يُجَدِّدُ

سُنَّتَهُ الغرّآ وإني أحمدُ

دينٌ سِوى إسلامِه لا يُحْمَدُ

عند الإله وبه نُجَدِّدُ

فعبّر عن ذلك بضمير الجمع المتكلم في فعل "**نجدد**" كما رأينا ، وكما رأيناه أيضا يصرّح بذلك في قصيدة أخرى بدعائه اللهَ سبحانه أن يهبه (**ذرية طيبة صالحة مجدِّدين مجتهدين**)؛ **وجماعةً مستفيضةً ممكَّنَة متبحِّرين "متأهّلين لتدريس الفنون**"[18] على حد تعبير العلامة الرباني العبقري الشيخ الفقيه الفلكي المؤقت المقرئ الشاعر الأديب أحمد البوصوبي تلميذ الشيخ الخديم ومريدُه وابنُ خاله في (**رسالته التي وجهها إلى حاكم السنغال في فترة الاستعمار الفرنسي مسيو بروفيه**) بيانا منه وتوضيحا لمهمة الشيخ الخديم التجديدية الدينية الإسلامية الحضارية؛ التي تنطلق من التدريس والاجتهاد في العلوم النافعةِ المفضيةِ إلى الأعمال

---

[13] - من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر ، طه عبد الرحمان ، ص. 85.

[14] - سبقت ترجمته في بداية البحث.

[15] - من أقطاب الأمة في القرن العشرين: محمد خالد ثابت ، ص. 185.

[16] - البيتان من ديوانه المسمّى "بالفلك المشحون".

[17] - البيت من قصيدته التي مطلعها: "الحمد لله الذي قد جاد لي بما به شكرته من نائل".

[18] - رسالة الشيخ امباكي بوصو إلى حاكم السنغال المسيو بروفيه: ص. 3.

الصالحة البانيةِ العامرةِ للحضاراتِ الإنسانيَّةِ المختلفةِ على ممر التاريخ والزمان.

وفي ذلك يقول الشيخ الخديم داعيا والدعاء سلاح المؤمن:

وهب لنا ذريّةً تديـمُ
العملَ الصالحَ يا قـديـمُ

ويقول[19]:

ذريـــــــة طيبـة تجـدِّدُ
نهجَ النبيِّ المصطفى تجتهدُ

هذا ، مع أنه أعرب هو بنفسه عن أن جميعَ المسلمين من جنٍّ عصرِه تعلّقوا به لوجه الله تعالى وصاروا من أتباعه ومريديه في قوله[20]:

بِيَ تـعلّقَ الذين أسلَمُـوا
مِنْ جِنِّ عَصْرِي دُونَ مَنْ لَمْ يُسلِمُـوا

ويجدُر هنا أن نعرف أن الجنَّ منهم صالحون ومؤمنون ومسلمون ، ومنهم دون ذلك كما أقرّوا هم أنفسهم بذلك في محكم تنزيل ربّنا تعالى ، حينما قالوا: ﴿وَإِنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴿١١﴾﴾ [سورة الجن] ، وقولهم أيضا فيه: ﴿وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً ﴿١٣﴾ وَإِنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴿١٤﴾﴾ [سورة الجن].

كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء:

ولا يكون ذلك إلا من باب (كرامات الأولياء) المتفرعة بدورها عن حسن اتباع الأنبياءِ أصحابِ المعجزاتِ ، علما بأن الجن مع الإنس ، كما قال الشيخ ابن تيمية الأصغر رحمه الله في كتابه (**الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان**): هم "على أحوال: فمن كان من الإنس يأمر الجنَّ بما يأمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيّه ، ويأمر الإنسَ بذلك ، فهو من أفضل أولياء الله تعالى ، **وهو في ذلك من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ونوّابه**"[21] ، إلى آخر أحوال الجن مع الإنس التي ذكرها ابن تيمية في كتابه المذكور.

فعدّ ابن تيمية في هذا النص أعلاه تلك الحالَ الأولى — كما رأينا — من أفضل كرامات الأولياء أو مما **يجعل صاحبَها الوليَّ من أفضل أولياء الله تعالى بل من خلفاء الرسول الله صلى الله عليه وسلم ونوّابه!**

وهذا غايةُ تكريمِ الله تعالى لعبده ووليّه كما قال ابن تيمية: "وإنما غاية الكرامة لزومُ الاستقامة ، فلم يُكرِم الله عبدا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ، ويزيده مما يقرّبه إليه ويرفع به درجته ، وذلك أن **الخوارق منها ما هو من جنس العلم ، كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك ، كالتصرفات الخارقة للعادات** ، ومنها ما هو من جنس الغنى ، من

[19] – البيت من قصيدته التي مطلعها: "يا ربنا يا ربنا يا ربنا يا ربنا يا ربنا يا حبنا".
[20] – ورد البيت في كتاب إرواء النديم ، ص. 217.
[21] – الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان: ابن تيمية ، ص. 196.

جنس ما يُعطاه الناسُ في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى"[22].

وذلك إذن كرامةٌ من كرامات ولد السيدة مريم العبدِ الخديم التي قال فيها: "**ومن أسرار غيبتي[23] أنّ مَنَّ اللّهُ عليَّ بسبعِ كراماتٍ معجزاتٍ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهي:**

1- **غَلَبَ لي اللّهُ أعدائي قبل ظهوري ،**

2- **وَهَبَ لي علما لم يكن من التعلّم ،**

3- **وباهى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم كلَّ الأنبياء بِغُربَتي عَشْرَ سِنِينَ وخِدْمَتي له فيها الخدمةَ الخالصةَ ،**

4- **وحَبَّبَني اللّهُ تعالى إلى كلِّ سعيدٍ ،**

5- **وأيّسَ إبليسَ وكلَّ لعينٍ معه مني ،**

6- **وحببّني تعالى إلى الملائكة الكرام ،**

7- **وحبّبني إلى مؤمني الجنِّ ، والمسلمون منهم في زمني تعلّقوا بي لوجه الله**"[24].

هذا ، مع العلم بأن أهل السنة والجماعة أجمعوا على أن كلَّ ما يصحّ أن يكون معجزةً للأنبياء يصحّ أن يكون أيضا كرامةً للأولياء ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**العلماء ورثة الأنبياء**" [رواه أبو داود] ، في العلم والولاية والكرامة وغير ذلك.

وعلى هذا يقول الإمام ابن تيمية: "وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم"[25].

وهؤلاء الأولياء هم أولياء الله الذين يقول فيهم الله تعالى في القرآن: (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤).

وصرّح الله سبحانه وتعالى بالصفات التي هي الفرقانُ بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان. كما ورد في الحديث القدسي الشريف قوله تعالى: "**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته. ولا بد له منه**" [متفق عليه].

صفات الأولياء وخصائصهم:

فبهذا نعرف أن أولياء الله تعالى هم المتصفون بالإيمان والتقوى ، "**فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون**

---

[22]- الفرقان: ص. 187.

[23] - يقصد بالغيبة هنا رحلته إلى دولة "الغابون" لما نفاه إليها الاستعمار الفرنسي من أجل عرقلة دعوته الإصلاحية والتجديدية بتهم وجهها المستعمر إليه ، وأقام هنالك ثمانية أعوام إلا قليلا كما تقدم ، ويقول الشيخ إنه برحلته هاته أو غيبته وفي أثنائها ، جاهد نفسه ، وعبدَ الله ، وخدم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بتأليف قصائد وأمداح وصلوات ، نال بها ما نال. [يراجع كتابه: جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف].

[24]- إرواء النديم: ص. 216.

[25] - الفرقان: ص. 155.

ولايتُه لله تعالى ، فمن كان أكمل إيمانا وتقوى كان أكمل ولاية لله تعالى"[26] ، كما أن من خصائصهم أيضا الاقتداءَ بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث "يفعلون ما أمر به وينتهون ما عنه زجر ، ويقتدون به فيما بيّن لهم أن يتبعوه فيه ، **فيؤيّدهم بملائكته وروحٍ منه ، ويقذف اللهُ في قلوبهم من أنواره** ، ولهم الكرامات التي يكرّم الله بها أولياءَه المتقين".

حُجِّيَّة الكرامة وحاجِيَّتُها في الدين وأهله:

ويقول صاحب الفرقان عن أسباب ظهور الكرامات من الأولياء: "وخيارُ أولياء الله كراماتُهم **لِحُجَّة في الدين أو لِحاجَةٍ بالمسلمين** ، كما كانت معجزاتُ نبيّهم صلى الله عليه وسلم!"[27].

طبقات الأولياء:

هذا مع العلم بأن "أولياء الله على طبقتين: **سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقتصدون** وذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز"[28] منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فاطر]. وقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٩﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٠﴾ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١١﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١٣﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الواقعة]. وقوله أيضا: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾. [سورة الواقعة]. وغير ذلك من آيات.

أدلة ولاية العبد الخديم وبراهينها الساطعة:

وإذا تقرّر هذا الذي تَقدّم يلزم منه أن نقف على أدلة ولاية العبد الخديم وبراهين اتصافه **بصفات** أولياء الرحمان التي هي (الإيمان والتقوى والمحبة والتقرّب) ، ومدى توفّر **خصائصهم** التي هي **الاقتداء التامّ** بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم لديه.

منهج التعرف على ولاية العبد الخديم:

ولا تكون معرفةُ ذلك إلا من خلال تتبّع أقواله هو نفسه وعقائده ومواقفه وأعماله وآثاره ضمن كتاباته وفي تاريخه وسيرته ، مع النظر في علاقاته بأهل زمانه وعصره من أهل العلم والمعرفة والعمل والصلاح ومدى تقبلهم وإطباقهم على ولايته وإمامته ورئاسته.

المرحلة الأولى: (مرحلة التزود والتسلح الإيماني الواثق)

وعلى هذا نرى أنه في أُولَيات كتاباته وحياته كان دائمَ الدعاء لله سبحانه وتعالى بأن يتولّاه ويكون وليَّه ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٦﴾﴾ ، وأن يُسلكه طريق أوليائه الصالحين ، لأن الدعاء هو أول شيء يُبدأ به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**الدعاء**

---

[26] – المصدر نفسه: ص. 28.
[27] – المصدر نفسه: صص. 154- 155.
[28] – المصدر نفسه: ص. 29.

مخ العبادة" [رواه الترمذي] ، و"**الدعاء سلاح المؤمن**" [رواه الحاكم].

وفي ذلك يخاطب ربَّه ، ويقول بعد تقديم التوبة من كل الذنوب والعيوب "**كن لي يا وليي في الدنيا والآخرة ، تولّني في الدنيا وفي الآخرة ، وأكرمني ، وبشّرني فيهما بما أكرمت وبشّرت به الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يا مالك الدنيا والآخرة ارحمني فيهما وفي البرزخ وحقّق رجائي ولا تقطعه...**"[29]. ويقول أيضا[30]:

ولي كن ربا وليا ونصـــيرْ

ولجميع المسلمين يا بصيرْ

ويقول:

وكن وليّي في الحياة ولدى

موتي وفي القبر وفي الـحشر غـدا

ويقول:

فلي كن حصنا ودأبا يـا صمدْ

تَوَلَّني ولا تَكِلْنـي لأحـدْ

ويقول:

فلا تكلني لكـلاءة أحدْ

غيرَك بل كن لي وليًّا يا صمدْ

ويقول:

وبي اسلُكَنْ ربِّ طريقَ الأولـيآ

النـجباءِ المخلصين الأصـفيآ

ويقول:

وهب لِيَ الذكرَ بشكر كلَّ حِـنْ

وعُدَّني من جملة المقرَّبـينْ

المرحلة الثانية: (مرحلة الانطلاق والتوجه الإسلامي الصادق)

وبعد هذا الدعاء الذي دعاه اللّهَ سبحانه لأن يتولّى أمرَه ويُسلكَه طريقَ الأولياء ، نراه في أبيات أخرى يتوجّه إلى الله تعالى بنية صادقة ، ويعبّر عن إرادته وعزيمته على سلوك طريق الأولياء بعد ذلك الدعاء ، الأمر الذي يدل على أن الله سبحانه أجاب دعاءَه ، حيث يقول يناجي الله تعالى ويوكّد له ربوبيّتَه وألوهيّتَه وجميعَ صفاته الأزليّة القائمة بنفسه ، ويحققها تحقيقا كاملا لا يدع للشاكِّ الشكَّ في إيمانه وتوحيدِه ربَّه توحيدَ المؤمنين الواثقين المطمئنين بربهم وفي ربهم حق الثقة والاطمئنان.

وزيادة على ذلك ، نجده يُقِرّ أيضا ويعترف ويتأكد ويتحقق هو بعبوديته وفقره مع توجّهه واستسلامه وإسلامه وجهَه لله تعالى وإعطائه كليّتَه له بلا استثناء شيء من أموره حتى نفسه وأهله وولده ومسكنه ودينه ودنياه وأخراه ، الأمر الذي يدعوه إلى التصريح بعدم ميله إلى غير الله تعالى وبعدم لجوئه إلى أي شيء ينافي الاستغناءَ بالله أو الشك والارتياب في ربوبيّته تعالى ، كمدافعة المخلوقين أو منازعتهم أو المكابدة والمحاسدة والمقاطعة وغير ذلك مما يشبه مزاحمة الرب في ربوبيته أو ألوهيته. وذلك مع نية الاقتداء دائما بنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم واتباع سنته واقتفاء آثاره ، امتثالا لله تعالى واجتنابا لنهيه.

دليل أول:

ومن أدلة ذلك وشواهده مناجاته في مقدمة كتابه المسمى بـ (مقدمة الخدمة): "**اللهم إني مقرٌّ لك في**

---

[29] – من مقدمة كتابه أو صلواته المسماة بـ"مقدمة الخدمة".

[30] – الأبيات الآتية من قصيدته مطلب الفوزين إلا البيت الرابع ، فهو من قصيدته المسماة بـ "السلسلة القادرية".

هذا اليوم وبعده بالألوهيّة ، وبالوحدانيّة ، وبالنفسيّة ، وببقيّة السلبيّة ، وبالمعاني ، وبالمعنويّة ، وبالربوبيّة ، وبالأسماء الحسنى ، وبأنك مالكُ كلِّ شيء ، وخالقُ كل شيء ، والعالمُ بكل شيء ، والحاكمُ على كل شيء ، والقادرُ على كل شيء (...)

اللهم إني مقرٌّ لعبدك ورسولك وحبيبك سيدي ومولاي ووسيلتي إليك من هذه الساعات إلى وفاتي ، وقرة عيني محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة ، وبالصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، وبأنه أفضلُ الخلق جميعا ، وبأني جعلتُه اليوم وغدا وسيلتي وقدوتي ، وبأني رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبيا ورسولا ، وبالقرآن دليلا ، وبالكعبة قبلة ، ومقرٌّ لك بأنك خيرُ الرازقين ، وأكرمُ الأكرمين ، وأرحمُ الراحمين ، وبأنك الغفورُ الرحيم الشكور الجواد الكريم البر الواسع النافع الغني المغني..."[31].

دليل ثان:

ومن ذلك أيضا قوله في قصيدته (مطلب الفوزين)[32]:

هذا وإني اليوم يا وهّـــــابُ
غيرَك في الدارين لا أَهــابُ

وإنني يا برُّ يا كـــــــريمُ
داعٍ وعــن شكرك لا أريـــمُ

منذ جذبتَني إليك يا مُعيــنْ
عنايةً منك إليك لــتـعـيــنْ

فقمتُ مجذوبا إليك مِــنْكَا
بك عليك ورضتُ عَنْكَــا

مفوِّضا مسلِّما إليــكا
أمري مُهاجِرا لِما لَدَيْكَــا

ثم إليك لا إلى سواكا
قد سرتُ لمّا أَجِدْ شَرْوَاكَا

دليل ثالث:

وهو قوله أيضا:

يا برُّ يا رحمانُ يا وكيلُ
إني كسولٌ نائمٌ أكولُ

يا مالكي يا خالقَ الأنامِ
أَمِتْ هوايَ قلِّلَنْ منامِي

يا خالقي يا كاملَ الصفاتِ
لك اشتكيتُ كثرةَ الآفاتِ

وأنت ذو الجلال والإكرامِ
فنجِّني وأَوْلِني مَرامِي

منك أروم اليوم أن أكونا
ممّن أَبَوْا لغيرك الركونا

وأن أطيعك بنهج المصطفى
سنّتِه البيضاء يا مَنِ اصطفى

يا غافرَ الذنوبِ يا قريبُ
إني عُبَيْدٌ هاهنا غريبُ

لي هب بذاك ولإخواني جميعْ
سعادةَ الدارين حقًّا يا سميعْ

هَبْ ليَ في هذا الدعآ الإجابةْ
بالمصطفى والآل والصحابةْ

---

31 – من مقدمة كتابه أو صلواته المسماة بـ"مقدمة الخدمة".

32 – الأبيات الآتية من قصيدته مطلب الفوزين.

دليل رابع:

وهو قوله أيضا:

أنا الذي لستُ أميلُ أبداَ
إلى سواك ها هنا ثم غداَ
لم لا وأنت ربِّيَ الوكيلُ
وأنت حَسْبِيَ فلا أميلُ
يا برُّ أنت ربّيَ الوهابُ
وفي فُتوحاتك لا أرتابُ
يا برُّ أنت ربّيَ الحسيبُ
وأنت حسبِيَ فلا أخيبُ
يا عدلُ أنت ربِّيَ المُدافعُ
وأنت حسبيَ فلا أُدافِعُ
يا حيُّ أنت ذو الجلال الواسعُ
وأنت حسبِيَ فلا أنازِعُ
يا ربِّ أنت ذو المحال الواحد
وأنت حسبيَ فلا أكابدُ
يا فردُ أنت ذو العطايا الماجدُ
وأنت حسبِيَ فلا أحاسدُ
مولايَ أنت ذو الهدايا النافعُ
وأنت حسبـــيَ فلا أقاطِعُ
أنت الذي تولِي مُحِبِّيك هُدَاكَ
وأنت حسبيَ فلا أبغي سِوَاكَ

دليل خامس:

وهو قوله:

نفسي وديني ثم أهلي والولدْ
ومسكني لك وديعةٌ أبدْ
وهكذا دنيايَ مَعْ أخراياَ
ففيهما عَنِّيَ اصْرِفِ
الرزاياَ

المرحلة الثالثة: (مرحلة السير والسلوك الإحساني الرائق)

ومن هنا نعرف جيدا أنّ العبد الخديم بهذه الأبيات وبهذه النية الصالحة والتوجه الصادق والعزيمة النافذة والإيمان الكامل والتوحيد الخالص ، لا بد أن ينتهض نحو تجسيده وتنزيله والسعي على تحقيقه من حيث العمل والطاعة ، لأن الأقوال إذا جُرِّدت عن الأعمال فهي عند علماء أهل السنة والجماعة إرجاءٌ وعبارةٌ عن لا شيء.

ولذلك رأينا في سيرة العبد الخديم أنه قد بنى حياتَه كلَّه على عبادة الله وطاعته واتباع رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم والعمل بكل ما آتاه وأقرّه ، قرآنا وسنة ، وإجماعا ، حيث قال العبد الخديم في قصيدته المسمّاة بالتوبة النصوح[33]:

برهان أول:

بنيتُ طاعتيَ باتباعِ
بالذكر والحديث والإجماعِ
سلبتُ بالكتاب والحديثِ
وبالتقى أسلحةَ الخبيثِ

برهان ثان:

ثم قال أيضا:

اللهُ ربِّي وهُدى الإسلامِ

[33] – الأبيات الآتية من قصيدته المذكورة.

ديني وأفضلُ الورى إمامِي

رضيتُ بالإسلام دين لا يزولْ

وبمحمدٍ نبياً ورسولْ

رضيت بالقرآن أُنْسًا ودليلْ

أعبده جلَّ به إلى الرحيلْ

حبانيَ الوهّابُ بالكتابِ

وبرسوله وبالأقطابِ

مشايخي سيّدُنا الجيلاني

والشاذليُّ معه التيجانِي

أئمتي في الفقه مالكُ العلي

والشافعِي والحنَفِي والحنَبَلِي

برهان ثالث:

ثم قال في نهاية القصيدة:

يَقِينِيَ اليقينُ في ذا اليوم

للموتِ فعلةً تَجُرّ لَوْمِي

مُنَّ عليَّ باستقامةٍ وصَلّ

على الذي مَنِ اكْتَفَى به وَصَلْ

تحليل:

وفي هذه الأبيات السابقة يمكننا أن نتلمّس مدى كون العبد الخديم في حياته كلها على العبادة والتقوى والعمل بمقتضى الكتاب والسنة والإجماع ، حيث عبّر عن ذلك بالأفعال الماضية (بنيت) ، و(سلبت) ، و(رضيت) ، الأمر الذي يدل على عبادته وطاعته في ماضيه ، كما أن جملةَ (يقينيَ اليقينُ) بصيغة المضارعة هذه دالّةٌ على حاله ومستقبله في العبادة والتقوى ، حيث أن يقينَه - كما قال - هو الذي يقيه ويحول بينه وبين فعل كل ما يلام به من الذنوب والمعاصي ، وهذا غايةُ التقوى والورع والثبات والعبادة لله سبحانه وتعالى.

برهان رابع:

وإذا أردنا المعرفة والبرهنة على نفس عبادته ونوع هاته العبادة وطبيعتها ودرجتها ومداها نجلب ما قرره العلامة الشيخ محمد البشير في مِنَنِه ، حيث قال:

"فعبادتُه له تعالى عبادةُ إخلاصٍ وحبٍّ ، وعملٍ على التقرّب بلذة المحبّة وصالحِ الأعمال ، يرجو رحمةَ ربِّه ويحب لقاءَه كما في الصحيح (من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه)"[34].

وإذا احتجنا إلى أن نبرهن على هذا أيضا ذهب إلى ما قرره الشيخ أحمد الخديم نفسه في قصيدته المشهورة ب"الصنديد" فنجده ثَمَّ يقول يدعو اللهَ سبحانه أن يُثبّتَ الإيمانَ واليقينَ في قلبه تثبيتًا يجعله إلى درجة المحبة والشوق إلى لقائه جل وعلا ، فكتب مناجيا دائما وداعيا كما هو سلاحه المتسلح به دائما منذ البداية ، والدعاء سلاح المؤمن:

ثبّتْ يقينيَ في قلبي بلا وَجَلٍ حتى أُحِبَّ لِقَاكَ الحقَّ يالله

المرحلة الرابعة: (مرحلة الوصول والاستقلال)

وتبيّن مما سبق ، كما قال العلامة الرباني العبقري العارف بالله الدال عليه بالتأليف والتربية الشيخ محمد البشير تلميذ الشيخ الخديم ومريده وابنه المترجم الأكبر لحياته ، أن العبد الخديم "**أسّس بنيانَ سلوكه على بصيرةٍ منه على التقوى ، وهي الامتثالُ والاجتنابُ كما نزل به الذكرُ ، وبيّنه الحديثُ ، وقرّره الإجماعُ!**

[34] - منن الباقي القديم ، ج.1 ، ص. 181.

إنه عليها عوّل وبها اعتمد فعزّ بها وبزّ ، كما قال: (سلبت بالكتاب) البيت (...) فرضيَ باللّه ربّا ، وبمحمد نبيّا ورسولا ، وبالقرآن أنيسا ودليلا!

ثم عطف على من لهم عليه مِنّةٌ ما ، فقال: (مشايخي سيدنا الجيلاني....) إلى آخر البيتين. وذلك لأن من لم يشكر الناسَ لم يشكر اللّهَ ، فإن الأسباب حقٌ عند ذوي الألباب.!

ثم لَوَّحَ بآخر البيت الأخير من المنظومة بما استقرّ عليه أمرُه بقوله: (.... وصَلِّ على الذي مَن اكتفى به وَصَلَ) بلا واسطة ، فَوَصَلَ! هكذا كان!"[35].

وبهذه الإطلالة الوجيزة ، واعتمادا على ما رأينا وظهر مما سبق ، يمكننا أن نثبتَ ولايةَ العبد الخديم فنقر له بأنه من أولياء اللّه تعالى الذين اتصفوا بصفات الإيمان والتقوى والمحبة والرضى اتصافا كاملا لا شِيَةَ فيه ، كما توفرت لديه خصائصُهم التي هي الاقتداء التام بنبينا وسيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم واتباعه واقتفاء آثاره قولا وعملا.

برهان خامس:

وبذلك أيضا صحت بذلك شهادةُ الشيخ محمد أَبْسَ فَالْ صاحبِ قرية انْكِيكَ فَالْ Nguika Fall وعالِمِها الذي هو "آخر من ضمّ مجلسُه الأعيانَ من العلماء والطلبة قبل تضعضع أركان التدريس"[36] في السنغال ، حيث شهد للعبد الخديم **الإمامةَ والرئاسةَ** فضلا عن **الولاية والعلم والدين** ولوازمه ، وقال: "((لو لم يكن معه شيءٌ إلا علمُه وصحّةُ دينِه ، وكثرةُ عباداتِه وورعُه ، وقوّتُه في القيام بالأوامر واجتهاده ليلا ونهارا في أوامر ربه وسنة نبيه ، من نوافل الخير والذكر والصلاة على النبي ، والتلاوة ، لأهّلته (تلك الصفاتُ) **أن يكون إمامَ قُطْرِه ورئيسَ وقتِه!**))"[37].

تبرير وتعليل:

هذا كله من شأن اللّه تعالى مع عباده وعنايته بهم ، وسنّته في الأرض ولن تجد لسنّة اللّه تبديلا ولا تحويلا ، وقديما قال الحكماءُ: "**مَنْ طَلَبَ الأمْرَ وَجَدَّ وَجَدَ ، وَمَنْ قَرَعَ البابَ وَلَجَّ وَلَجَ**"[38].

ولمثل هذا عملتِ السيدةُ مريمُ وصنَعتْ ، بحيث إنها – بإيمانها العميق بأنه "لا تجتمع الراحتان: راحةُ الأمِّ في بيت زوجِها وراحةُ الولدِ في حياته"[39]– ، طلبتِ الخيرَ وجَدَّتْ واجتهدتْ فنَصِبَتْ وتعِبتْ وصَبَرتْ وأخلصتْ وأحسنتْ فوجدتِ اللّهَ لا يُضيع أجرَ من أحسن عملاً ولا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ وما هو بظلاَّم للعبيد. ثم قرَعتِ البابَ ولجَّتْ وتمادتْ وأصرّتْ مع إيمانٍ وتقْوى ففتح اللّهُ لها بركاتٍ من السماء والأرض وَالِجَةً داخلةً عليها بسلامٍ.

عناية اللّه السابقة:

فكان كل ما رأيناه وتحدثنا عنه من شأن ولدها العبد الخديم وولايته ، كل ذلك من جزاء اللّهِ – الذي لن يزال أبدا محسنا لعباده– للسيدة جارة اللّه مريم وعملها الدؤوب لنيل رضوان اللّه ورضى قرينها وزوجها الشيخ الإمام والد العبد الخديم رضي اللّه عنهم وقدس أسرارهم ، وكان الجزاءُ مِنْ جِنْسِ العملِ عن سابقة كرامة وعناية من اللّه تعالى القائل في كتابه العزيز: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**

[35] – المصدر نفسه: ج.1 ، صص. 143 – 144.
[36] – المصدر نفسه: ج.2 ، ص. 357.
[37] – المصدر السابق: ج.2 ، ص. 358.
[38]– نهجُ قضاءِ الحاجِ فيما من الأدبِ إليه المريدُ يحتاجُ ، الشيخ أحمد الخديم ، ص. 23.
[39]– السيد جارة اللّه مريم بوصو: ص. 14.

وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١١﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٢﴾) [سورة الكهف].

ركن التراث المريدي

المحطات المنهجية في نشأة الفكر الخديمي وتطوره

بقلم الباحث: مد فاي[40]

بسم الله ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد:

فإن الفكر الخديمي مر من خلال تطوره بمراحل مهمة جدا تدل على الفكر المنهجي لدى الشيخ الخديم ، والبعد النظري المتصف بوضوح الرؤية ، ودقة المنهج ، وبعد الهمة.

وقد اختلف معايير الباحثين المريدين في تحقيب مراحل تطور الفكر الخديمي ، فمثلا الأستاذ صالح سلام يعتمد على معيار البيعة الخديمية فيقول: "تحقيب تاريخ هذا الفكر إلى مرحلتين مختلفتين: مرحلة ما قبل البيعة ومرحلة ما بعد البيعة أو مرحلة ما قبل جيسش (1313ه/ 1895م) ، ومرحلة ما بعد عام (1895م). في هاتين المرحلتين يجد قارئ المريدية نفسه أمام مظهرين مختلفين لشخصية واحدة: مظهر مفكر مقلد قارئ ناقد ، باحث عن الدليل يحقق في معارف عصره ورجالها ، ومظهر مفكر مستقل تحرر من التقليد والابتداع إلى الإتباع والإبداع. كل مظهر من هذين المظهرين يعبر عن مرحلة تاريخية كاملة تختلف عن المرحلة الأخرى سواء تعلق الأمر بتاريخ المريدية بخاصة أو تاريخ الحركة الفكرية الإسلامية وعلاقتها بتاريخ السنغال بعامة"[41].

أما الأستاذ مصطفى جوب الككي فقد تبنى تصنيفا آخر أكثر توسيعا ، إذ يصنف الفكر الخديمي إلى أكثر من خمسة مراحل[42] ، وهذا التوسع في التصنيف جعله يهتدي إلى خطوة مهمة جدا في تاريخ الفكر الخديمي ، ألا وهو تحديده الدقيق لمراحل تطور الفكر الخديمي ، والحق أن عمله هذا قفزة منهجية مهمة لفهم التراث الخديمي؛ وهو ما يشكل المحطات المنهجية للفكر الخديمي.

وتأتي هذه المقالة لمقاربة هذا التصنيف المنهجي للفكر الخديمي مقاربة تأصيلية ، تؤصل كل مرحلة من مراحل تطور الفكر الخديمي بالنصوص التأسيسية للفكر الخديمي ، كنصوص الشيخ الخديم نفسه ونصوص الإرواء ، والمنن ، والنفحات وغيرها.

وقد جاءت المقالة بعد هذه المقدمة في خمسة محاور وخاتمة: المحور الأول والثاني: في مرحلة البحث والتحقيق المنهجيين عند الشيخ الخديم ، والمحور الثالث والرابع: في مرحلة التحقق والاستقلال المنهجيين ، والمحور الخامس والأخير في مرحلة ترسيخ أسس الفكر الخديمي.

والخاتمة تتضمن الخلاصة والاستنتاجات والتوصيات.

المحور الأول: مرحلة التحصيل العلمي والبحث عن المنهج عند الشيخ الخديم

تبدأ هذه المرحلة بسن التعلم بحفظ القرآن وتلقي العلم إلى سن الشباب ، (1271هـ - 1301هـ) ، في هذه المرحلة تفرغ الشيخ الخديم لطلب العلم واهتمّ بجمع الكتب؛ يقول الشيخ محمد عبد الله العلوي في النفحات [لم يصرف همته زمن

---

[40] باحث في سلك الدكتوراه ب جامعة شعيب الدكالي / كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجديدة/ المغرب

[41] - صالح سلام: من أجل إعادة القراءة المريدية ، ص/ 138 - 139.

[42] - انظر: كتاب "العمدة في نظرية الخدمة" في المبحث المعنون بـ"أهم محطات الشيخ العرفانية" ، ص/ 38.

الصغر إلا في طلب العلم، ولم يشتغل بتجارة أوحراثة مع أن أهل أرضه لا بد لأحد منهم من ذلك][43]، ويقول الشيخ محمد البشير في المنن: "تلقى من والده الورد القادري... يعمل به ومعوله الكتاب والسنة؛ فجعل همه في جمع الكتب والمطالعة، فجمع كتبا كثيرة؛ من فقه وسيرة وتصوف، ولقي كثيرا من الرجال في أثناء تطواف متعدد؛ كان الباعث عليه البحث عن الكتب، والرجال وزيارة مواضع الصالحين... فظفر بكتب كثيرة؛ مما كان في أرضه السنغال؛ ومما لم يسبق له وجود فيها، ومما كان في أرض البياضين التي طاف في كثير من أنحائها للرغبة نفسها. وفي أثناء ذلك أيضا لقي من مشايخ الطرق جملة وافرة، وأخذ عن بعضهم... وممن أخذ منهم بعض مشيخة الشاذلية، فعمل بوردهم ثمانية أعوام، على ما حكى عن نفسه؛ ثم أخذ التيجانية عن بعض مشيختها المتقدمين، فعمل بها تلك المدة أو أكثر. وجمع في هذه المدد كثيرا من تواليف مشايخ الطرق وعلمائها... كتأليف الكنتي وولده في الطريقة القادرية... وكذلك تواليف الشاذلية وأحزابها... وكذلك كتب التيجانية... إلى غير ذلك من الكتب النفيسة لهم ولغيرهم"[44]. ويقول الشيخ محمد الأمين جوب في الإرواء: إن "في هذه المدة جال الشيخ في البلاد الوُلْفِيَة[45] من "سَالُمْ"[46] إلى "وَالُو"[47] وزار كبارها الأحياء والأموات، واستجاز أشياخها، وتلقن الأوراد من أهاليها"[48]، من قادرية وتيجانية وشاذلية، وفي هذه المرحلة أيضا بدأ بالتأليف ومن مؤلفاته فيها، كتاب "مجمع النورين في فوائد الدارين" و"سلك الجواهر في الأخبار والسرائر" و"السفينة الأمان"، ومنظومة "ملين الصدور" المنسوخ بـ"منور الصدور"، و"مواهب القدوس في نظم نثر شيخنا السنوني" وقصيدة "الصنديد"[49].

وكل ما يمكن قوله إن الشيخ في هذه المرحلة كان يبحث عن المنهج، وكان ذلك باعثه الأساس على التحصيل الدقيق والمتقن، والتطواف الواسع والمستمر والجمع الكثير المحكم.

---

43 ـ محمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي الشنقيطي: النفخات المسكية في السيرة البكية، ت/ محمد بمب درامي وأبو مدين شعيب تياو، ط/2، دار الأمان ـ الرباط، 2019م، ص/65.

44 ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، ت: محمد شقرون، مر: أكاديمية منن الباقي القديم للعلوم الإسلامية، ط/2، دار المقطم القاهرة ـ مصر، 2017م، (1/ 130 ـ 131).

45 ـ الوُلْفِيَة: نسبة إلى وُلْفْ، وهي جماعة عرقية منتشرة في السنغال. لهجتهم تسمى: وُلْفْ أيضا، وكذلك الشخص المنتمي إلى هذه الجماعة العرقية يدعى وُلْفْ. ولهجتهم أكثر استعمالا في السنغال. ينظر في: إرواء النديم من عذب حب الخديم، محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ ص/ 39.

46 ـ سَالُمْ: من الممالك السنغالية التي كانت تابعة لإمبراطور "جُلُفْ" وكانت تمتد من غرب السنغال إلى شرقه، وإلى دولة غامبيا جنوبا، وهي حاليا تقع في إقليم كَوْلَخْ في وسط السنغال. ينظر في: إرواء النديم من عذب حب الخديم، محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ، ص/ 50.

47 ـ وَالُو: من الممالك السنغالية القديمة، وكانت تقع في أقصى جهة الشمال الغربي، وكانت تشمل جزءا من موريتانيا. ينظر في: إرواء النديم من عذب حب الخديم، محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: ص/ 54.

48 ـ محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: إرواء النديم من عذب حب الخديم، ت/ مجموعة من الباحثين، ط/1، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط 2017م، ص/ 86.

49 ـ محمد مصطفى جوب الككي: كتابات الشيخ الخديم التنويرية، ص/4.

المحور الثاني: مرحلة التحقيق المنهجي وظهور الفكر التربوي الصوفي المعروف بالهمّة:

وهي المرحلة التي قام فيها الشيخ الخديم بتحقيق أوراد الشيوخ، يقول صاحب المنن: "قام في تحقيق الورد القادري إذ تنبه عليه من انتظام أهل بيته في سلكه... ثم بلغه ذكر آل الشيخ سيديا تلميذ آل الشيخ سيدي المختار الكنتي فكتب الله في قلبه زيارتهم والأخذ عنهم فذهب إلى الشيخ سيديا بابا، ثم مكث معه زمانا ثم رجع إلى أهله بالورد المذكور... ثم بعد التحقيق لم يكفه ما تحصل عليه منهم... فبحث عن التيجانية والشاذلية فزار آل حمد، ورؤساء الطريقتين، فلم يكن نصيبهم من ترقيته أكثر من نصيب الطائفة الأولى"[50]؛ إذ وجد "أنّ أقصى مراد جل مشايخ الطرق والأوراد، تصحيح السلسلة وتوفية الشروط، والابتهاج بسير رؤساء السلسلة إلى أن تنتهي إلى أحد المشايخ العظام، دون التعطش إلى المناط الأصلي من الكتاب والسنة اتباعا وتخلقا، وتفهم الشريعة والأخذ بأهداب الحقيقة المنورة التي هي ينبوع سر النبوة من معدن النور الأعظم الفائض عن حقيقته ﷺ"[51]، فلما تحقق بهذا تطلع إلى الهمم العالية ودعا إلى التجديد بالتربية بالهمة بدل التعليم فقط، وأعلن دعوته التجديدية الإصلاحية المعروفة بالمريدية، حين خطب قائلا: "ألا من كان صحبنا للتعلم فلينظر لنفسه وليذهب حيث شاء وليأو لجنسه، ومن أراد ما أردنا فليسر بسيرنا وليقم بأمرنا..."[52].

وبعد هذا الإعلان ظهر الفكر التربوي الصوفي لدى الشيخ الخديم حيث "استقلّ بالعبادة والعلم والرياضة على حسب أخلاق القوم بطريق السنة والصلاة على النبي ﷺ، وصار الناس يأخذون عنه العلم، ويلازمه بعضهم للتأسي والاقتداء والتجرد من الدنيا وصدق الإرادة، وجعل يصف حقيقة الإرادة لهم، فسلك بعضهم سبيل الإرادة وبعضهم بقي على ما كان عليه من التعلم، وهو يربي أولئك تربية المريدين الذين هو أولهم. فحصل لهم بين الصدق والإخلاص اللذين لا يشك أحد في تحصيلهم إياهما على الوجه الأكمل من طريق رياضة الذكر والزهد والخدمة للصالحين ولسائر المؤمنين، خدمة ولاء وخدمة إيثار، أذواق رائقة، فظهر عليهم نور الاتباع من الورع وجرت الحكم على ألسنتهم من الأفئدة عن الجود اللدني، وكان بعض من له إلهام بعلوم القوم وصفاتهم يرمقونهم بالإبصار، وبعض العلماء يستخفون بهم ويقولون: لا نعلم طريقا إلى الجنة غير التعلم والتعليم الرسمي"[53]، ولكن الشيخ الخديم كان عظيم الهمة، "وكان يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها"[54]، وذلك لـ"ما سمت إليه همته من المكانة العظمى، والخلافة الكبرى، والوراثة العليا لمقام

[50] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 233 ـ 236).

[51] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 233 ـ 236).

[52] ـ محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: إرواء النديم من عذب حب الخديم، ص/ 75 ـ 77.

[53] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 146 ـ 147).

[54] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 102).

العبودية الأسمى ، بقربه من الله زلفى"[55] ، وعزم نيته على تجديد السنة النبوية الشريفة فيقول:

لِلْمُصْطَفَى نَوَيْتُ مَا يُجَدِّدُ سُنَّتَهُ الْغَرّا وَإِنِّي أَحْمَدُ[56]

وكان التجديد الخديمي في هذه المرحلة منحصرا في إيقاظ همم المسلمين وتجديد عقليات الأمة الإسلامية حتى تواكب ما جاء به النبي ﷺ[57] وفي حث المسلمين عامة وأتباعه خاصة على رفع هممهم؛ وحينما يتعرض أتباعه للاضطهادات والمضايقات "كان يثبتهم ويقوي بصائرهم بحمل هممهم إلى همم أصحاب رسول الله ﷺ [فيقول لهم]: لقد لقي أصحاب رسول الله ﷺ ما هو أشد ، إذ قتلوا في سبيل الله وأهريق دماؤهم وسلبوا أموالهم وأخرجوا من ديارهم فلم يصدهم شيء عن مطلبهم حتى فازوا بمدح الله إياهللْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[58] أما علمتم أن أولئك آباؤكم في الدين فعلام الجزع ، والموت في حقكم قليل؟! ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[59] فاصبروا وأحسنوا إلى من أساء إليكم ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[60] فاجعلوا نصب عيونكم يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[61] فإذا لا يسوءكم رفض من رفضكم"[62].

هكذا كانت هذه المرحلة مرحلة همة بحق ، وأي همة أعلى من همم أصحاب رسول الله رضي الله عنهم.

وقد تميز الفكر الخديمي في هذه المرحلة بالتحقيق والنقد والتقويم ، ظهر ذلك في مؤلفاته فيها كمنظومته "مسالك الجنان" التي أورد فيها ما تحقق من المعارف الصوفية ونقد فيها الواقع المجتمع السنغالي شيوخا ومريدين ، وكذلك منظومته "مغالق النيران ومفاتح الجنان" التي قوّمها بشروط طالب العلم وضوابط المريد السالك ، كنقيض أطروحة لمسالك الجنان.

ويؤرخ الشيخ الخديم هذه المرحلة بعام أسش (1301ه/ 1883م) ، فيقول رضي الله عنه: "ألهم الله كاتب هذه الحروف أن يتعلق برسول الله ﷺ ، عام أسش (1301ه) واشتغل بخدمته عليه الصلاة والسلام إلى عام أيسش [1311ه]"[63].

المحور الثالث: مرحلة التحقق المنهجي وظهور الفكر التجديدي المعروف بالمبايعة بالخدمة:

---

[55] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 129).

[56] ـ الشيخ الخديم: سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، ت/ الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، ط/1 ، 2021م ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ـ المغرب ، ص/ 311 ـ 313.

[57] ـ محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ، ص/39.

[58] ـ سورة الحشر ، الآية: (8).

[59] ـ سورة الأحزاب ، الآية: (21).

[60] ـ سورة فصلت ، الآية: (33 ـ 34)

[61] ـ سورة الإسراء ، من الآية: (71)

[62] ـ محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: إرواء النديم من عذب حب الخديم ، ص/ 96.

[63] ـ محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ـ الآليلت والمحاور/ الأيديولوجية البديلة ، ط/1 ، دار المعارف الجديدة ـ المغرب ، 2019م ، ص/51.

وهي المرحلة التي تحقق فيها الشيخ الخديم من معارف عصره ، يقول صاحب المنن: "وكان التحقق في أواخر عام (يسش 1310ه/ 1893م) وفيه حصل التعرف بالأشياخ الكرام بواسطة العناية من طريق الأوراد لا ترقية الملقنين ، وإن كانت لهم منة الاعتناء والعهد المرعي"[64]. فجدد الشيخ العهد بالمبايعة وحزم للتحرر من قوالب التصوف الجامدة وتقليد الشيوخ إلى السنة البيضاء باتباع الرسول ﷺ[65] ومبايعته بالخدمة ، وتجديد سنته المطهرة ، ويؤرخ الشيخ هذه المرحلة بعام (أيسش: 1311ه/1894م) ، ذلك أن الشيخ الخديم لما تحقق من شيوخ عصره و[لم يحصل على مراده مما يرقي همته إلى الحقائق الشرعية ودقائق التصوف ، لأنه كان يريد دليل حق على الله ورسوله بالأقوال والأحوال والإشارات والأعمال ليصل إلى الله بلا إشراك على سنة رسول الله ﷺ ، أبقى لهم الأدب فجدد التوبة وانقطع رجاؤه من مشايخ العصر ، وتضعضعت ثقته بظواهر الأوراد ، فأقبل إلى الله بقلب منيب وتوصل برسول الله بالخدمة والصلاة على السنة والعمل بالقرآن تلاوة وتدبرا ، فكان هذا الإعراض فاتح عصر جديد في التوبة من التقليد إلى الاقتداء ومن التمسك بالرجال إلى التمسك برسول الله ﷺ][66] ، فكانت هذه المرحلة بمثابة قطيعة منهجية في الوسائل والأسباب إلى مرحلة جديدة في السلوك والتوبة والإنابة إلى الله ، يقول صاحب المنن: [فرجع إلى الله... فكان هذا الرجوع والإنابة إلى الله تعالى فاتحة عصر جديد في حياته وتوبة جديدة في مقامه ، كان ذلك عام (أيسش 1311ه/ 1894م) ، فتقرأه في قصيدته المرتبة على حروف (ابتثجح) رجوعه من الافتقار إلى المخلوق إلى الافتقار إلى الخالق ، ومن التوسل بالأسباب إلى التوسل بخير سبب وأوله سيد الوجود ﷺ ويصرح بمبايعته له عليه السلام وتفريده من بين الوسائل ، ولكل حرف من الحروف الهجائية أبيات قال في أولها:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَفَنِي ... مِنْ لُطْفِهِ عَنْ بِدَعٍ لِلسُّنَنِ

أَشْكُرُهُ جَلَّ عَلَى الْكِتَابِ ... وَالسُّنَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالصَّوَابِ

أُبَايِعُ الْيَوْمَ رَسُولَ الْمُصْطَفَى ... بِخِدْمَةٍ وَأَسْأَلُ اللهَ الْوَفَا

أُعَاهِدُ اللهَ عَلَى أَخْذِ الْكِتَابِ ... بِخِدْمَةٍ لِلْمُصْطَفَى بَابِ الصَّوَابْ

أَحَقُّ جُمْلَةِ الْوَرَى بِخِدْمَتِي ... بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ رَسُولُ الرَّحْمَةِ

إلى أن قال في حرف الظاء:

ظَهَرَ لِي أَنَ اعْتِصَامًا بِالْكِتَابْ ... وَبِحَدِيثِ الْمُصْطَفَى هُوَ الصَّوَابْ

ظَلِلْتُ عَابِدًا خَدِيمًا لِلرَّسُولْ ... مِنْ عَامِ أَيْسَشٍ إِلَى عَامِ الرَّحِيلْ][67]

وفي هذه المرحلة تجسد الفكر الخديمي في مشروع تجديدي شمل جوانب عدة ، من تعليمية وتربوية واجتماعية ، ففي المرحلة السابقة "كانت التربية بالأوراد فصارت بإقامة شعائر الإسلام واستدامة الذكر والتذاكر ، فصارت تابعة بعد أن كانت مسايرة ،

[64] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 233 ـ 236).

[65] . محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ، ص/39.

[66] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 234).

[67] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 237 ـ 238).

وكانت التواليف في تحقيق العلوم الشرعية ، فصارت الكتابة في التحقيق بحقائقها والاتصاف بمحامدها ، وغادرها رسوما ثبت عليها مدارج السلوك لمن عني بالهدى ، وكانت المعاملة مع المعاصرين بالمدارات فصارت إلى الصراحة في الحق ، والمقاطعة على حدود الشرع (أي المعاملة بمقتضى الشرع) حبا وبغضا بلا مداراة ولا مداهنة وقد أوضح ذلك عالم (كجور) وقاضيها مَجَخَتِ كَلَ... الذي [قال الشيخ لرسوله]: (ليكن نطقك وحبك وبغضك في الله ولله فقط)... ثم لما كان (مجخت) فهم كثيرا من هذا المنحى ، جعل يستخبر شيخنا رضي الله عنه فرماه بهذا البيت:

حُقَّ الْبُكَاءُ عَلَى سَادَاتِ الأَمْوَاتِ

تَبْكِي الْأَرَاضِي عَلَيْهِمْ كَالسَّمَاوَاتِ

فأطنب رضي الله عنه في وصف القوم الذين هو معهم معية كاملة قلبا وقالبا ، وبعبارة أخرى يصف نفسه وقومه وذوي تربيته يومئذ في طوبى عام (أسش 1311ه/ 1894م) بعد التعلق بالرسول المصطفى ﷺ"[68] ، فقال رضي الله عنه:

"كَانُوا عِبَادًا بِطَاعَاتٍ لِرَبِّهِمُ

وَكَانَ جَلَّ لَهُمْ رَبًّا بِمِنَاتٍ

كَانُوا يَعُدُّونَ تَرْكَ الْوِرْدِ مَعْ شِبَعٍ

مِنَ الْحَلَالِ مِنْ أَسْبَابِ الْمُصِيبَاتِ

كَانُوا إِذَا اللَّيْلُ أَرْخَى السِّتْرَ ذَا حَلَكٍ

قَامُوا سِرَاعًا لِإِحْيَاءِ الدُّجُنَاتِ

بَاعُوا فُضُولًا بِذِكْرِ اللهِ خَالِقِهِمْ فَالنَوْمَ فِي اللَّيْلِ بَاعُوا بِالْمُنَاجَاتِ"[69]

ويرى الأستاذ الباحث صالح سلام أنّه "إذا كان كتاب (مواهب القدوس) و (مسالك الجنان) قد اختضنا معا المريدية كفكرة (أي الفكر المريدي) في مرحلتها الجنينية ، أي قبل ميلادها ، فإن منظومتي (حق البكاء) و(الصنديد) قد حددتا الاتجاه الفكري العام للدعوة وأفكارها الجديدة في مجال التربية ومناهجها التي اتبعها السلف الصالح بالمعنى الواسع ، لقد عبر الشيخ في هاتين المنظومتين بطريقة غير مباشرة (رمزية صوفية) عن فكرة العودة إلى ماضي السلف الصالح من خلال شعوره العميق بالماضي المفقود ، ماضي الأنبياء والرسل والصالحين والمجددين والمصلحين في تاريخ الوحي الإلهي بهدف استعادة تجاربهم وقيمهم العليا للعمل على توظيفها في اتجاهه التربوي الإصلاحي الجديد:

يَالَهْفَ نَفْسِي عَلَى فَقْدِ الْأَكَابِرِ مَنْ

غَابُوا لِرَبٍّ دَعَاهُمْ لِلْعُلُوَاتِ

نَالُوا بِقَفْوِ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى رُتَبًا

صَلَّى عَلَيْهِ الَّذِي يُعْطِي الْمَزِيَاتِ

قَوْمٌ طَرِيقَتُهُمْ تَكْفِي الْمُرِيدَ أَذَى

مِنَ الْمَرِيدِ وَأَنْوَاعَ الْغُرُورَاتِ

طَرِيقُهُمْ قَصْدُ وَجْهِ اللهِ دُونَ هَوًى

مَعَ الْأُصُولِ الَّتِي تَنْفِي الرُّعُونَاتِ

إلى جانب هذا الشعور القوي بالحنين إلى ذلك الماضي المفقود ، نراه ـ رضي الله عنه ـ يستعيده بطريقة صوفية ، غير مباشرة مع الأركان والمبادي

[68] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 241 ـ 244).

[69] ـ الشيخ الخديم: المجموعة الصغرى ، ص/ 214.

العامة للسلوك ، وآداب السير إلى الله تعالى والصفات المحمودة التي يجب ، أو ينبغي أن يتصف بها المريد والشيخ المربي كلّ فيما يخصّه ، بالإِضَافَةِ إِلَى نَبْذِ التَّقْلِيدِ الَذِّي يؤدي دائما إلى التعصب المذهبي ، وإلى تجديد العلوم الدينية ، وتوحيد كلمة المسلمين ، والمساواة ، والتأييد على قيمة العمل كمعيار أخلاقي اجتماعي"[70].

بعد هذه القطيعة المنهجية ، قام الشيخ برسم معالم منهجه الجديد وهو منهج السلف الصالح كما نوه بصفاتهم في قصيدته فقال:

بَنَيْتُ طَاعَتِيَ بِاتِبَاعِ

بِالذِّكْرِ وَالْحَدِيثِ وَالْإِجْمَاعِ

مَشَايِخِي سَيِّدُنَا الْجِيلَانِيُّ

وَالشَّاذِّلِيُّ مَعَهُ التِّيجَانِيُّ

أَئِمَتِي فِي الْفِقْهِ مَالِكُ الْعَلِي

وَالشَافِعِيُّ وَالْحَنَفِي وَالْحَنْبَلِي[71]

المحور الرابع: مرحلة الاستقلال المنهجي وظهور الفكر الخديمي "الخدمة":

وهي مرحلة الانسلاخ الكلي من قوالب المحافظة إلى رحاب التجديد ، ويؤرخه الشيخ بعام (جيسش 1313ه) قائلا:

وَأَظْهَرَ الْخِدْمَةَ عَامَ جَيْسَشٍ (1313ه) وَقَلْبُهُ أَضْمَرَهَا مِنْ أَسَشٍ (1301ه)

وهو العام الذي خرج فيه الشيخ إلى غيبته البحرية لخدمة الرسول ﷺ حيث قال:

خَرَجْتُ يَوْمَ السَّبْتِ ثَامِنَ عَشَرْ

لِخِدْمَةِ الْمُخْتَارِ فِي شَهْرِ صَفَرْ

يوم وادع أصحابه قائلا لهم: "اجتهدوا في الطاعة ، فلم أذهب إلا لخدمة قمت بها وصلاحها في هذا السفر فقط وسأرجع إليكم إن شاء الله"[72].

ويقول المفكر الككيُّ: إن الشيخ [افتتح مشروعه التجديدي برفض منغلقات إشكالية التجديد في بعده المعرفي وطرحها بطريقة تجديدية فصرح قائلا:

دِينٌ سِوَى إِسْلَامِهِ لَا يُحْمَدُ عِنْدَ الْإِلَهِ وَبِهِ نُجَدِّدُ[73]

حيث أنه لم يقل تجديد الإسلام ، وإنما قال التجديد بروح الإسلام بالمفهوم الجمعي لعقلية الإنسانية الجمعية ، فظهر مشروع التجديد الخديمي كمشروع جمعي لا فردي بالمعنى السيسيولوجي للكلمة أي: (علم الاجتماع العرفاني) ، وذلك بصياغة التجديد صياغة جديدة تطابق مقررات الإسلام ومبادئه ، ثم قام بتجديد علم الكلام ، فقسم علم التوحيد بالمعنى اللاهوتي إلى قسمين سمى الأول: التوحيد الكلامي والثاني: التوحيد العرفاني][74] فقال:

وَبَعْدُ فَالتَّوْحِيدُ لِلْقِسْمَيْنِ

---

[70] ـ صالح سلام: من أجل إعادة القراءة المريدية ، ص/ 122 ـ 124.

[71] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 248).

[72] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (2/ 277).

[73] ـ الشيخ الخديم: سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، ت/ الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، ط/1 ، 2021م ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ـ المغرب ، ص/ 311 ـ 313.

[74] ـ محمد مصطفى جوب الككي: كتابات الشيخ الخديم التنويرية ، ص/6.

مُنْقَسِمٌ فَصَارَ تَوْحِيدَيْنِ

فَـــأَوَّلٌ تَـكَـلُـمٌ والـثَّـــانِ

تَعَرُّفٌ لَا تُنْكِرَنْ بَيَانِي[75]

ثم قام بتجديد مجموعة من المفاهيم الخاطئة التي تؤدي إلى الجدال والخوض في ذات الله وصفاته بما لا يليق، مما يسبب سوء الخاتمة كمسألة الاستواء التي خاض فيها المتكلمون بالكيفية فقال:

وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ذُو اسْتِوَا بِمَا يَلِيقُ وَعَلَى الْمُلْكِ احْتَوَى[76]

وكذلك مسألة المعية التي اشتدّ نقاش العلماء فيها في عصره فكتب عنها أجوبة قال فيها: "إن الله تبارك وتعالى معنا معيّة تليق به سبحانه لا معيّة تدرك بالعقل.... فالحق الذي ينبغي الرجوع إليه ترك التأمل في كيفية المعيّة والإيقان بوجودها، فتأمل في كيفيتها مما يسلب الإيمان، والعياذ بالله تعالى"[77].

ذاهبا فيها مذهب الرسول ﷺ حين خرج فوجد الصحابة يتناقشون في متشابهات القرآن فنهاهم، لما سيؤول إليه ذلك من المفاسد، روى الإمام أحمد في مسنده "عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟، فسمع رسول الله ﷺ، فخرج كأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: بهذا أمرتم!! ، أبهذا بعثتم!! أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض!! إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هنا في شيء، انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا"[78].

المحور الخامس: مرحلة ترسيخ أسس المنهج ونضج الفكر الخديمي:

وتشمل هذه المرحلة حياة الشيخ الخديم في غيبته البرية في موريتانيا ثم حياته في إقامته الجبرية في (تِيِنْ وجُرْبِلْ) وفيها تلقى الشيخ ورده المأخوذ من الله بواسطة رسول الله ﷺ بأشكاله ابتداء من عام (بكسش: 1322ه)، وكذلك عام حج القلب والقلم، وهو عام (دكسش: 1324ه)؛ الذي فيه رزقه الله تعالى حجا مبرورا بعد ما عاقه المستعمر الفرنسي خوفا من تأثره بالمؤثرات الخارجية، كما حدث مع الحاج عمر الفوتي تال حين حج البيت الحرام وزار (مصر) وإمارة (سوكوتو) و(فوط جالون) وخالط كثيرا من العلماء المجاهدين من كل مذهب مما يظن أنه أثر في دعوته وجهاده فيما بعد، يقول الشيخ:

اللهُ لِي قَادَ مَا يَبْدُو وَمُنْكَتِمٌ

مِنْ دَكْسَشٍ عَامَ حَجِّ الْقَلْبِ وَالْقَلَمِ

وفي هذه المرحلة أعطاه الله تبارك وتعالى العلوم النافعة والأوراد الموصلة فقال: "فليعلم ولينتبه جميع العالمين على أن الله تبارك وتعالى أعطى عبده وخليله وحبيبه وخديم رسوله وخليله وحبيبه ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبارك ـ الورد القادري، والورد الشاذلي، والورد التجاني، بعد القرآن والحديث وجميع العلوم النافعة تعلما وتعليما بواسطة أرباب الأوراد الثلاثة ـ عليهم رضوان الله تعالى ـ،

---

[75] ـ الشيخ الخديم: ديوان العلوم الدّينية، منظومة مسالك الجنان، ص/ 296.

[76] ـ الشيخ الخديم: ديوان العلوم الدّينية، منظومة فيض الغني المغني فيما عن السلوك يغني، ص/ 132.

[77] ـ عبد القارد بوسو الحاج شيخ: من فتاوى الشيخ أحمد بمب امباكي وأجوبته ونوازله، ص/155 ـ 156.

[78] ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت/ أحمد محمد شاكر، ط/1، ن/ دار الحديث القاهرة، 1995م، رقم الحديث: 6846.

وبواسطة المؤلفين ـ عليهم الرضوان والرحمة ـ وأذن له في إعطاء جميع الأوراد وفي تعليم جميع التواليف، بتغيير وضعها كما شاء، والله على ما نقول وكيل"[79].

وفي هذه المرحلة أيضا أوضح الشيخ الخديم أسس طريقته المريدية فقال إجابة عن أسئلة حاكم المستعمرين في السنغال حين سأله عن دعوته الإصلاحية (المريدية) فقال: "﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[80]. الجواب فيمن تأسست منه طريقة المريدين؟ أسّ الطريقة الإيمان بالتوحيد والإسلام بالفقه والإحسان بالتصوف. أما المولد فكلّ من تولد في بلد ما من بلاد الإسلام فذلك مولده، وأما مكانه فكذلك، وأما أتباعه أولا المتعلمون بالقراءة، وأما مقصده فوجه الله تعالى الكريم، وأما البلاد التي يجول فيها المريد فبلاد المسلمين، وأما محلّ وفاته فكل من مات من أرباب الطرائق فالمحل الذي مات فيه فهو محل وفاته، وأما الباقون على الطريقة القديمة فهم المؤمنون المسلمون المحسنون حيث كانوا... وأما أول قوم هم أول من تلقوها من المشايخ فالذين يريدون وجه الله تعالى من زمن رسول الله ﷺ إلى زمننا هذا. وأما تاريخها فمن الهجرة النبوية إلى همسش (1345ه/1926م). وأما الرؤساء منهم الآن فلم يبق أحد الرؤساء المحققين. وأما أصل هذا المجيب فأصوله مؤمنون مسلمون محسنون. وأما وقت دخوله هذه الطريقة فإنه أخذه من الناس الذين كان يظن أنّهم محققون، ثم بدا له أن الأمر لم يكن كذلك! فغيبه الله تبارك وتعالى إلى البحر فتلقاها أي: الأوراد الثلاثة من رسول الله ﷺ بلا واسطة بسبب كثرة خدمته له، وجعل الله تبارك وتعالى القرآن والإسلام وديعتين له، والله على ما نقول وكيل. والسلام"[81].

ثم مرحلة الجوار التي هي بمثابة، بداية الارتحال الخديمي إلى جوار ربه، وانمحاق الحجب بينه وبين الله وهو عام جَمْسَشٍ: (1343ه)، فقال:

جَذَبَنِي الْجَلِيلُ عَامَ جَيْسَشٍ: (1313ه) جَاوَرَنِي الْجَمِيلُ عَامَ جَمْسَشٍ: (1343ه)[82]

هكذا نرى اختلاف الباحثين في تصنيف مراحل تطور الفكر الخديمي، وإذا كان التصنيف السلامي أبسط، فإن التصنيف الككي أوسع وأشمل لتتبع مراحل انبناء الفكر الخديمي منذ البداية إلى أن استوى كصرخ فكري بدقة متناهية.

الخاتمة:

لقد تناولت في هذه المقالة مراحل تطور الفكر الخديمي، وقمت بمقاربته مقاربة تأصيلية، مستهلا بتصنيفات الباحثين المريدين لهذه المراحل، ثم سردها وتأصيلها وتحليلها تحليلا منهجيا، وقد توصلت من خلال البحث والدراسة بنتائج أهمها:

1. إن أصل هذه الدراسة هو المعالم المنهجية لتطور الفكر الخديمي التي أفردها الأستاذ مصطفى جوب الككي بمبحث في كتابه (العمدة) تحت العنوان: "أهم محطات الشيخ العرفانية"، وإنما تناولتها هنا

[79] ـ الشيخ الخديم: المجموعة الصغرى، ص/ 163.

[80] ـ سورة الإخلاص: (112).

[81] ـ الشيخ الخديم: المجموعة الصغرى، ص/ 255 ـ 256.

[82] ـ محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ـ الآليلت والمحاور/ الأيديولوجية البديلة، ط/1، دار المعارف الجديدة ـ المغرب، 2019م، ص/39 ـ 42.

بالتأصيل والتفصيل على ضوء النصوص الخديمية المباركة.

2. يعتبر المحطات المنهجية لتطور الفكر الخديمي مدخلا مهما لفهم الفكر الخديمي ، وهي في الحقيقة خطوات منهجية لا مناص عنها لتجنب التعارض والخلط في دراسة التراث الخديمي.

3. يعتبر الأستاذ مصطفى جوب الككي والأستاذ صالح سلام رائدا الاتجاه الفلسفي المعاصر للفكر الخديمي؛ وذلك لتناولهما الفكر الخديمي بالبحث العلمي والدراسة المنهجية والتنظير الفلسفي: الأستاذ الككي بكتابه (العمد في نظرية الخدمة) ، والأستاذ السلامي بكتابه (من أجل إعادة القراءة المريدية).

أما التوصيات التي أقدمها في نهاية هذه الدراسة فتتلخص فيما يلي:

1. ضرورة إعادة قراءة الفكر الخديمي قراءات عدة: قراءة منهجية؛ قراءة تاريخية؛ قراءة معرفية إبستمولوجية ، قراءات لتحديد الثوابت والمتغيرات والوسائل والغايات.

2. ضرورة إقامة مراكز بحثية علمية خديمية تتخصص في دراسة الفكر الخديمي دراسة علمية ومنهجية ، لشرح هذا التراث العظيم ونشرها وحفظها.

3. ضرورة الانفتاح على التراث الإسلامي المعاصر ومقارنتها بالتراث الخديمي؛ ذلك أن العصر الذي عاش فيه الشيخ الخديم ، كان متصفا بكثير من الاضطرابات السياسية والاجتماعية والدينية في معظم الدول الإسلامية ، مما نتج عن ذلك ظهور عدة مصلحين اجتماعيين يعالجون نفس القضية: قضية الاستعمار الغربي للدول الإفريقية عامة والدول الإسلامية خاصة ، ومحاولة هدم ثقافتها وحضارتها لتنصير شعبها المسلم.

هذا وأكمل الصلاة مع أتم التسليم على سيد الأولين والآخرين ، من بعث رحمة للعالمين:

سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَالْآلِ ★ وَصَحْبِهِ فِي الْحَالِ وَالمآلِ[83].

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

إرواء النديم من عذب حب الخديم ، محمد الأمين جُوبٌ الدَّكَانِيُّ ، ت/ مجموعة من الباحثين ، ط/1 ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط 2017م.

ديوان العلوم الدّينية ، الشيخ الخديم ، ج/ الرابطة الحديمية للباحثين والدارسين ، ط/2 ، دار الأمان للنشر والتوزيع ـ الرباط/ المغرب ، 2020م.

سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ،الشيخ الخديم ، ت/الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، ط/1 ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ـ المغرب ، 2021م.

العمدة في نظرية الخدمة ـ الآليلت والمحاور/ الأيديولوجية البديلة ، محمد مصطفى جوب الككي ،ط/1 ، دار المعارف الجديدة ـ المغرب ، 2019م.

[83] ـ الشيخ الخديم: سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين.

كتابات الشيخ الخديم التنويرية ، محمد مصطفى جوب الككي.

المجموعة الصغرى ، الشيخ الخديم ، ت/ مجموعة من الباحثين ، ط/1 ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط ، 2018م.

مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أحمد بن حنبل ، ت/ أحمد محمد شاكر ، ط/1 ، ن/ دار الحديث القاهرة ، 1995م.

من أجل إعادة القراءة المريدية ، صالح سلام ، ط/1 ، طوبى ـ السنغال ،2017م.

منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، محمد البشير امباكي ، ت: محمد شقرون ، مر: أكاديمية منن الباقي القديم للعلوم الإسلامية ، ط/2 ، دار المقطم القاهرة ـ مصر ، 2017م.

من فتاوى الشيخ أحمد بمب امباكي وأجوبته ونوازله ، عبد القارد بوسو الحاج شيخ ، ن/ دائرة روض الرياحين (طوبى ـ السنغال) ، ط/1 ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط ، 2019م.

النفحات المسكية في السيرة البكية ،محمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي الشنقيطي ، ت/ محمد بمب درامي وأبو مدين شعيب تياو ، ط/2 ، دار الأمان ـ الرباط ، 2019م.

المكتبة عند الشيخ الخديم

بقلم الباحث: د. محمد بمب درامي[84]

المقدمة:

هذه المقالة تنبني على ملاحظة ، مفادها: أنه كثيرا ما يقف الباحثون خلال مطالعاتهم في سيرة الشيخ الخديم على مَنْقَبة لافتة للنظر ، هي ظاهرة إكثارِه من الكتب (من مؤلفات ومصاحفَ) إكثارا يتجاوز القدر الذي تقتضيه الحاجة المعتادة. فكثيرا ما يُوجَد عند الشيخ الخديم للكتاب الواحد ما يناهز 5 (خمس) نسخ أو أكثر! وبالنسبة للمصاحف ، اشتُهِر الشيخ الخديم بالإكثار المبالَغ فيه للمصاحف ، حتى إنه كان يبني العديد من الدور الخاصة بالمصاحف ، لكثرتها عنده! إلى حدٍّ أن معظمَ الذين ألَّفوا عن مناقبه وسيره وقفوا عند هذه الظاهرة وقفات متفاوتة؛ بدءً بالشيخ محمد عبيد الرحمن العلوي ، فالشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، والشيخ محمد البشير نجل الشيخ الخديم ، والشيخ امباكي بص ، وكذلك الشيخ ابن اسمه الديماني وغيرهم ... فلم يَفُتْ واحدٌ منهم أن وقف عند هذه الظاهرة في تأليفٍ له يخصِّص لها بابا ، أو يتكلَّم عنها في جُمَل ، أو يكتفي بالكشف عن بعض الومضات التَّاريخية المتعلقة بهذا الباب ... وعند النظر في طريقة تناولهم لهذه الظاهرة ، يُلاحَظ أمران: **أولهما:** أن معظمَهم اقتصر على تناول طرف من الظاهرة دون سائرها. **ثانيهما:** غياب استنطاق **إشارات** الشيخ الخديم في الباب. والحال أن شأن الشيخ الخديم مع المصاحف والكتب العلمية أمرٌ يصعب اكتناهه ببادئ النظر ، وبالوقفة السطحية. فإذا علمنا أن أفعال الشيخ الخديم غالبا ما تكون **إشارات** ، وأنه كان من أمره المبالغة في تقصِّي المعاني السَّامية في أفعاله ، والارتفاع عن ممارسة أي أمر أو الاشتغال بأي شيء إلا وتحته رزين قصد ، وصدق نية ، وبُعد نظر ، وعمق فكر! إذا أدركنا كل هذا ، فإن الأمر يَحدُونا إلى لَم شتات هذا الموضوع وتعميق النظر فيه ، وهذا ما أحاوله في هذه المقالة ، أَمَلا في أن أَرسم للقُرَّاء الفضلاء لوحةً فَنِّيَّة أقرِّبهم بها من صُورةِ **المكتبة عند الشيخ الخديم؛ بتصوير مكتباته في مدينة طوبى وبلاد الصحراء وفي انجاريم**؛ بدءً بالإرهاصات الأولى في فُتُوَّتِه؛ وأنتهي بفتح بعض آفاق النظر في هذا التراث التليد.

إرهاصات الظاهرة ...:

إنها ظاهرة بدأت منذ فُتُوَّتِه ، حيث كان الشيخ الخديم مولَعا باقتناء الكتب ، إلى درجة أنه كان ربما باع غاليَ أثوابه بالكتب. رَوَى عنه أمين سره السيد محمد الأمين جوب أنه قال: "مما منَّ اللّٰه به عليَّ وقت تعلُّمي أنْ حَبَّب إليَّ الكتب واكتسابها"[85]!

وأول ما ظهرت وَمَضَاتُ هذا التوفيق الإلهي كان أيَّامَ مكثه في سالم مع والده الشيخ مامور أنت سل.

تحصيله كتابَ بداية الهداية[86]:

رأى ذات يوم أحد البيضان ، وعنده كتابُ **بداية الهداية**. فتعلق هواه بالكتاب ، فساومه البيضانيَّ ، فحدَّد البيضاني له ثمنا لم يكن عنده (**والثمن درهمٌ واحد!**). وكان من دأبه أنه لا يَمُدُّ يد الطلب للبشر ،

---

[84] باحث بمنتدى أبو ظبي للسلم

[85] النبذة ، اللوحة 8.

[86] تنبيهات:

1. ننبه القارئ الكريم أن التخاطبات التي وردت في هذه المقالة سيقت بصيغٍ تقريبية لا حرفية.
2. اعتمدنا عند تأريخ الأحداث التي وردت في هذه المقالة على كتاب **إرواء النديم من عذب حب الخديم** لمؤلفه السيد محمد الأمين جوب الدَّغاني.

ولا يطلب الحاجة إلا بالتعرض لنفحات الله! فلم يكن منه إلا أن أطلق عنان فكره في مسارح البدائل هُنَيْهَةً ، فطرأتْ ببالِه فكرةٌ ما لبث أن بادر إليها ...

طلب من البيضاني أن يرافقه إلى أحد التُّجَّار من أهل سالم ، ممن كان بينه وبين أُسرة الشَّيخ الخديم صلةٌ وعهدٌ. فأتيا هذا السَّيِّد التاجر زائرَيْن ، فلما رآه المضيف على حالته من رَثَّة الثياب لَمْ يُعجبه ما رآى ، فأنكر منه ذلك وأَعطاه بُردا فاخرا وطلب منه أن يستبدله بالرَّثِّ الخلِق الذي كان يرتديه. ففعل ...

فلمَّا انقضت الزيارةُ ، وأخذا طريقهما للعودة ، عرَّج الفتى البَكيُّ [87] بمكانٍ ، وعليه أثوابه الجديدة الفاخرة ، ثم خرج منه وقد عاد إلى حالته السابقة من رَثَّة الثياب! فلم ينقض العجبُ مما فعل حتى مدَّ يده إلى الموريطاني ، وبها البُرد الفاخر مطويًّا يستبدله بالكتاب وهو يقول: "تُمسِك هذا الثوبَ عنى مقابل الكتاب؟" ... فلم يتوان البيضاني عن أخذ الثوب مغمورا بالفرح ، ولسان حاله يخاطب المشتري بـ **خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ**! أخذ الشَّيخ الخديم كتاب **بداية الهداية** الذي سيُشكِّل عَهْدَ مرافقةٍ بينه وبين مؤلِّف الكتاب: **أبي حامد الغزالي** ، الذي سيبقى أثرُ الحب والإعجاب بشخصيته ظاهرًا في الشيخ الخديم مدى حياته ... [88]

تحصيل كتاب فتح الأقفال:

وبِمِثل هذه الطريقة كان اكتسابه لكتاب **فتح الأقفال** ، شرح لامية الأفعال[89]. فإنه رآه أيضا عند أحد البيضان اسمه **الحسن الشريف** ، فساومه الكتاب ، فحدَّد البائعُ الثمنَ بـ **3 دراهم** من الفضة البيضاء ، فقبل الفتى البَكيُّ وطلَب من الشـــَريف أن يسير معه حتى يكتسب الثمن. فذهبا ... فلم يُكتَب له نُجحُ الحاجة مع جَهده في الطلب ، فلمَّا تعِب الموريطاني من التجوال وقف يخاطب العبد الخديم متمثِّلًا بقولة الشاعر:

إِذَا حَدَّثَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ قَادِرٌ = عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذِّبِ

فتحمَّل العبد الخديم منه ذلك ، ولم يَمَلَّ من التعرض لنفحات الإله حتى ظفر بمبتغاه. فسلَّم الثمن للبائع وهو يقول مجاوبا ، ومعبِّرا عن توكله الكُلي على المولى عز وجل ، ووجهه يتلألأ:

إِذَا حَدَّثَتْكَ الكَنْزُ أَنَّكَ قَادِرٌ = عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَصَدِّقِ

ثم أخذ كلٌّ حقَّه ، مستبشرا ببيعه الذي بايَع به.

وهكذا نشأ هذا الحبُّ والولع بالكتب ونما في شخصه ، إلَّا أن واجب البِرِّ بالوالد وقِلَّةَ ذات اليد أقعداه دون السعي في تحصيلها ...

عندما توفي الوالد رحمة الله عليه سنة 1882 ، لم تمض على ذلك إلا سنواتٌ يسيرة حتى بدأ الشيخ الخديم رحلات طويلة إلى المشايخ في بلده وخارجه ، يطلب الأوراد والأذكار منهم ، ويلتقي بالعلماء منهم ويحصِّل الكتب من بين ما كان يحصِّل. وطار ذكره في القطر السنغالي وما جاوره ، حتى إن أحد الرَّحالين

---

[87] والفتى هنا بمعنى **الكامل الجزل من الرِّجال**. ذكره ابن منظور نقلا عن القُتَيبِيِّ ، مستشهدا بقول الشاعر:
إِنَّ الفَتَى حَمَّالُ كلِّ مُلِمَّةٍ = ليسَ الفَتَى بمُنَعَّمِ الشُّبَّانِ [لسان العرب: مادة فتا].

[88] وانتهى بكتاب بداية الهداية أن نظمه في منظومة لطيفة سماها **مُلَيِّن الصُّدور** سنة 1877. ثم أعاد نظمه سنة 1904 لأن أيديًا امتدت إليها وفعلتْ فيها ما فعلت. واختار لهذا الثاني تسميةَ **مُنَوِّرُ الصُّدور** ، وهي المتداول اليوم. والأولى في 200 بيت والثانية في 211 بيت.

[89] لمؤلفه بَحْرق.

المصريين كتب عام 1926 يحكي أنه عندما رحل إلى صحراء موريطانيا ما بين 1895 و 1902 لم يدخل بيتا من بيوت العلم إلا ويجد ألسنتَهم رطبًا من ذكر شخص سوداني ، اسمه **أحمد بمب**! فدفعته الرغبةُ في التعرف على هذ البدر الساطعِ النور إلى زيارة وطنه سنغال ... إلَّا أن الحظَّ لم يحالفه ، إذ وجد أنه كان مُغَرَّبًا إلى بلد من نواحي الجنوب: غابون [Gabon].

وهكذا ستبقى الحال حتى تَتَكَوَّن مكتبتُه الأولى في مدينته المطيَّبة **طوبى**.

مكتبته بمدينة طوبى:

كانتْ مدينتُه الحبيبة إلى قلبه طوبى[90] هي المكان الذي اختاره وآثره على غيره من بين العديد من القرى التي أنشأها ليجمع به كتبه الكثيرة. لأنه أراد لهذه المدينة أن تكون مركزا للتعليم والتربية والبحث ، كما يفهم ذلك من قوله مبتهلا إلى الله تعالى في إحدى قصائده:

واجعله دأبا مسكن التعلم=وموضع الفكرة والتفهم

ومسكن الإرشاد والتعليم=ومسكن التصويب والتفهيم[91]

وعلى هذا شيَّدَ حظيرةً داخل المدينة أودع فيها الكتب التي كانت تأتيه من كل مكان.

مواصفات مكتبة طوبى – المساحة:

مساحة الحظيرة التي بناها الشيخ الخديم هي 800 متر مربَّع. وقد بنتها جماعة المريدين تحت رئاسة أخيه مام جارِن بُرَاهيم (الشيخ إبراهيم امباكي) كما هو دأب المريدين في جميع أعمالهم. فيتكلَّف كلُّ واحد من المشاركين في العمل بأن يجلب ما يناهز 100 قطعة خشب. وهكذا تمت بناية مكتبته بطوبى.

كان الشيخ الخديم في أوَّل الأمر أوقف بيتا واحدا لكُتُبه. وبعد ذلك كَثُرتِ الكتبُ حتى عمَّرتْ معظم تلك البيوت أو كثيرا منها. حيث إنَّ السيد أَنْتُوَان لَسِيلف [ANTOINE LASSELVES] ذكر في تقرير له سنة 1915 أن تلك الأكواخ السنغالية الصناعة في مدينة طوبى كان يناهز عددُها الأربعين ، وأنَّ جميعها تحوي كتبًا!

مكتبته بموريطانيا:

عندما همَّ الشيخ الخديم بالسَّفر إلى موريطانيا سنة 1903 ، كلَّمه بعض مريديه في أمر حمل بعض كتبه إلى محلِّه في بلاد شنقيط ، فأجابهم الشيخ أن:"**مَنزِل الكتب معي**"! ومعنى هذا الكلام فيما أرى: أنَّ محتوى كتبه ومعناها معه في صدره ، فلا داعي إلى نقل أجرامها. ولعل هذا المعنى يتفق مع قوله:

لست أجول لالتماس المعرفة = نكرة كنت فصرت معرفة

أو يكون معنى العبارة أن السِّرَّ الذي من أجله تأتيه الكتبُ دائما يلازمه حيثما ذهب. وقد ظهرتْ آياتٌ كثيرة في موريطانيا دالة على صدق هذا الكلام منها:

- أنه لم يمكث فيها إلَّا أشْهُرا حتَّى اجتمع عنده من الكتب ما وصفها محمد عبد الله العلوي في كتابه النفحات المسكية أنها لم تجتمع عند أحد غيره. وأضاف أن كتابا واحدا تكون عنده عشراتُ النسخ منه.

- أنه خلال السنوات الأربعة التي مكثها في بلاد شنقيط (1903 -1907) ، اجتمعت عنده كتبُ المذاهب الأربعة مجلوبة من مصر. (لمزيد

[90] لقد أنشأ الشيخ الخديم مدينة طوبى سنة 1888.

[91] انظره في قصيدة مطلب الفوزين.

التفصيل حول هذه القصة اقرأ ما كتبه السيد العلوي الذي كان مبعوث الشيخ إلى موريطانيا لاقتناء الكتب ، النفحات المسكية ، صـ 153).

- أن بعض المشايخ من شدة حبهم وإعجابهم بالشيخ الخديم ، ومن كبير توفيق الله تعالى للشيخ الخديم ألفوا كتبا وأهدوا للشيخ النسخة الفريدة التي كانت عندهم منها...

- منها ما حكاه السيد محمد الأمين (بارا) امباكي نجل الشيخ الخديم في كتابه دليل الحائر عند معرض الحديث عن استعداد الشيخ الخديم للعودة إلى بلده سنغال من بلاد الصحراء: " فَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُرِيدِينَ بِالتَّهَيُّئِ وَالاسْتِعْدَادِ لِأَنَّ مَتَاعَهُ كَثِيرٌ ، وَلَاسِيَّمَا الْكُتُبُ؛ فَإِنَّهُ جَمَعَ مِنْهَا فِي أَرْضِ الْبَيَاضِينِ مَا لَا يُحْصَى".

نظرات في جمعه أمهات مصنفات المذاهب الأربعة:

إن بعث الشيخ الخديم محمدا عبيد الله العلوي إلى مصر ليكتسب له أمهات كتب المذاهب الأربعة لم يكن مجرد اتباعٍ لمقتضى الإلهام. إنه ، علاوة على ذلك ، أمارةٌ دالة على انفتاح فكري وسعة اطلاع عند عالمٍ مالكي التَّكوين والتَّمذهُب ، عاش في بيئة مالكية لا يكادُ أهلها يعرفون من المذاهب الأخرى في تلك الآونة إلا الأسماء.

وقد يكون تحصيله لهذه الكتب من إحدى ممهدات المشروع الكبير الذي توفي الشيخ معه. فقد ذكر الشيخ امباكي بص في بعض رسائله أن العبد الخديم توفي وفي نفسه حاجاتٌ. منها: مدرسة تكون رِحلةَ السنغال إليها في العلوم العربية شرعيتها وآلاتها. وقد أعدَّ لها كُتُبًا لا توجد عند غيره. ولعل الشيخ إنما رآى ضرورة التزويد المعرفي الذي يتجاوز حدود المتعارف عليه في المنطقة لكي يُقدِّم لنخبة علماء الدين العدةَ التي ستمكنهم من التفاعل مع السياق العالمي الجديد الذي سيُجَرُّون إليه لا محالة ، بما فيها العولمة.

فإن من مقتضيات هذه العولمة الواقعة اليوم (مع ما اجترَّ معها من التداخل والتعامل المفروض بين الشعوب على ما بينها من التباعد الحسي والمعنوي) لدى العالِم الشرعي أن لا يكونَ خالي الذهن مما عليه الآخرون ، وذلك لكون الاكتفاء المطلق بالذات شبه مستحيل في سياق العولمة. فهو كان يعد العدة لهذا الآتي ...

مكتبته في انجاريم:

جربل هي آخر مراحل حياة الشيخ الخديم. ففيها أيضا كانتْ مكتبةٌ ضخمةٌ ثرَّةُ الكتب. ويمتاز العهد الذي قضاه الشيخ في جربل بخصائص لا توجد عند غيره ، منها أن أيامه فيها كانت كالأعياد من كثرة زَوْر النَّاس له ، وقصدهم لمجالسِه العامرة على قِلَّتِها ونُدْرَتها.

فهذا أنتوان لسيلف [ANTOINE LASSELVES] الذي كان عامل فرنسا على منطقة جربل (1912 - 1915) مسكن الشيخ الخديم من سنة 1912 إلى التحاقه بالرفيق الأعلى سنة 1927 ، يَصف لنا — متعجِّبا - دار الشيخ الخديم قائلا: إنَّ السُّور الذي يحيط بداره في جربل كان يحتوي على بيوت صغيرة ، وتلك البيوت جميعُها تحوي كتبا على وجه الخصوص.

ومن أمره في مدينة جُرْبل أن دهاليزَ دياره كانت مجمَعَ الورَّاقين: فهذا ينسخ مخطوطا؛ وذاك يكتب مصحفا؛ وهذاك يُزيِّن الكتب بزخارفَ عربية ملوَّنة ، وأولئك يأتون له بهدايا الأوراق والأقلام ... وكُلًّا يكافئ بما يُزْرِي الحاتم من غير اكتراث! ومن أمثلة ذلك أن السيد محمد بن أحمد بَابَ الأحمدى الدَّيْمَانى (الشهير عندهم بالزروق) نسخ له كتاب الحطاب ، ولعله شرح الحطاب على مختصر الخليل.

ولم يكتف الشخ الخديم بالاستنساخ ، بل كان يطلب الكتب ويستجلبها ولا يبالي ببعد المسافة وغلاوة الثَّمن. ولا يبالي في ذلك أن تكون عنده نسخٌ من الكتاب الواحد ، فقد سبق معنا كلام العلوي في النفحات في هذا الباب. وبمثله شهد محمد الأمين جوب الدغاني: "لا يَرُدُّ كتابا وإن تكرَّر مرارا ، وإن كان مقطوع الطرفين". وممن كان يزوده بالكتب تاجر من المغرب اسمه **عبد المجيد بن جلون** ، وكان يتوسط بينهما مريده وأمين سره السيد محمد الأمين جوب الدغاني.

شأن الشيخ الخديم مع المصاحف:

شأن الشّيخ الخديم مع المصاحف كان من أعجب الأُمور ، ومن النادر أن تجد إنسانا يعامل المصاحف بما عامل به الشيخ الخديم إياها.

كان يُكرمها؛ ويجلُّها؛ ويبني لها أروع البيوت؛ وينزلها أفخر السُّرُر؛ ويعطي مقابلها غاليةَ اللُّهى ونفيسَها؛ ويفرح بكل ما أُهْدِي له منها فرحةَ الآيس عن راحلته ، وهو في فلاة ، وقتَ ظهورها! وأعجبُ من ذلك مبالغته في إكثار المصاحف. يقول صاحب النفحات — وهو شاهد عيان — واصفا كثرة المصاحف عند الشيخ الخديم: "ومما جمعَ منْهُ مَا لا يُعرف قَدْرُه المصاحفُ"! فكان يبتاع منها في موقف واحد مئات المصاحف ، ويحتفظ بها لنفسه! حكى محمد الأمين جوب الدَّغاني أنه يذكر ذات يوم اشتُرِيَ للشيخ بإذنه في موقف واحد ثمانمائة (800) مصحف!

وإذا نحن خضعنا شأن الشَّيخ الخديم مع المصاحف لقراءة اقتصادية ، يظهر لنا أنه كان يتخذ هذا الأمرَ وسيلةً لإعادة توزيع الهدايا التي تأتيه كلَّ يومٍ ومن شتى الجهات. وقد يكون أنه أراد مناهضة تغرير المستعمر لرجال الدين. فإنه بنَظَره الثَّاقب رَأى أنَّه لمواجهة تغرير المستعمر لبعض من تنسَّل من سُلالة **دُومِ سُخْنَ** بواسطة استخدامهم في بعضِ وظائفَ حُكوميَّةٍ فيفقدون الاستقلالَ التَّام ، لمناهضة هذا الأمر جعل الشيخ الخديم كتابة المصاحف مصدر رزق مضمون لكل كاتب. فيَستَكتبهم ويبتاع المصاحف منهم ، بما يغنيهم عن الاتكال على الحكومة ، ويخول لهم الاستقلال.

وكان بعضُ الفتيان الذين كانوا تحت إمرته إذا أُصيبوا بالعَيْلة ، كتبوا مصحفا بالاشتراك بينهم وقدَّمُوهُ للشَّيْخ ، فيُعطيهم مقابلَه ما يَسُدُّ حاجتَهم. وربما آجر بعضَ الفتيان الحَسَني الخط ويمسكهم عنده مُدَّة ليَنْسَخوا له فيها كتبا أو مصاحف ، ويُعِدُّ لهم من أجل القيام بهذه المهمة مأوًى ونفقة؛ ويكافئهم بما تَقَر به أعينهم؛ فلم يكن *"يخلو من شهر من نحو مئاتٍ من مصاحف الخط"*[92]. وقد بنى لهذه المهمة دارا قريبة من داره بمدينة جربل ، ويستخدم الفتيان فيه في كتابة المصاحف؛ وتلاوة القرآن كاملا: 4 مرات كل يوم ، وسبع مرات ليلة الجمعة.[93]

وزاره محمذ بن احميد عندما كان في موريطانيا ، فقال له الشيخ: بلغني أنك حسنُ الخط ، أريد أن تكتب لي مصحفا. فأجابه محمذ بن احميد أن **نعم**. فنصب له خيمة وهيَّأ له المعونة.

وأتاه الشيخ محمد بن أدشاغ اعمر أيام تغريبه إلى موريطانيا وكتب له ستة وستين (66) مصحفا بخطه الجميل. وقد وقع له مع الشيخ الخديم كرامة في هذا الباب. وهي أن الشيخ محمد أدشاغ كتب مصحفا وأهداه للشيخ. فأمسك المصحف بيديه وضمه إلى صدره من شدة فرحته به ، ثم قال له في الحين: ليس في هذا المصحف من خطأ سوى شِدَّة حرف الكاف من

---

92 إرواء النديم: 208.

93 إرواء النديم: 210.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ لعلك نسيتها. فنظر الكاتب في المصحف فإذا هو كذلك.

وبمثله فعل ابنه محمد. فقد رحل إلى السنغال ولازم الشيخ حتى كتب له بيده 33 (ثلاثا وثلاثين) مصحفا وأبى أن يأخذ مقابلَه شيئا من المال.

وكان الشيخ الخديم يتأدب مع المصاحف أحسن تأدب. فقد روى ابن اسمه الديماني أن العبد الخديم كان ذات يوم يساير أحدَهم ، فلما اقترابا من إحدى الدور التي فيها مصحف أو مصاحف خاطب مرافقه قائلا: " سِرْ واخْفِضْ صوتَك؛ فإنَّ هذا البيت الذي حولنا فيه المصحف"!

وفي الختام:

أَمْر العبد الخديم مع المصحف الشريف تضيق عنه وُرَيقات ، لكن حسبي في هذا المقام أن أشير إلى ورشة مهمة ، ثم أهيب بالباحثين والناظرين في سيرة هذا الجهبذ الفَطِن إلى ضرورة استنطاق إشارات الشيخ الخديم.

إن تصرُّفات الشَّيخ الخديم معظمها لا يخلو من إشارات. فَمَنْ عرف شيئا وإن قليلا عن العبد الخديم عَلِم أنه ما كان يحرِّك ساكنا ، ولا يتخذ لنفسه سُنَّةً إلا لاعتبار. أمرُه كلُّه جِدٌّ؛ وتَقَصُّصٌ لمعالي الأمور. فواجب ورثته السَّعيُ نحو اكتناه تلك الإشارات ...

ففي بعض قصائده نجده يشير إلى أن ثمة أمور ثلاثةً لا بُدَّ لمن يُعنى بأمره ويستهدي بهديه أن يَعتبرَ منها ويستحضرها؛ تلك الأمور الثلاثة هي:

1) كتاباته؛ 2) كلامه؛ 3) إشاراته.

يقول في **جالبة المراغب**:

وَبِكِتَابَتِي رَبِّ رَبِّ=كُلَّ مُطَالِعٍ لِوَجْهِ الرَّبِّ

وَبِكَلَامِي وَبِالإِشَارَه =اهْدِ مُرِيدًا يَطْلُبُ الإِنَارَهْ

فكتاباته (نظما ونثرا) تشمل الكتابات التعليمية؛ والأذكار.

وأما **كلامه** وأقواله المأثورة ، فقد وفَّق الله بعضَ أصحابه إلى تدوين بعض مقالاته ، مثل الشيخ مختار بنت لوح ، وسرين صله ، وفي الكتب الخاصة بسيرته ومآثره طرفٌ من مقالاته. ومن أهمها في هذا الباب كتاب **وختان سرچ طوبى** للسيد أحمد امباكي باللهجة الولفية.

وأما **إشاراته** ، فهي كل تصرفاته وأفعاله. وتدخل في هذا الباب هذِهِ الظاهرة التي هي موضوع مقالتنا هذه.

وإشاراته هذه ذاتُ أهميَّة بالغة. فَمِن دَلائِلِها أنَّها تأويلٌ لِبعض أقواله المبهَمة ، ووسيلة للبتِّ في بعض ما اختُلِف فيه من مواقفه ، وبيانٌ لمنهجه الصُّوفي التَّربوي الذي اختاره لنفسه وربَّى عليه أصحابه. وإذا ما أغفل باحث أو متأمل واحدًا من هذه الثلاثة ، فلا يخلو أن تخرج نتائج تأملاته أقطعَ أبترَ.

ولهذا ، فمما يعكِّر صفوة المنهج الخديمي ويهدِّدُ أساسَ بُنيانِه تساهُلُ بعضِ المسؤولين ورثةِ الشيخ الخديم في الأقاصيص الغريبة التي يُرَوَّج لها ، مما يخالف ما كان عليه الشيخ الخديم وأصحابه.

ولقد تنَبَّهَ لأهمية الوقوف عند هذه الإشارات الشَّيخُ أحمد ابن اسمه الدَّيماني ، فقال وهو يتأمل في بعض إشارات الشيخ الخديم: "إن الشيخ رضي الله عنه لا يعبث ، وحاشاه عن العبث"!

فهذه الإشارات الخديمية مرتع فكريٌّ نهيب بالباحثين إلى الرعي منه ، والإفادة منها.

ومن الأسئلة التي تظل معلَّقة بعد وقوفنا على هذه الظاهرة: أين المخطوطات العلمية التي كان يملكها الشيخ الخديم؟ أين تلك النسخ الفريدة التي أهديت

له من طرف المؤلفين؟ وهذا السؤال يجد جدارته إذا استحضرنا ضخامة مكتبه التي كانت تحوي المطبوعات والمخطوطات في شتى الفنون.

إن بقاء مثل هذه الأسئلة معلقة قد يكون دليلا على أن التراث العلمي الذي خلفه الشيخ الخديم لم يلق من العناية والخدمة ما يستحق بعدَ ما يقرب من قرن من وفاته! هذه الأمور كلها تقتضي وقفة مراجعة الذات والمنهج للارتقاء بهذا التراث الخديمي إلى المنزلة التي يستحقها.د

المصادر والمراجع:

محمد الأمين جوب الدَّغانِي، النبذة المباركة، (مخطوطة بحوزتنا).

محمد الأمين جوب الدَّغانِي ، إرواء النديم من عذب حب الخديم ، تحقيق عبد القادر امباكي شيخ ميمونة وآخرين ، منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، طوبى – السنغال ، 2017 م.

معالم التجديد في غيبة الشيخ الخديم البحرية

بقلم الباحث علي بدر امبي[94]

تمهيد:

لما خلق الله سبحانه وتعالى العالم، واستخلف فيه الانس والجن ليعبدوه ضمن لهم بفضله ورحمته بعثة الرسل والأنبياء حاملين رسائل إلهية هادية إلى طريقه المستقيم. ولما أرسل أفضلهم وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغ آخر كتاب من الله تبارك وتعالى حفظه في صدرو العلماء المحققين بعده صلى الله وسلم، بما فيه من رشد واستقامة، وجعلهم يتوارثونه جيلا بعد جيل ويحمون بيضة هذا الدين بتعاليمهم وإرشاداتهم.

ومما من الله على هذه الأمة أن يتكلف لهم ببعث- على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها،[95] وهؤلاء هم العلماء والدعاة الحاملون راية الإسلام وهديه والمجددون لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قرنًا بعد قرن.

فكان مما كان مَنَّ أهل قرن 14هـ ظهور مولانا الشيخ أحمد الخديم رضي الله عنه الذي أفنى حياته مجاهدا لتجديد هذا الدين في عصره، واعتنى لهذه المهمة الكبيرة إلى أن بلغ أوج الرفعة من الجهاد والمجاهدة. ولقد عرض نفسه في حياته أخطارًا كثيرة لينجي السفينة من الغرق، حيث قام بدعوة تجديدية سنية، ساقه إلى مواجهة أعداء الإسلام الذين أرادوا نسخ قيم الدين، ونصب الكفر والفساد في أرض السنغال، فجرى ما جرى بينهم حتى أدى إلى نفي الشيخ عن وطنه، واستُغْرِب مدة طويلة في بلاد نائية عن مسقط رأسه، محاولين كل المحاولة على الوقوف أمام هذه النهضة، منفقين كل طاقة لعرقلتها، حريصين لسد هذا الثغر الذي فتح عليه مجدد عصره الشيخ أحمد بمب رضي الله عنه. وكان هذا السفر بمثابة صراع بين الشيخ والمستعمر دام سنين طويلة، ماجعله يكن في طياتها معالم تشهد على جدية هذا المشروع التجديدي الذي قام به الشيخ رضي الله عنه، وأنه مبني على أسس ربانية، ونية خالصة يؤيدها إذن وتوفيق من الله تبارك وتعالى، كما يوحي دلائل قوية على صدق ما يدعو به الشيخ وصفاء نيته، ويمثل هذه الغيبة منحى تاريخيا مهما في دعوته ونهضته، يظهر ذلك في كثير من مراحل رحلته والمواقف التي تمر بها، وكذا الأحداث التي عاشها في المنفى، ومايؤيد ذلك من مواهبه التي تشير مستوى معرفية عالية، وقوة إيمانية صادقة يتصف به شخصيته بكمال العبودية لله تعالى والتفاني في خدمة النبي صلى الله عليه وسلم.

ونحاول في هذه المقالة عرْض هذه الغيبة، مبرزين أهم محطاتها، وكذا ما تشملها من معالم وشهود يؤيد كون هذا الشيخ مجددا لسنة الرسول صلى الله عليه في عصره، وعلاقة دعوته التجديدية بهذا السفر وما يتصل بينهما من آثار.

ولمعالجة هذا الموضوع سنضطر بالتطرق أولًا إلى مدخل مفهومي يفك عنوان البحث ومفاهيمه، ثم نتكلم عن الإرهاصات الأولى التي مهدت لهذه الدعوة التجديدية، ثم نطلق العنان إلى ذكر معالم هذا التجديد من خلال الغيبة، ثم نختم بخلاصات ونتائج ما توصلنا به.

---

[94] طالب باحث في جامعة محمد الخامس / الرباط.

[95] – وهو حديث أورده السيوطي في كتابه " التنبيه على من يبعثه الله على رأس كل مائة سنة" بطرق كثيرة دالة على صحة الحديث.

مدخل مفهومي:

يرتبط ببحثنا مفاهيم لابد أن نسلط عليها الضوء كي يتسنى لنا بسط هذا الموضوع بأكثر وضوح ، وهنا نضمن القارئ على تعريف بعض الكلمات المفتاحية المتصلة بالمقال.

أولا: تعريف المعالم

نجد في المعاجم اللغوية أن كلمة المعالم مأخوذة من الجذر الثلاثي: (علم) بفتح العين واللام ، كما ورد في المقاييس أن: "العين واللام والميم أصل صحيح واحد ، ومعناه: يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره. ومن ذلك العلامة ، والعلم: الراية ، والجمع أعلام ، وكل شيء يكون معلما: خلاف المجهل."[96]

وهذا هو أصل وضعه في لسان العرب ، ودلالته: "ما جعل علامة وعلما للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه. وقيل: المعلم الأثر.

ومعلم الطريق: دلالته. ومعلم كل شيء: مظنته ، وكله راجع إلى الوسم والعلم.

والمعلم: الأثر الذي يستدل به على الطريق ، وجمعه المعالم."[97]

ثانيا: مفهوم التجديد

أما التجديد فأصله من الجذر الثلاثي (جد) يدل على القطع لغة ، فيقال: "جد الثوب والشيء يجد بالكسر صار جديدا ، وهو نقيض الخلق."[98]

أما في الإصطلاح فيستعمل بمعنى: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاها ، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات."[99]

ثالثا: مفهوم الغيبة البحرية

الغيبة في اللغة تدل على "الاختفاء وتستر الشيء عن العيون"[100] والبحرية نسبة إلى البحر ، فهي مصطلح مركب يستعملها معظم مؤرخي المريدية في كتاباتهم ، ويقصد بها [101]: ذلك الحكم الذي وضعه الحاكم الفرنسي والمستعمر تجاه الشيخ ، وهو تغريبه من بلده إلى أرض بعيدة عن وطنه[102] ، حيث لا يرى أحدًا من أهله ، فضلا من طلبته المخلصين ، – ولايراه أحد حتى لا يدرك عن شأنه شيء ، ويمتد هذا التغريب من عام جيسش 1313هـ (1895م) إلى عام كسش 1320هـ (1902م) ، ونسبة الغيبة إلى البحرية تدل على سفره عبر البحر مقابلا للغيبة البرية ، وهي

96 – معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين (ت 395هـ) ، المحقق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، 1399هـ - 1979م. مادة علم ج4 ، ص109.

97 – لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ) ، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر – بيروت ، ط3- مادة علم ج12 ، ص420 ،

98 – نفس المرجع ، ج3 ، ص111 ، مادة جدد

99 – التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة سنة ، للإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق: عبد الحميد شانوحة ، دار الثقة للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ.

100 – مقاييس اللغة ، لابن فارس ، ج4 ، ص403. مادة غيب

101 – انظر إرواء النديم من عذب حب الخديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، تحقيق رابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار المعارف الجديدة ، سنة 2017م ، ص: 113

102 – وبالضبط إلى غابون ، لكن مرورا بعدة بلدان إفريقية ، منها (غينيا كناكر) Guinée Conakry ، و(ساحل العاج) Cote D'ivoire ، و(البنين) Bénin ...

الفترة التي قضاه الشيخ في غيبته الثانية في(موريتانيا)[103].

المطلب الأول: الإرهاصات الأولى في اهتمام الشيخ بالخدمة(التجديد)

وقبل نفي الشيخ إلى هذه الغيبة البحرية بل وقبل دعوته التجديدية، كان حاملا على عاتقه اهتماما بالغا لتحقيق هذا المشروع التجديدي وإصلاح ما في المجتمع من البدع والخمول، مرسخا فيهم قيما دينية سليمة، مجددا لطريق العلماء المحققين السالكين على نهج الإخلاص في العبادة والاحسان الخلقي والتزكية الروحية، فيقول رضي الله عنه:[104]

لِلْمصطفَى نَوَيْتُ ما يُجَدِّدُ == سُنَّتَهُ الغَرَّاَ وَإني أَحمدُ

ولعلو هذه الهمة جعل يمهد الدعوة بأشياء كانت لا بد منها لإكمال نيته العظيمة، ولتكون مبنية على أسس متينة، بدءا بالنية الصادقة، بعد طلب الزاد المعرفي الكافي لحمل هذا العبء، ثم التعلق والمبايعة على المختار صلى الله عليه وسلم لخدمته، ما أداه إلى الترشيح في التجديد متوكلا على الله سبحانه ومستعينا منه بدعوات نابعة من قلبه، صادقا في تو جهه إلى الله تبارك وتعالى، إلى أن تم له تحقيق هذه النية وقُبِل دعوته من منفاه، فكانت هذه الارهاصات الأولى لدعوته، واللبنات الأساسية لمشروعه التجديدي.

1- نية الشيخ في التجديد، وابتهالاته

لم يزل الشيخ أحمد الخديم رضي الله عنه في الوهلة الأولى من نهضته ينوي خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم خدمة خالصة له بالمدح، والصلاة عليه، وخدمة تخص أمته صلى الله عليه وسلم بتعليمهم وإرشادهم وتأديبهم إحياء لسنته، وتجديدا لنهجه صلى الله عليه وسلم، بعد أن غشي الفساد أمته، وانتشر البدع في زمانه، واهتم الناس بحطام الدنيا ومخالطة الأمراء، وخففوا أمور الدين حتى يتجرأ حافظ القرآن بالرقص فوق المصحف، وفقدوا التربية الحسنة والآداب المرضية، ولم يبق فيهم من الهمة والاستقامة شيء يذكر، ولهذا يقول ناويا بتجديد السنة:[105]

لِلْمصطفَى نَوَيْتُ ما يُجَدِّدُ == سُنَّتَهُ الغَرَّاَ وَإني أَحمدُ

دينٌ سوى إسْلامه لا يُحمدُ == عند الإله وبه نُجَدِّدُ

كما نوى تبيين سنة النبي صلى الله عليه وسلم خدمة له بعد أن طهره صلى الله عليه وسلم عن كل لغى أو لغو، فيقول في مقدمات الأمداح:[106]

نَظافتُه كُلِّي من اللَّغوِ طَهَّرتْ

وسنَّتَه إن شاء رَبِّي أبَيِّنُ

ومن دعواته لنية التجديد توسله في قصيدة "تيسير العسير" بسور القرآن كاملا، وهناك يحدد نيته في التجديد، فيقول:[107]

---

103 - جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف، للشيخ أحمد الخديم (ت 1346هـ - 1927م)، دراسة وتحقيق للباحثين: محمد المرتضى بوسو ومام مور امباكي حمدي، دار الأمان للنشر والطباعة، ط1، 1444هـ - 2022م، ص35

104 - من قصيدة (للمصطفى نويتُ) المقيدة ب: ﴿لي الله القرآنُ جبريلُ محمدُ محمدُ﴾ ضمن "ديوان سَعَادَاتُ المُرِيدِينَ فِي أَمْدَاحِ خَيْرِ المُرْسَلِينَ" لأبي المحامد الشيخ أحمد بمب امباكي. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين، ط1. (الرباط: دار الأمان، 2021)، 311.

105 - المرجع نفسه، ص: 311

106 - المرجع نفسه، ص: 87

صلِّ وسلِّم ولْتُبارِكْ سَرمدَا

على الذي سمَّيْتَهُ محمَّدَا

وآله وصحبه وَبِالضُّحَى

بِي جَدِّدَنْ مَنْهَجَهُ مُتَّضِحَا

كما يدعو في قصيدة "التوبة النصوح" ، كي يكون سلما يتعلق به من يريد وجه الله تعالى ، وليجدد منهج السلف ، فيقول:[108]

واجْعَلْنِ دهْرًا سُلَّمًا لمنْ إليك أَسْلَمَا

ولِيَ كُنْ مُسَلِّمًا منْ كيْد كلِّ مُجْرِمِ

وقال فيها أيضا:

ولْتُحْيِ دِينَ الْمُقْتَفِي == بِيَ بِلاَ تَكَلُّفِ

ثم دعا فيها أيضا قوله:

بِي جَدِّدَنَّ المَنْهجَا == بِالفضْلِ يا ذالكَرمِ

وقال في قصيدة جذب القلوب:[109]

بعْدَ صلاةٍ لاتَزولْ == بِالنَّال والصَّحبِ الْعُدُولْ

وبِيَ جَدِّدِ السَّبيلْ == بِلَا عدًى أَو أَلَمِ

كل هذه يمثل اهتمام الشيخ بالتجديد في بداية أمره ، ونيته الخالصة في مداواة الأزمة الخلقية في عصره ، ولهذا لجأ في التضرع إلى الله تبارك وتعالى والتوسل بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كي يتيسر له تحقيق هذه الأمنية العظمى ، وهذا دأب الصالحين في طريق سيرهم إلى الله سبحانه ، وهم لا يعتمدون قط في قدراتهم الذاتية فحسب ، بل إنهم يتوجهون رجاء إلى من يعطي ويمنع بفضله وبعدله سبحانه ، توسلا بجاهه صلى الله عليه وسلم.

2- طلب الزاد المعرفي

وهذا المشروع الضخم هو سبب نهضة الشيخ قائما بجولات في البلاد وخارجه لزيادة قدراته المعرفية ، بتكوين نفسه تكوينا معرفيا شاملا ، زيادة على ما أخذ من أبيه من علوم الشريعة والحقيقة ، وهذه الأبيات حكاية منه لهذه النهضة:[110]

ولمْ أَزلْ مُنْذُ عَقلْتُ طَالِبَا

مَعْرفَةً بِالله جَلَّ تَائِبَا

فَجُلْتُ بيْن العُلمآ وَالْأَوْلِيَا

بِنِيَّتِي وعَمَلِي وَقَوْلِيَا

كيْ لَا يَضِيعَ عُمُرِي أَتْعَابَا

لِحُسْنِ ظَنّ قَادَ لِي احْتِسَابَا

حتَّى انْصَرفْتُ عامَ أَيْسَشٍ[111] إلى

خِدْمَةِ خَيْرِ العَالَمين ذِي الْإِلَى

وفي هذا التجوال أخذ الأوراد الثلاثة القادرية ، والشاذلية ، والتيجانية بإجازات وطرق متنوعة ، لكن على صيغة التبرك أخذ كل هذه الأحزاب ، وكان تعلقه بالقادرية طريقة قبل كل هذا.

3- التَّعلُّق ، والمبايعة بالخدمة

فكان أول ما ابتدأ به هو إخلاص النية بالتعلق والمبايعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالخدمة التي كانت هي أساس هذه الدعوة ، ليكون مجدد قطره في المائة الرابعة بعد ألف من هجرة المصطفى

107 – من قصيدة تيسير العسير ، للشيخ أحمد الخديم

108 – من قصيدته التوبة النصوح الجالبة لأنوار والفتوح

109 – قصيدة جذب القلوب لعلام الغيوب ، في المرجع السابق ، ص: 263

110 – قصيدة بداية السلوك لمجاورة ملك الملوك

111 – 1311هـ - 1893م

صلى الله عليه وسلم ، فيقول الشيخ رضي الله عنه:[112]

أوَّلُ مَا ابْتَدا به الخَديمُ

تَعلُّقٌ بمن له التّقْديمُ

وأظْهرَ الخِدْمةَ عام جَيْسَشِ[113]

وقَلْبَه أَضْمرَها من أَسَشِ[114]

المجاهدة النفسية

لما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم لخدمته بدأ ملحا نفسه — أكثر مما كان عليه- بخلوات كثيرة يناجي الله فيها ، مع تزكية نفسه بالزهد والاعراض عن حطام الدنيا ، والبعد كل البعد عن الملوك وبما في أيديهم ، وذلك بشدة التحفظ وزيادة التحرر والتخلي عن كل ما سوى الله ، وهذا ماجعله يرفض لما توفي والده وعورض عليه بالعمل مع الأمير- رفضا شديدًا بالقيام لهذا الأمر ، وأنشد عقب ذلك قصيدتين يذم فيهما مصاحبة الملوك وطلب العون منهم ، ويفصح عن أمره وتوجهه إلى الله تبارك وتعالى دون البشر ، لما سمع بعض الناس يشتمون عليه ويعيبونه لرفضه هذا المهام ، فألف منظومتين رائعتي السبك ردا عليهم ، وهما: " قالوا لي اركن لأبواب السلاطين" و"قالوا سفيه لغضي عنهم بصري"[115].

4- دراسة عصره دراسة نقدية

ثم إنه في كل هذا لم يزل يفكر في تخطيط مشروعه ، حيث قام بدراسة ماضي مجتمعه وسبر مشاكله ، فوضع مؤلفات في السلوك نقدا لما كان سائدا في زمانه الذي كان يحفه فساد الخلق والتمرد من جميع الجهات ، حيث لا يوجد أي طبق في المجتمع إلا وقد عرف تبديلا أو فسادا ، وهذا ما أوجب تأليفه لكتاب" مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديمان"[116] وقصيدة "حق البكاء"[117] ، وعرض فيهما رؤيته الإصلاحية معتمدا على طريقة الصوفية؛ بذكر فضائل الأخلاق ، والأداب في العبادات والمعاملات ، وسرد كل ما كان في زمانه من رذائل وعيوب أخلاقية ، وكذا وصف نهج سلف الصالح في "حق البكاء" بأسلوب البكاء والتحسر تذكارا لأخلاقهم ورشدهم.

5- إعلان الدعوة

وبعد هذا قام الشيخ بإعلان دعوته ، بعد أن تلقى الإذن من الله تبارك وتعالى ومن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجمع الطلبة وصرح لهم بدعوته وسلوكه إلى منهج آخر غير الذي ورثه عن آبائه وكان يسير عليه إلى أن بلغ الإذن للدعوة إلى التجديد ، سالكا نهج التربية والترقية ، وعدم الاكتفاء بتلقين الدروس فقط ، بل دعى لهم إلى رفع الهمة ، والسلوك إلى طريق الإرادة الصادقة ، والتحرر من العبودية بمجاهدة النفس وذلك من قوله " من أراد ما أردنا فليسر بسيرنا ، وليقم بأمرنا" بعد أن شافهه النبي صلى الله عليه وسلم بما معناه: "رب أصحابك بالهمة ولاتربهم بالدرس فقط ، وكل بما يليق به" وهذا ما يحكي قائلا:

---

112 – انظر جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف ، للشيخ أحمد الخديم ، ص: 97

113 – سنة: 1313هـ - 1895م

114 – سنة: 1301هـ - 1884م

115 – أنظر إرواء النديم من عذب حب الخديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص72

116 – أنظر ديوان العلوم الدينية للشيخ أحمد بمب ، جمع وعناية: الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، ط2 ، 1441هـ - 2020م ، ص293

117 – أنظر مجموعة الصغرى المشتملة على بعض أجوبة الشيخ ووصاياه وإشاراته وفتواه ، تحقيق: الرابطة الخديمية ، دار المعارف الجديدة ، ط1 ، 1440هـ - 2017م ، ص213- 218

ومن عَجائِبِ ابْن عبْد اللهِ

صلّىَ عليه بسلامِ اللهِ

باقٍ أضاءَ أَرْضَهُ بِالْأَوْلِيَا

إلى القيامة وكلٌّ وَلِيَا

سُنَّتَهُ وصَانَها عنْ بِدَعِ

تَبْشيرُهُ خديمَهُ ب"فَاصْدَعِ"

أمَرَه صلَّى عليه اللّهُ

وَالآل والصَّحبِ وَمَنْ وَالَاهُ

بأنْ يُعلّمَ الْمُريدِين ومنْ

يَقْبَلُ منْه النُّصْحَ منْ أَهل الزّمنْ[118]

وبشره الله تعالى بدقائق العلوم كي ينفع الورى ، وأيده بأدق الفهم من لدنه سبحانه ، فقال:

نَزَعَ مَن يفْعل ما يَشا الْعُلُومْ

ويُمْنَها لي بِكونه الْعليمْ

حَفِظْتُ مَا صِينَ عَن الدَّفاتِرِ

فَلا تكنْ عنْ خِدْمتي بِفَاتِرِ

أعْطَانيَ الْمُعْطي بِجاه المصطفى

صلى عليه بسلام اصْطَفَى

بركةَ القُرْآن والعُلُومِ

وقَادَ يُمْنَها إلى تَعْلِيمِي

إلى تَوَاليفِي يقُودُ اللّهُ

أسْرارَ لا إلا إللّهُ

نَزَعَ لي وليس مِنِّي يَنْزِعُ

وإنَّنِي به حِمًى وَمَفْزَعُ

ذلكَ فَضْلُ اللّه يُؤتيه الذي

يَشاؤُهُ وَقَال لِي: قُلْ بِي لُذ[119]

6- وضع مؤلفات نظما للمنثورات وتلخيصا للمطولات

ثم إنه وضع مؤلفات غزيرة وهو ما زال شابا يافعا يُقْبِل مشروعا كبيرا من نقيِّ حلمه ، بعد أن علم أنه لا بد لكل دعوة إسلامية أن تكون منطلقا بالعلم قبل السلوك ، فجمع في كتبه فوائد العلوم ، ولخص فيها ما يحتاج من العلوم الشرعية من توحيد ، وفقه ، وتصوف ، وآداب ، ونحو... وذلك بعد أن تبحر فيها قام بنظم كثير من منثورات العلماء ، وخاصة ما كان رائجا في عصره منها:

- مواهب القدوس في عقد نثر شيخنا السنوسي
- تزود الصغار إلى جنان الله ذي الأنهار
- سلاح أهل الخوف في نظم منثور الإمام العويفي
- مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديماني
- جوهر النفيس في عقد نثر الأخضري الرئيس
- نهج قضاء الحاج فيما من الأدب إليه المريد يحتاج

هذه وغيرها من مؤلفات مفيدة وفريدة لاشتمالها كل ما يحتاج من أمور الدين ، وخاصة المتعلقة منها في العقيدة ، والفقه ، والتصوف ، وأكثرها مجموعة ضمن ديوان العلوم الدينية التي نشرتها رابطة الخديمية للباحثين والدارسين.

---

118 - إرواء النديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص74

119 - المرجع السابق ، ص74

7- إنشاء مدن للتربية والتعليم

ولما علم الشيخ بعظمة ما يدعو به وأنه سيصعب عليه تحقيق ذلك إن بقي في أرض أجداده وتحت حجاب الملوك والطغاة، واختلاط طلبته بأهل الدنيا والمنشغلين في طلبه، قام بجهد نفسه حاملا مشقات عويصة لإنشاء قرى تكون مهد دعوته التجديدية، وتكون مدنا خاصة للتربية والتعليم والعبادة، بعيدا عن الناس فضلا عن الملوك وأراضيهم، وهذه رؤية عظمى قل ما تجده – وتدل على عقلانية الشيخ وعلو همته في تجديد ما اندرس من الكتاب والسنة، بغرس القيم وتعليم الأجيال الناشئة وتربيتهم، ولهذا السبب أنشأ قرى كثيرة من بينها:

- دار السلام
- طوبى
- دار القدوس
- دار المنان

وفي مدينته طوبى يقول:[120]

الحمدُ للّه الكَريمِ ذي الْمِنَنْ

عَلى اشْتِغالي بِفُروضٍ وَسُنَنْ

شكَرْتُه لأنه قدْ ساقَنِي

لِوطنٍ به نَمى ما عَاقَنِي

وقَادَنِي إليه بالتَّحلِّي

من بَعْد مَا هَذّبَ بالتَّخَلِّي

وجَرَّنِي فيه إلى العُلومِ

والفوْزِ بالعَملِ بالْمَعْلومِ

إلى قوله:

واجْعَلْهُ دَأْبًا مَسْكَنَ التَّعلُّمِ

ومَوْضِعِ الفِكْرة والتَّفَهُّمِ

ومسْكنَ الإرْشاد والتّعليمِ

ومسْكنَ التَّصْويبِ والتَّفْهيمِ

بالمصْطفَى لي بَنَى القُدّوسُ مدرسةً

بها يَزُولُ الْأذَى والجَهْلُ والْكمَدُ

8- التوسل بالصالحين، والتمسك بهديهم

وهذا التوسل والاقتداء بالسلف الصالح، والذين حازوا رضى الله تبارك وتعالى –جانب مهم لاتباع آثارهم، والانتفاع من فيوضاتهم، ولهذا فإن الشيخ لم يغفله قط، فقد اشتمل قصائده الابتهالية توسلا بجميع الصلحاء، كما يتوسل بذكر أسماء الصحابة، وخاصة أهل بدر وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا بفقهاء الأربعة، وأصحاب الطرق الثلاثة، وغيرهم من خيار العلماء، ومن مؤلفاته في ذلك:

- تحفة المتضرعين في التوسل بأسماء المفضلين
- قصيدة الصنديد
- أسماء أهل بدر

وعلى هذا فإن الشيخ رضي الله عنه توسل بجميع المقدسات في الدين، بالعرش والكرسي، وبالكتب السماوية، والأنبياء والمرسلين، وبالملائكة المقربين...

وفي هذه الفترة نظم سلسلة القادرية، وهي قصيدة يتوسل فيها بجميع شيوخه الذين مر عليهم الورد منه إلى أن وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

120 – من قصيدة مطلب الفوزين

ومما اعتنى به الشيخ قبل غيبته البحرية صدق التمسك بالطريقة ملازما على أورادها وأحزابها وشروطها وآدابها ، بعد أن كان ملتزما بما في الكتاب والسنة وعاملا لهما.

ومما سبق نلاحظ شدة اهتمام الشيخ بمهمة التجديد ، وذلك ما جعله يتأهب معرفيا ، حتى يلح نفسه بالمجاهدة لأداء خدمته بإحياء سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفعلًا حقق ذلك بعد دعوته التجديدية ، ويظهر معالمها من خلال غيبته البحرية وعند مواجهته للاستعمار.

المطلب الثاني: المعالم التجديدية في الغيبة البحرية

ما إن طالت دعوةُ الشيخ رضي الله عنه بفترة قصيرة إلا بدأت البذور تنمو ، والروائح تنبعث من كل أنحاء ، والنتيجة تظهر في مريديه ، وذلك لمّا عمل على خطته التي ذكرناها ، وسار على النهج الذي دعى إليه لم يعرج ولم يمل ، حتى فتح الله عليه قلوب الرجال والأحباب ، وانتفع بتربيته الأتباع والزوار ، وطفق الناس يتسابقون إليه وحدانا وزرافات ، ويتدفقون إليه من كل فجّ مزاحمين بجماعات ، ونال الشيخ شهرة واسعة طارت به في الآفاق إلى أن عمت صيته ، ما أثار قلوب الحاسدين واهتز غيرة الحاقدين ، فبدؤوا يفكرون بالسعي إلى عرقلته ، ولم يجدوا بدا من ذلك إلا أن يناشدوه بالمستعمر ، ويسعوا بينه وبين الحكومة المحتلة واشِين ، وهذا ما أدى إلى نصب تهمة عظيمة في نفوس الفرنسيين ، وهي الدعوة إلى الجهاد ، ومحاولة طردهم عن البلاد ، فإنهم ما كانوا يتَمهَّلون في معالجة مثل هذه القضايا؛ لأنها لم تكن خطرا على حركاتهم الإستبشارية فحسب ، بل كانت تهدد سياستهم الإستعمارية ، وتقلل نفوذهم في أفراد الشعب الذي كان يسوده الشتات آنذاك ، لمّا ضعفت قوة ملوك الأمصار ، ولم يعد لهم أي تأثير في المجتمع. ولهذا دعوا فورا لمحاكمة الشيخ بهذه التهمة حتى آل الأمر إلى الحكم بتغريبه ، ليقفوا أمام دعوته التجديدية ، ومنعوا منعا كليا لمريديه بالاجتماع وغير ذلك ، ظانين أن الدعوة ستقف هنا بأخذ الشيخ المؤسس وتغريبه ، لكن زاد هذا السفر بلة في الطين ، فكان في الحقيقة عين بداية تحقيق هذا المشروع ، وانطلاق عزمه في التجديد والترشح إلى أداء الخدمة الكبرى ، مواجها أعداء الله بالجهاد ، حتى وفقه الله سبحانه بالنصر المبين ، ورفع راية الإسلام والدين ، نافيا عن البلد أعداء الله والشياطين.

وهذه بداية المحن والعوائق ، التي كانت تقف أمام الشيخ لعرقلة دعوته التجديدية المقتبسة من الكتاب والسنة ، والتي نصبها أعداؤه بدءا بالعدو الأكبر إبليس -لعنة الله عليه- الذي أغرى الوشاة باتهام الشيخ حقدا ، وحالُوا بين الشيخ والنصارى ، فكانت الأعداء على قسمين ، حيث واجه الشيخ على كل منهما تحقيقًا لمهمته:

العدو الأول: الشيطان ومكائده

العدو الثاني: الوشاة مع الاستعمار

أما الشيطان العدو الأول فقد أيَّسه الله منه في صولته الأولى ، لقوة إيمان الشيخ وشدة عزمه وتوكله على الله تبارك ، وكثرة ذكره بقول الله سبحانه: "إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" [الأعراف: 196]

ولهذا يقول في قصيدته المطرزة ب: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان):[121]

أيَّسَ مِنّي اللهُ عند "جيوَلِ"[122]

إبْليسَ إِذْ نَادَيْتُهُ ب"ياوَلِي"

121 - جزاء الشكور العطوف ، للشيخ أحمد الخديم ، مصدر سابق ، ص111

122 - قرية في إقليم لوغا - سنغال

وفيها يقول:

ناجيتُهُ ب"يانَصيرُ" "ياوَلِي

كَفَيْتَنِي إبليسَ عند "جيول"

وقوله:[123]

إبليسُ أَدْبرَ بِلَا الْتِفاتِ

لِي أبدًا بِجمْلةِ الآفاتِ

أما العدو الثاني وهو النصارى فواجههم بالجهاد والخدمة

وذلك لما وقع ما وقع بتغريب الشيخ، قام بمواجهة المستعمر حتى نال في ذلك حظوة كبيرة وتفوَّق عليهم جهرة، واتضح لهم براءته عن أمر الجهاد وقتل النفس، واستطاع الشيخ من خلال هذه الغيبة بتحقيق ما كان يتمناه من خدمة وتجديد، حيث جاهد عدوه بالتأليف والإصلاح بالسلم فريدا وبعيدًا كل البعد عن وطنه.

- **أسباب الغيبة البحرية**

السبب الظاهر: النفي والتغريب

لقد كان سبب سفر الشيخ كما بينته الآن مبني في الظاهر على تهمة الدعوة إلى الجهاد والاستعداد لمحاربة العدو، فحكموه بهذا البهتان ظلما وجورا، وأخذوه بصفة الأسير المنفي، وهو يقول إنه في سير إلى الله:[124]

أَسيرُ مَع الابْرار حين أسيرُ

وظَنَّ العِدى أنِّي هُناك أَسيرُ

إلى قوله:

مَسيرِي إلَى الوَهّابِ جَلَّ جَلالُهُ

وَمَا لِي إلى غيْرِ الكَريمِ مَسيرُ

السبب الباطن: الخدمة والجهاد

قال الشيخ رضي الله عنه عن شأن هذه الغيبة، كما يروي صاحب الإرواء عنه: اعلم بأن الذين تعلقوا بي لولا تعلقهم بي لدخلوا النار بعد موتهم ولو مدة قبل دخولهم الجنة التي وعد المتقون. وسبب غيبتي البعيدة أن الله تبارك وتعالى أراد في الأزل أن أكون شفيعا لجميع تلاميذي، وحال بيني وبين النصارى..."[125]

وقال أيضا:[126]

عَلَّمَني الرّحمان في السَّفِينَةْ

بِأَنَّنِي خَديمُ ذي المَدِينَةْ

- **معالم تجديد الشيخ طيلة هذه الغيبة**

ويظهر معالم تجديده في هذه الغيبة من أمور:

أولها: جهاده عند مواجهة العدو

من متطلبات الدعوة إلى الله وتجديد السنة مواجهة أعداء الإسلام ومحاربتهم، ولهذا لاقى الشيخ بالمستعمر مجاهدا، وكان تَرد عليه طيلة غيبته إلهامات وخطابات إلهية من آيات جهادية، وآيات الخطابات دالة على الجهاد:

"وأول ما خوطب: قوله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" [الأنفال : 30]

123 – ديوان سعادات المريدين، للشيخ أحمد الخديم، مصدر سابق، ص447

124 – قصيدة " أسير مع الأبرار" أنظر إرواء النديم، للشيخ محمد الأمين الدكاني، ص126

125 – المصدر السابق، ص:83

126 – جزاء الشكور في قصيد المقيدة بحروف: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان"، للشيخ أحمد الخديم، ص111

ومحل اللقاء: بقوله سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ" [الأنفال : 15]

و عند دخوله سفينة البر: قوله تعالى وتبارك: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الأنفال : 45]

مدة مكثه في البحر ثماني حجج إلا قليلًا: يخاطبه تبارك وتعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ" [الأنفال : 15][127]

ولكن كان طريق جهاد الشيخ مختلف لمن قبله من المجاهدين ، فلقد فضل التأليف والذكر بالصلاة والمدح عن أخذ الأسلحة ، كما سنبينه قريبا إن شاء الله.

ثانيها: رفقة أهل بدر نصرة له

ولم يزل الشيخ طيلة سفره مرافقا لجند الله الكرام ، وهذا تأييد من الله تعالى له ، وكانت بمثابة سلاح له يرعب بهم أعدائه ، وفي ذلك يقول:[128]

أَسيرُ مَع الابْرار حين أسيرُ

وظَنَّ العِدى أنِّي هُناك أَسيرُ

مَسيري مَع الأخْيار لله بالنَّبي

ومَا لي لغير الله عَوْضٌ مَسيرُ

وقال أيضا:[129]

نفَى لغيري الله قَبْلُ في "اندر"[130]

بَدْرٍ الأُسُودِ كَدَري

وقال أيضا:[131]

رافَقْتُ جنْدَ الْعَزيز البرِّ في سَفَري

وَكَوْنَه ليَ لَمْ يجْحَدْه أَذْهَانُ

وقدْ تَبَيّنَ لِلْفُجّار كلِّهم

كوْنُ الكرامِ مَعي إذْ جَيْشَهم خَانُوا

ومما يؤيد هذا أنه لما انطلق في رحلته بدأ بنظم أسماء أهل بدر في قصيدة أتمه في المنفى ، وسرد فيها أسماءهم وصفاتهم ، وكما يحكي بأن الله أرعب أعدائه بهم في مراحل ، مرة بنور وجوههم ومرة بصفاتهم الرهيبة ، يقول:[132]

نَصرَني بأهْل بَدرٍ الفِئَامْ

ولِجَنَابي لايُوجِّهُ اللِّئَامْ

وُجُوهُ صِحَاب الْمُنتقَى وَاجَهُوا الْعِدَى

بطَرْدٍ وإرْدَاءٍ كما أدْمَنُوا النَّفْيَا[133]

وقد حدث ذلك في ليبرول[134] ظهورهم في أوصافهم الرهيبة ، فيقول رضي الله عنه شكرًا لله:[135]

---

127 – المجموعة الصغرى المشتملة على بعض أجوبة الشيخ ، مصدر سابق ، ص20

128 – قصيدة " أسير مع الأبرار" انظر إرواء النديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص126

129 – جزاء الشكور في قصيدة المقيدة بحروف: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" ، ص111

129 – 1323هـ

130 – اندر مدينة في السنغال وعاصمتها الأولى زمن الاستعمار

131 – ديوان سعادات المريدين في أملاح خير المرسلين ، للشيخ أحمد الخديم ، ص510

132 – المصدر نفسه ، ص76

133 – من قصيدة مقيدة بحروف " أعوذ بالله من الشيطن الرجيم"

يسَّرَ لي المُنَى لدى "ليبرول"

منْ قادَ لي مَا غَابَ عَن كُلِّ وَلِي

لِي قادَ أهلَ بدر الْأُسُودَا

مَنْ زَحْزَحوا الوَاشيَ والْحَسُودَا

ورفقة أهل بدر له لا شك يدل على أن الشيخ لم يكن وحيدا في سيره، بل عضده الله بالذين أقاموا هذا الدين وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وهاجروا ديارهم وعيالهم لإقامة الإسلام ونفي الكفر والظلام.

ثالثها: تربية الله وتزكيته

من معالم تجديد الشيخ أن ولاه الله لنفسه تربية حتى يصل إلى كمال العبودية لله وحده من خلال محن شديدة، زكى الله به نفسه، فيقول:[136]

وجَّهْتُ وجْهِي لِمنْ تَكْرِيمُهُ بَانَا

فِي شَهْرِ مَوْلِدِ مَنْ فِي الْبَحْرِ رَبَّانَا

رَبَّيْتَنِي رَبِّ فِي الْأَعْداءِ مُغْتَرِبًا

حتَّى رُجُوعِي لِلْأَوْطَانِ قَدْ حَانَا

وقال الشيخ رضي الله عنه حكاية عن هذه التربية:

"مكثت في تلك الجزيرة سنين جاهدت فيها نفسي بترك ما زاد على ما يستتر به من اللباس، وبأكل ما لم يكن يأكله غيري من أدنى الأطعمة."

وقال أيضا: " وفيها أراني ربي عيوب نفسي — كلها وطهرني منها حتى صرت خادما لرسول الله صلى الله تعالى عليه بآله وصحبه وسلم- بعد ما صرت عبدا خالصا له تبارك وتعالى حتى جاد لي بما جاد لي به مما لا ينكره غير شقي مطرود عن الحضرة المقدسة من ذوي الاغترار والتكبر والحسد والنفوس المدنسة.[137]

رابعها: جهاده في التأليف

فمدة مكث الشيخ في هذه الجزيرة مغتربا لم يمنعه بالمضي في التأليف، بل كان الخط والتأليف جهاده الوحيد مع العدو، يقول رضي الله عن شأن هذا الجهاد:[138]

جاهَدتُ بِالْخَطِّ سِنِينَ وَحْدِي

مَن لَم يَكُن مُوَحِّدا ذَا جَحْدِ

بالخطِّ جَاهدتُ عدُوَّ اللهِ

عشْرةَ أَعْوَامٍ بِذكْرِ اللهِ

منْ عامِ جَيْسَشٍ لِعَامِ جَكْسَشٍ[139]

وقُبِلَ الْجَمِيعُ عَامَ هَكْسَشٍ[140]

لَوْ أَنَّني لم أتْرُكِ الكِتَابَةْ

مُجَاهِدًا به ذَوِي الْعِتَابَةْ

لماتَ بالوَباء كلُّ كَافِرِ

إِنْ لَم يَتُوبُوا لِلْإِلهِ الْغافِرِ

لكنْ عَفَوْتُ عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ

لوجْهِ رَبٍّ مُهْلِكٍ خنَّاسِي

134 – عاصمة غابون

135 – المصدر نفسه، ص112

136 – في قصيدة المقيدة بحروف: "ولقد كرمنا بني آدم ... " وتعتبر من كتابات الشيخ في البحر

137 – جزاء الشكور العطوف، للشيخ أحمد الخديم، ص65

138 – من قصيدة مطلعها: " ليعلم الناظر أن خطي"

139 – 1323هـ

140 – 1325 هـ

ومن هذه التواليف جملة ما كتبه مقيدا حرفه بآيات القرآن الكريم ، كقصائده المقيدة بحروف "حسبنا الله ونعم الوكيل" والمقيدة بحروف " وأفوض أمري إلى الله" ، وكثير من ذلك مجموعة ضمن " الديوان القرآنية" و"ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين".

ومنها تأليفات في التوحيد ، والفقه ، والتصوف ، بعضها كتبه في البحر ، والبعض أعاد كتابته بعد أن كتبه قبل الغيبة ، مثل "مغالق النيران" و"منور الصدور".

ومنها قصائد شكر ومدح وصلوات؛ وهذه حكاية منه في بعض مؤلفاته هناك:

وفيها: " ألفت كتابا لم يسبق إليه في الإجابة والبركات ، بفيض من كفاني جوار المشركين والمشركات ، وفيها من العجائب ما يؤدي كل منكر إلى الازدجار والسكوت."[141]

ويقول في جهاده بالمدح:[142]

مَديحُكَ يا خَيْرَ الْبَرايَا سَعَادَتِي

يَقينِي بِهِ إبْليسَ رَبِّي مَتَى دَبَّا

مَدحْتُك مَدْحًا كَفَانِي الْعِدَى مَعَا

بذكْرٍ حَكيمٍ فَيْضُهُ نحْوِي انْصَبَّا

خامسها: ابتهالاته في الغيبة ، ودعوته

كأن الشيخ رضي الله عنه في غربته الطويلة كان منسيا أراضيه وأهله وأولاده ، ولكن ما كان قط ينسى همته التي نوى به من قبل ونهض من أجله وهو التجديد والإصلاح ، فأمْرُ أهلِه وكَّلَه على الله سبحانه ، أما أمر هذا الدين فلم يزل يدعو الله سبحانه ليكون هو من يجدده ويرعاه ، وهذه بعض من دعواته في الغيبة:

1- دعائه في البحر ليقيم أركان الله

كَوِّنْ بكن لِّيَ في ذا الْيَوْمِ تَوْسِعَةً

حتَّى أُقِيمَ لِدِينِ اللهِ أَرْكَانَا

اصْرِفْ قُلُوبَ النَّصَارَى عَنْ أذايَ مَعًا

لِنُصْرَتِي واهْدِ بِي شِيبًا وَفِتْيَانَا

اجْعَلْ رُجُوعِي إلَى قَوْمِي سَعَادَتَنَا

وَلْتَكْفِنَا يَوْمَ جَمْعَ الخلْقِ نِيرَانَا

هبْ لي بِفَضْلِكَ كَوْني سَرْمَدَا فَرَحًا

لِلمُسْلِمين وَخَلِّدْ فيك بُشْرَانَا

ضَيِّقِي أَزِلْ عاجِلًا بِالْبِشْرِ مَعْ مَدَدٍ

حتَّى أُقِيمَ لِدينِ اللهِ أَرْكَانَا[143]

ودعا في البحر:

لَهُ اكْتُبْ صَلَاةً مَعْ سلامٍ بِآلِهِ

وأَصْحَابِه وَاجْعَلْ مَسْجِدِي بِه رَحْبَا

2- حماية القرآن والحديث ، ورفعهما به

صُنِ الْحَديثَ وَالْفُرُوعَ كَالْكِتَابْ

عَنِ الذين امْتَنَعُوا من الْمَتَابْ

رَافِعْ بِي ارْفَعِ الكِتَابَ والْفُرُوعْ

مَعَ الْأَحاديثِ الصِّحابِ ذَا بُرُوعْ[144]

141 – جزاء الشكور العطوف ، للشيخ أحمد الخديم ، ص67

142 – المصدر نفسه ، ص65

143 – من قصيدة مقيدة بحروف: "ولقد كرمنا بني آدم..."

بِيَ احْفَظِ الذِّكْرَ الْحَكِيمْ

مَعَ الْحَدِيثِ يَا كَرِيمْ

واجْعَلَنِ حافِظًا فَهِيمْ

لِغَامِضٍ مُكْتَتِمِ[145]

وهكذا كان يحمل رسالة الدعوة التجديدية التي أُمِر بإبلاغها قبل الغيبة ، رغم أنه لم يكن يرى من يطلب الله والرسول لكنه لم يمل في ذلك قط ، فكان متخذا بدينه وداعيا إلى الله بإذنه ، فهذه من دعوته:

1- إشهاده لبحر ما ينبا[146]

لِي اشْهَدْ بِكَوْنِي عَبْدَ مَن يغْفِرُ الذَّنْبَا

وكوْنِي خَدِيمَ الْمُصْطَفَى بَحْرُ مَا "يُنْبَا"[147]

أيَا بَحْرُ وَحِّدْ لَا تُثَلِّثْ فَرُبَّنَا

تَعَالَى عَنِ التَّثْلِيثِ أَكْرِم بِهِ رَبَّا

2- دعوته إلى التوحيد ، والفقه ، والتصوف

أَدْعُو إِلَى اللهِ بِالتَّوْحِيدِ

ومَا رَأَيْتُ عَنْهُ مِنْ مَحِيدِ

للهِ أَدْعُو بِالتَّفَقُّهِ بِلَا

ميْلٍ لِغَيْرِه وَكُلِّي قَبِلَا

للهِ أَدْعُو بالتَّصَوُّفِ مَعَا

مَكارِمِ الْأَخْلَاقِ وَهْو سَمِعَا[148]

سادسها: تجديد أحزاب الأقطاب

ومن معالم التجديد الكبرى التي حدثت في غيبة الشيخ البحرية ، أنه تسلم هنالك من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة الإجازة المطلقة في الأوراد الثلاثة بإذن من أصحابهم ، فلما تخلى من قبل عن استعمال أي ورد متخذا بالقرآن الكريم ، أصبح بعد ذلك مجددا لأحزاب الطرق المعروفة ، ولهذا كان يجيز فيها بعد عودته للمنتمين إليها ، وكان يقول لمن يطلب منه إجازة: أي سند تريد؟ أتريد السند الطويل الذي أخذته من الشيوخ من قبل؟ أو الذي تسلمته من النبي صلى الله عليه وسلم في الغيبة؟ وقد جدد الإجازة في سنده الأخير لجمع غفير من القادرية ، والتيجانية ، والشاذلية بعد عودته.

سابعها: قبول خدمته التجديدية بعد المحن

ومما يدل على تجديد الشيخ أنه بعد هذه المحن عزم بأن الله قَبِلَ نيته ليقوم بهذا المهام ، وليكون من يتولى أمر هذا الدين فيقول:

هَدَمْتُ مَا بَنَاهُ كُلَّ من جَحَدْ

مِنَ الْفِرَى بقُلْ هُوَ اللهُ أحَدْ[149]

فاليوْمَ قَدْ صَرَفْتُ خَطِّيَ إِلَى

تَجْدِيدِ دِينِ اللهِ وَاهِبِ الْإِلَي

لمْ يبْقَ سِوى النَّصيحَةِ لِمنْ

عَاصَرْتُهُم لوجْه مَالك الزَّمَنْ[150]

وقال أيضا:

144 – من قصيدة "وكان حقا علينا نصر المؤمنين"

145 – من قصيدة التوبة النصوح

146 – جزاء الشكور العطوف ، للشيخ أحمد الخديم ، ص65

147 – وهي مدينة في غابون ، حيث ألقي الشيخ في جانب البحر.

148 – من قصيدة مقيدة بحروف"الله محمد"

149 – ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، للشيخ أحمد الخديم ، ص445

150 – من قصيدة مطلعها: " ليعلم الناظر أن خطي"

يبُثُّ عُلُومَ الدِّينِ خَطِّي مُجَدِّدًا

لِنَهْجِ النَّبِي بِالْخَطِّ إِذْ رسْمُهُ عَفَا

كِتَابَتِي تُبَيِّنُ الفُرُوضَا

وسُنَنَ الذي كَفى تَمْرِيضَا[151]

ثامنها: تهنئة علماء المعاصرين له بعودته

وبعد مكث الشيخ في غيبته ثماني حجج إلا قليلا رُدّ إلى بلده ، وذلك بعد تفتيشهم له للتصريح عن أمره ، ومحاولتهم ليتراجع في سيره ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولهذا قرروا برده إلى الوطن بعد قدر الله سبحانه ، وإثر تأليفه قصيدة مقيدة بحروف (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا).

وبعد عودة الشيخ رضي الله عنه حقق ما كان يدعو ، واهتز المسلون بالفرح فلم يبق من العلماء إلا وقد هنئه وهنأ الدين بقدومه ، وهذا العالم الموريتاني سعد أبيه أرسل إليه رسالة يهنئه في مجيئه واستهله بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه الكريم ، وآله وصحبه وسلم أزكى التسليم ، أحمد ربنا الذي نظم شمل الدين بأيام إقبالكم بعد تشتيته بليالي إدباركم ، ... واستخرج ياقوتكم من غور البحار العظام ، وحلى بها جيد المعاهد والإسلام...

ثم أنشد:

مَعادِنُكُم أَجْلَتْهُ مِنْهَا النَّصَارَى

فَأَصْبَحَ فِي تِلْكَ الْبُحُورِ نُضَارَى

وبَدْرٍ مُنِيرٍ غَابَ فِي الْغَرْبِ ثُمَّ لَا

حَ مِ الْغَرْبِ شَمْسًا رِفْعَةً وَانْتِشَارَا

ويَا عَجَبَا بَابَ المَتَابِ مُفَتَّحٌ

لِكُلِّ مُرِيدٍ رَامَ مِنْهُ جِوَارَا

هَنِيئًا لِذا الدِّينِ الْغَرِيبِ الذي غَدَا

يَتِيهُ سُرُورًا مِنْكُمُ وَافْتِخَارَا[152]

وهكذا يمدحه الشيخ يوسف النبهاني في أبيات:

حَوَى "انْجَارِيمُ"[153] عُلُومًا لِلْإِلهِ وَفَضْ

لًا لَا يَمُنُّ وَفَضْلُ الْغَيْرِ مَمْنُونِ

حوَى الْخَدِيمُ الذِي لَوْلَاهُ مَا سُجِدَتْ

عَلَى الجِبَاهِ وَلَمْ تُقْرَأْ بِهِ نُونُ[154]

ويتحدث الشيخ إبراهيم جوب المشعري عن شأن هذه الغيبة ودوره في تجديد الشيخ:

خَرَجْتَ مِنْ "جُلُفٍ"[155] للهِ فِي سَفَرٍ

أَكْرِم بِهِ سَفَرًا قَدْ حَازَ كُلَّ يَدِ[156]

وقال أيضا:

فَأَكْرِم بِهِ مِنْ بَاهِرِ الْفَضْلِ رَبُّهُ

بِهِ جَدَّدَ الْإِسْلَامَ حَتَّى تَجَدَّدَا[157]

---

151 – من قصيدة "صفر مدحَ سيدنا"

152 – راجع ترجمة الشيخ أحمد الخديم في إرواء النديم للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص225

153 – مدينة في السنغال ، أقيم فيها الشيخ رضي الله عنه الإقامة الجبرية من قبل السلطة الفرنسية.

154 – راجع قسم ترجمة الشيخ أحمد الخديم في ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، ص49

155 – منطقة في السنغال ، فيها موضع انطلاق الشيخ في غيبته ، يسمى ب: "مباكي بار جلف"

156 – أنظر ديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري ، تحقيق: عبد القادر امباكي وأبو مدين شعيب تياو ، دار الأمان- الرباط ، ط2 ، 1442هـ - 2021م ، ص128

157 – المصدر نفسه ، ص117

ومن معالم تجديد الشيخ الآثار التي ترتب على قدومه ، منها:

- إعطاء الأوراد الثلاثة: كان الشيخ يلقن الأوراد الثلاثة بعد قدومه ويعطي الإذن فيها كما يعطي فيها الإذن أصحابه ، ولهذا ثبت أن كثيرا من المنتمين إليها أخذوا منه إجازة إثر قدومه ، وخاصة أهل موريتنا كانوا يفدون إليه ويجدد لهم أورادهم ، وكذا من كبار مريديه من كان يستعمل الأوراد الثلاثة بإذن من الشيخ تبركا.

- وجود كبار مشايخ تخرجوا من مدرسته التجديدية؛ أمثال سرين امباكي بوصو ، وسرين دام عبد الرحمن لوح ، والشيخ إبراهيم فال ، والشيخ إبراهيم فات ، حيث كان لهولاء المذكورين وغيرهم من مريديه- مراكزُ للتربية والتعليم يأتيهم أبناء المسلمين من جميع الجهات في السنغال.

- المضي في التربية والتعليم: لما قدم الشيخ مضى فيما كان عليه ولم يغير في سيره طرف عين ، كأنه ما غُرِّب قط من أجل هذا ، بل يزداد قدوم الناس عليه في كل فترة ، هذا ما أوجب تغريبه الثاني إلى أرض موريتانيا.

- إنشاء قرى ومساجد: كان من أسس رؤية الشيخ الإصلاحية أنه لابد باعتزال الناس وأهل الدنيا ، ولهذا دأب أن يأمر المريد بعد تربيته بإنشاء قرية خاصة له للتربية والتعليم بعيدا عن الناس ، وهذا سبب كثرة القرى والمدن التابعة للطريقة المريدية الآن في السنغال ، وتوسع دعوة الشيخ من أجل انتشار مريديه في جميع أنحاء البلد.

- تأثيره في قومه وللشعب السنغالي: من أكبر ما استفاد به أهل السنغال عموما في رحلة الشيخ والطريقة المريدية خصوصا كثرة المساجد في السنغال ، والمدارس العربية الإسلامية وكذا الجامعات؛ لأنه كان أول ما يفعله بعد إنشاء قرية ما -بناء مسجد يُصلَّى فيها ، وإقامة كتاب قرآني يدرس فيها أبناء المسلمين ، فهذا أثر عظيم يشهده البلاد اليوم ، حيث تضافرت المدارس القرآنية والمجالس العلمية أكثر من آلاف في طوبى وما حوله.

- تتبع آثار رحلته ومراحلها: وهذه لا أقول إنه أثر ، بل مزية عظيمة نشهده اليوم في السنغال ، حيث أصبح الآن جميع مراحل رحلته وأيام محنته — مناسبات دينية يحتفلها أهل السنغال في كل سنة ، بدءا بخروج الشيخ من جلف يوم ثامن عشر في شهر صفر ، وهي أكبر مناسبة دينية في غرب أفريقيا حيث يجتمع فيها ملايين من الناس يزورن مدينته طوبى في يوم الاحتفاء (مغال) ، ويستفيد البلد فيها من الناحية الاجتماعية والإقتصادية ما يكل قلمي بوصفها ، ثم يوم رجوعه ما من قرية مر فيها في السنغال إلا وقد أصبح اليوم محفل ذكر وشكر. وكذا صلاته في مكتب اندر يوم محاكمته ، مشهد تاريخي عظيم في السنغال ، وخاصة في مدينة اندر وسمي اليوم ب: (ركعتي اندر) ، يجتمع فيها آلاف من الناس يؤدون صلاة العصر في مكتب الحكومة الفرنسية آنذاك- تبركا بركعتي نافل الشيخ. أما عن المساجد التي بني في المدن التي مر بها الشيخ في سفره فحدث ولا حرج ، فالواقع من يشهد لذلك جلي ، وهكذا تم بناء مسجد كبير محل خلواته في غابون والجبل التي كان يعكف

عليها عبادة ، وهذا الحمد لله نعمة عظيمة تركتها بصمة هذا السفر هنالك بفضل هذا التجديد المتمثل بإحياء لما اندرس من الكتاب والسنة.

خاتمة:

وفي الختام تتجلى لنا مكانة هذا السفر في دعوة الشيخ التجديدية ، إذ إنه يمثل منعطفا تاريخيا مهما في سيرته العطرة- رضي الله عنه - ، وأنه سلم تسلق به الشيخ حتى ارتقى إلى قمة الوصول في بناء الذات المعرفي ، بعد أن وضع الأسس الأولى في رؤيته الإصلاحية وما يعضدها من وسائل علمية ومعرفية ، ثم تأتي الغيبة مجسما من خلال مكنوناتها- لهذا المشروع العظيم ، الذي لولا هذه الغيبة لما كان له أثر أو فائدة تذكر ، وكأنها جسر قد وُضع للعبور إلى المهمات ، ولهذا تقوم مقام شاهد يوقع حسن أداء الشيخ لهذه الخدمة الكبرى ، بكثرة ما عانى من أخطار هالكة ، يكفي أن تكون معلما على جدية الشيخ فيما يدعو ، بالإضافة إلى ذلك ما ظهر خلال هذا السفر مما يبدي همة الشيخ العالية في التجديد ، من جهاده وكثرة تأليفاته ودعواته... ولهذا ترتبت على خرجه آثار تذكر إلى يومنا هذا ، وتنفس هذا الدين بظهوره وقدومه علما بأن كلمة الله هي العليا! والله عزيز حكيم.

لائحة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

إرواء النديم من عذب حب الخديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، تحقيق رابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار المعارف الجديدة ، سنة 2017م.

التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة سنة ، للإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق: عبد الحميد شانوحة ، دار الثقة للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ.

جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف ، للشيخ أحمد الخديم (ت 1346هـ - 1927م) ، دراسة وتحقيق للباحثين: محمد المرتضى بوسو ومام مور امباكي حمدي ، دار الأمان للنشر والطباعة ، ط1 ، 1444هـ - 2022م.

ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، لأبي المحامد الشيخ أحمد بمب امباكي ، بعناية رابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، ط1 ، سنة1443هـ - 2021م.

ديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري ، تحقيق: عبد القادر امباكي وأبو مدين شعيب تياو ، دار الأمان- الرباط ، ط2 ، 1442هـ - 2021م.

ديوان العلوم الدينية للشيخ أحمد بمب ، جمع وعناية: الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، ط2 ، 1441هـ - 2020م.

لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ) ، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر — بيروت.

مجموعة الصغرى المشتملة على بعض أجوبة الشيخ ووصاياه وإشاراته وفتواه ، تحقيق: الرابطة الخديمية ، دار المعارف الجديدة ، ط1 ، 1440هـ - 2017م.

معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين (ت 395هـ) ، المحقق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، 1399هـ - 1979م.

البعد المقاصدي والاجتماعي في فتاوى الشيخ الخديم الأسرية: فتوى نكاح الزانية بغير الزاني أنموذجا

بقلم الباحث: سرين مود بوسو مريم[158]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن حذا حذوهم إلى يوم الدين، وبعد؛

فإن للشريعة خصائص فريدة تتميز بها عن غيرها من الشرائع، ومن أبرز تلك الخصائص؛ خاصيتا الثبات والمرونة، فهي ثابتة في أصولها لا تتغير، ومرنة في الوقت نفسه قادرة على استيعاب كل مستجد وحادث، فواكبتْ بذلك كل تغير وتطور أحدثتْه البشريةُ عبر القرون المختلفة، والأماكن المتباينة، والظروف المختلفة، والأعراف المتجددة.

وظل الفقه الإسلامي يحمل راية التجديد والاجتهاد، وفق ضوابط وشروط وضعها أهل العلم، واستطاع - بذلك- أن يلامس أحوال المكلفين، ويجد لها الحلول الناجعة، فيما تحدث لهم وتنزل عليهم من مشكلات ومستجدات.

وقد تميز فقهاء مالكيي الغرب الإسلامي باهتمامهم البالغ وعنايتهم الفائقة — التي جاوزت المتوقع- بفقه النوازل، فقد خدموه خدمة جليلة؛ لأنه من أهم الأسس التي بني عليها الفقه المالكي، فحازوا قصب السبق في تناوله والتأليف فيه، وكان لهم الكعْبُ العالي في التَّبْرِيز فيه، فجمعوا القضايا المطروحة في هذا الباب، ودوّنوا النوازل والأجوبة بعد التنقيح والتهذيب، مُرَتَّبَةً مُبَوَّبَةً على الأبواب الفقهية، ليسهل الاستفادة من مادتها العلمية.

وللمذهب المالكي في غرب إفريقيا عامة، وفي السنغال خاصة رجال شدوا حيازيمهم في اعتنائه وصونه عن الضياع والعفاء، وسامروا القماطر والمحابر في رسم معالمه، صابِّين عُصارةَ أفكارهم فيه تأصيلا وتنزيلا، راجعين إليه في الحكم والفتوى، عاضّين عليه بالنواجذ؛ لما يتسم به من خصائصَ، فخلّفوا لذلك مصنفات ماتعة نفيسة، ومؤلفات بَهيّة سَنِيّة، تنضوي بين طياتها أثيثةً من أبواب الفقه المالكي؛ من العبادات والأحوال الشخصية والمعاملات المالية والأقضية، كما كانت لهم فتاوى ونوازل برز فيها تمكُّنُهم من فقه المذهب وأصوله وقواعده تنظيرا وتطبيقا، تأصيلا واستدلالا.

وقد اهتموا بعلم النوازل والفتوى لحاجة المجتمع إليها؛ وبه يعالج مشاكله ويحل معضلاته، لذا يلزم ممن تقلدها أن تتوفر لديه شروط تؤهله لتقليد هذا المنصب، وعلى مطلعها الإلمام بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، واستحضارها عند الإعمال والتنزيل.

وقد تركوا لنا تراثا غنيا في النوازل، يبين مدى عقلية المسلم السنغالي، ويعطينا صورة واضحة عن منهجم في تناول القضايا الطارئة.

ومن العلماء الذين برزوا في هذا المجال، وتقلدوا منصب الفتوى في السنغال، وامتلكوا زمام القواعد الفقهية والمقاصدية، وسعوا إلى إعمالها في فتاواهم ونوازلهم، فأفْتوا في كثير من نوازل مجتمعهم، سواء المتعلقة في عباداتهم أو معاملاتهم وما تحل في حياتهم اليومية من أحداث ووقائع، وخاصة **النوازل الأسرية**؛ بفضّ خصوماتهم ومنازعاتهم، مُلتفتين إلى عادات المجتمع وأعرافهم، مُراعين مقاصد الشريعة وحِكمها وأسرارها: الفقيهَ الشيخ أحمد بامبا امباكي الذي يعد مِن أبرز مَن أعْملَ النظر المقاصدي في فتاويه وأجوبته عند علماء السنغال. وقد خلف في فقه

[158] طالب باحث بمؤسسة دار الحديث الحسنية / الرباط.

النوازل ومتعلقاته تراثا ضخما وعطاء غزيرا يجب على الباحثين الاستفادة منه وخدمته ، وقد ساهم في هذه المعلمة والصناعة الفقهية الرائدة برصيد علمي ثمين ، يحتاج إلى دراسات علمية رصينة.

وينقسم البحث إلى مقدمة وأربعة مطالب وخاتمة.

المطلب الأول: نص السؤال والجواب

أ- نص السؤال:

سئل أحمد المفتي عن حكم نكاح الزانية بغير الزاني فأجاب بما نصه:

ب- نص الجواب:

«وأما (...) قولك: وأن تبين لي نكاح الزانية بغير الزاني جاز أم لا؟

فالجواب: أن الزانية إن كانت مشتهرة بالزنا فتزويجها مكروه كما صرح به الشيخ خليل بقوله: "وتزويج زانية". وقال الشارح: أي: مشتهرة بالزنا ، وقد قال مالك: لا أحب للرجل أن يتزوج المعلنة بالسوء ولا أراه حراما ، وفي "النوادر": أنه يتقى إرضاع الفاجرة فكيف بنكاحها. وأما من زنت مرة فيجوز نكاحها بعد الاستبراء للزاني بها ولغيره كما في "التلقين" وغيره. وقال قتادة وأحمد: إن تابت جاز نكاحها لكل واحد وإلا لم يجز ، وقال ابن حبيب: لا يجوز نكاح المتجاهرة ، ذكره اللخمي. انتهى من الميسر.

وفي بعض كتب التفسير في سورة النور عند قوله تعالى: أن معنى الآية: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ [النور: 3] ، أن الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب في خبيثة من شكله أو مشركة ، والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين.

فالآية تزهيد في نكاح البغايا؛ إذ الزنا عديل الشرك في القبح ، والإيمان قرين العفاف والتحصن ، وهو نظير قوله: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ [النور: 26]. وقيل: كان نكاح الزانية محرما في أول الإسلام ثم نسخ بقوله: وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ [النور: 32]. وقيل: المراد بالنكاح الوطء؛ لأن غير الزاني يستقذر الزانية ولا يشتهيها ، وهو صحيح لكنه يقتضي إذا قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية ، والزانية لا يزني بها إلا زان ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن زنى بامرأة ثم تزوجها؟ فقال: «أَوَّلُهُ سِفَاحٌ ، وَآخِرُهُ نِكَاحٌ»[159] [160].

المطلب الثاني: تحليل الفتوى وتأصيل الحكم الشرعي لها:

تتناول الفتوى مسألة تزويج الزانية ، فما الحكم الشرعي في ذلك؟ هل هو جائز أم لا؟

اتفق العلماء على أن نكاح الزانية جائز ، وليس حراما على خلاف في المذهب المالكي ، وأجاب المفتي أحمد بامبا بالكراهة ، شريطة أن تكون الزانية مشتهرة بالزنا ، وأما إن كان مرة واحدة فلا خلاف في الجواز ، وإنما الخلاف واقع في اشتهارها بالزنى ، وقال الحطاب في «مواهب الجليل»: «وفي تفسير القرطبي في أول سورة النور قال ابن خويز منداد: من كان معروفا بالزنا ، أو بغيره من الفسوق معلنا به فتزوج إلى أهل بيت ستر وغرهم من نفسه فلهم

---

[159]) أخرجه من حديث ابن عباس البيهقي في السنن الكبرى (251/7) ، والدار قطني في السنن (402/4).

[160]) من فتاوى الشيخ أحمد بامبا امباكي وأجوبته ونوازله ، (ص:198-199).

الخيار في البقاء معه وفراقه وذلك كعيب من العيوب واحتج بقوله – عليه الصلاة والسلام – «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله» ، قال ابن خويز منداد: وإنما ذكر المجلود لاشتهاره بالفسق وهو الذي يجب أن يفرق بينه وبين غيره فأما من لم يشتهر بالفسوق فلا[161]».

واستدل المفتي على أقوال أئمة المذهب كما في الشيخ خليل بقوله: «وتزويج زانية» ، وقال مَحَنَّضَ بَابَهْ في شرحه «ميسر الجليل»: أي مشتهرة بالزنا ، وقد قال مالك: «قال ابن وهب عن مالك عن المرأة المُعلنة بالسوء: لا أرى للرجل أن يتزوجها ، ولست أراه حرام [162] ، وفي «النوادر»: أنه يتقى إرضاع الفاجرة فكيف بنكاحها. وأما من زنت مرة فيجوز نكاحها بعد الاستبراء للزاني بها ولغيره كما في «التلقين» وغيره. وقال قتادة وأحمد: إن تابت جاز نكاحها لكل واحد وإلا لم يجز ، وقال ابن حبيب: لا يجوز نكاح المتجاهرة ، ذكره اللخمي».

وقد ورد في التبصرة للخمي «قال مالك فيمن زنا بامرأة: إن له أن يتزوجها بعد أن يستبرئها. قال ابن القاسم ، وكذلك من قذف امرأة فضرب لها حد الفرية ، أو لم يضرب ، لا بأس أن يتزوجها. وهو قول جميع الفقهاء. وقال الحسن: لا يجوز للزاني بها أن يعقد نكاحها أبدًا ، وإن عقد كانا زانيين. وقال قتادة وأحمد بن حنبل: إن تابت جاز العقد عليها لكل أحد ، وإن لم تتب لم يجز. وحكي عن الحسن وأبي عبيدة ، فيمن زنت أنه يفرق بينها وبين زوجها. وروي نحوه عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه–.

وقال ابن حبيب: لا يجوز نكاح الزانية المتجاهرة ، ويستحب لمن تحته امرأة تزني أن يفارقها ، فإن ابتلي بحبها فله أن يحبسها للحديث. قال مالك: ولا أحب للرجل أن يتزوج المرأة المعلنة بالسوء ولا أراه حرامًا.

وفي هذا الحديث دليل على جواز النكاح للزانية؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يوجب فراقها[163]».

وقد رد الفقهاء على قول الحسن وابن حبيب بعدم جواز نكاح الزانية ، وأما قول أحمد باشتراط التوبة أورده ابن قدامة في «المغني» ، لأنه يشترط الاستبراء والتوبة ، أما أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، لا يشترط ذلك ، كما يقول ابن قدامة:

«والشَّرْط الثاني ، أن تَتُوبَ من الزِّنَى ، [وبه قال] قتادةُ ، وإسحاقُ ، وأبو عُبَيْد. وقال أبو حنيفةَ ، ومالكٌ ، والشافعي: لا يُشْتَرَطُ ذلك؛ لما رُوِيَ أَنَّ عمرَ ضَرَبَ رجلًا وامرأةً في الزِّنَى ، وحَرَصَ أن يَجْمَعَ بينهما ، فأبَى الرجل [...] ولَنا ، قولُ اللَّه تعالى: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهي قبلَ التَّوْبةِ في حُكْمِ الزِّنَى ، فإذا تابَتْ زال ذلك؛ لقولِ النَّبِي –صلى اللَّه عليه وسلم–: "التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ". وقولِه: "التَّوْبةُ تَمْحُو الْحُوبَةَ"[164]».

كما أن الفقيه المفتي فصّل في الجواب بإيراد أقوال العلماء المفسرين في قوله تعالى: " لزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَ لزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى لۡمُؤۡمِنِينَ" [النور: 3] أن الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب في خبيثة من شكله أو مشركة ، والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين.

---

[161]) مواهب الجليل شرح محتصر خليل ، (461/3).

[162]) الجامع لمسائل المدونة (335/9).

[163]) التبصرة ، الخمي (2016/5).

[164]) المغني ، ابن قدامة (562/9).

فالآية تزهيد في نكاح البغايا؛ إذ الزنا عديل الشرك في القبح ، والإيمان قرين العفاف والتحصن ، وهو نظير قوله: لِخَبِيثَتُ لِلخَبِيثِينَ [النور: 26]. وقيل: كان نكاح الزانية محرما في أول الإسلام ثم نسخ بقوله: "وَأَنكِحُواْ لأَيَمَى" [النور: 32]. وقيل: المراد بالنكاح الوطء؛ لأن غير الزاني يستقذر الزانية ولا يشتهيها ، وهو صحيح لكنه يقتضي إذا قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية ، والزانية لا يزني بها إلا زان ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن زنى بامرأة ثم تزوجها؟ فقال: «أَوَّلُهُ سِفَاحٌ ، وَآخِرُهُ نِكَاحٌ[165]».

وقد عدّ ابن العربي هذه الآية من مشكلات القرآن من وجهين: «أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذِهِ صِيغَةُ الْخَبَرِ ، وَهُوَ عَلَى مَعْنَاهُ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَشَرَحْنَاهُ ، رَدًّا عَلَى مَنْ يَقُولُ: إنَّ الْخَبَرَ يَرِدُ بِمَعْنَى الْأَمْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الزَّانِيَ لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً. وَنَحْنُ نَرَى الزَّانِيَ يَنْكِحُ الْعَفِيفَةَ.

وَقَالَ أَيْضًا: وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَنَحْنُ نَرَى الزَّانِيَةَ يَنْكِحُهَا الْعَفِيفُ ، فَكَيْفَ يُوجَدُ خِلَافُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ؟ وَخَبَرُهُ صِدْقٌ ، وَقَوْلُهُ حَقٌّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ مُخْبَرُهُ بِخِلَافِ خَبَرِهِ؛ وَلِهَذَا أَخَذَ الْعُلَمَاءُ فِيهَا مَآخِذَ مُتَبَايِنَةً ، وَلَمْ أَسْمَعْ لِمَالِكٍ فِيهَا كَلَامًا. وَقَدْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَرَى أَنَّ الرَّجُلَ إذَا زَنَى بِالْمَرْأَةِ ثُمَّ نَكَحَهَا أَنَّهُمَا زَانِيَانِ ، مَا عَاشَا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: " أَوَّلُهُ سِفَاحٌ وَآخِرُهُ نِكَاحٌ ". وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ مِثْلَهُ. وَقَالَ: " هَذَا مِثْلُ رَجُلٍ سَرَقَ ثَمَرَةً ثُمَّ اشْتَرَاهَا " ، وَأَخَذَ مَالِكٌ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، فَرَأَى أَنَّهُ لَا يَنْكِحُهَا حَتَّى يَسْتَبْرِئَهَا مِنْ مَائِهِ الْفَاسِدِ[166]».

كما وجه أيضا احتمال لفظ النكاح في الآية على معنيين ، إما الوطء أو العقد ، وإن أريد به الوطء كما قال ابن عباس فهو معنى صحيح.

أما أن الآية منسوخ بقوله تعالى: وَأَنكِحُواْ لأَيَمَى [النور: 32]. اعترض عليه ابن العربي وبين أنها «ليس بنسخ ، وإنما هو تخصيص عام ، وبيان لمحتمل ، كما تقتضيه الألفاظ ، وتوجيه لأصول ، من فسر النكاح بالوطء أو بالعقد وتركيب المعنى عليه[167]».

وعموما ، فإن تزويج الزانية على وجهين:

«أَحَدُهُمَا: وَرَحِمُهَا مَشْغُولٌ بِالْمَاءِ الْفَاسِدِ. الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ قَدْ اُسْتُبْرِئَتْ. فَإِنْ كَانَ رَحِمُهَا مَشْغُولًا بِالْمَاءِ فَلَا يَجُوزُ نِكَاحُهَا ، فَإِنْ فَعَلَ فَهُوَ زِنًا ، لَكِنْ لَا حَدَّ عَلَيْهِ ، لِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِيهِ. وَأَمَّا إنْ اُسْتُبْرِئَتْ فَذَلِكَ جَائِزٌ إجْمَاعًا[168]».

المطلب الثالث: البعد المقاصدي للفتوى:

يتجلى البعد المقاصدي في الفتوى في جوانب مختلفة؛ منها:

حفظ كلية النسل والنسب من جهة ، وذلك أن الزواج لما كان الطريق لحفظ النسل ، استلزم ذلك حفظه من الاختلاط والتعدي عليه بتحريم الزنا والأنكحة المحرمة ، وإيقاع الحد على مرتكبيه ، حفظا للفروج ، وحماية الأنساب من الاختلاط.

لأن حفظ النسل وتكثيره يستلزم حفظ نسبه ، وحفظ الفروج وعفتها التي هي وسيلة وجوده ، يقول الرازي: «وأما النسب فهو محفوظ بشرع الزواجر عن الزنا لأن المزاحمة على الأبضاع تفضي إلى اختلاط الأنساب

---

[165]) تفسير النسفي ، (487/2).

[166]) أحكام القرآن ، ابن العربي (338/3).

[167]) المصدر السابق ، (340/3).

[168]) المصدر السابق ، (339/3).

المفضي إلى انقطاع التعهد عن الأولاد وفيه التوثب على الفروج بالتعدي والتغلب وهو مجلبة الفساد والتقاتل[169]».

وقال ابن عاشور: «... لما كانت لفوات حفظه من مجموع هذه الجوانب عواقب كثيرة سيئة يضطرب لها أمر نظام الأمة وتنخرم بها دعامة العائلة، اعتبر علماؤنا حفظ النسب في الضروري، لما ورد في الشريعة من التغليظ في حد الزنا، وما ورد عن بعض العلماء من التغليظ في نكاح السر والنكاح بدون ولي وبدون إشهاد[170]».

ويتجلى **المقصد الشرعي في المنع من الزواج بالزانية المتجاهرة** والمستمرة بها؛ لما يقع فيها من الشك عند الولادة، وهذا مناف لمقصد الشرع من مراعاة كلية النسب، كما قال ابن عاشور: «فحرص الشريعة على حفظ النسب وتحقيقه، ورفع الشك عنه، نظر إلى معنى عظيم نفساني من أسرار التكوين الإلهي، علاوة على ما في ظاهره من إقرار نظام العائلة، ودرء أسباب الخصومات الناشئة عن المغيرة المجبولة عليها النفوس، وعن تطرق الشك من الأصول في انتساب النسل إليها والعكس[171]».

ومن ذلك أيضا **حفظ كلية العرض**؛ ويطلق على كل ما هو موضع للمدح والذم، وما يتميز به الانسان من حَسَب، أو شرف، فيشمل أبسط ما يمس الشرف، من لمز، وهمز، وتنابز، وسخرية إلى أعظمها وهو الزنى بإكراه، أو خدان، أو سفاح.

وزواج الرجل بزانية قد يُلحق به المعرَّة ويكون موقع ذم عند الناس، للنظرة التي ينظر إليها المجتمع للزانية، ويؤثر ذلك في عرضه.

كما أن **فيه عدم الكفاءة الدينية بين الزوجين**؛ لأن اعتبار الكفء في النكاح **من المقاصد المعتبرة** في النكاح، قال تعالى: " إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ " [البقرة: 232]، «والمراد بالمعروف في الآية هو الكفاءة، وفيها حق عظيم للأولياء، لما في تركها من إدخال العار عليهم؛ وذلك إجماع الأمة[172]».

وفي اشتراط الكفاءة حماية للأسرة وحفظ تماسكها ودوام سعادتها وتجنيبها أسباب الخلاف والشقاق، لأن التفاوت بين الزوجين قد يؤدي إلى فوات الانسجام بينهما وبالتالي ضياع الاستقرار والسكينة المطلوبة بين الزوجين، وذلك أن نفس الشريفة ذات المنصب قد لا تسكن لمن هو دونها مما يتسبب في العداوة والبغضاء والعار بين الرجل والمرأة من جهة وبين عائلتيهما من جهة أخرى، فكان النكاح الجاري على هذه الصفة قاصرا عن تحقيق حكمته ومقصوده، والقاعدة: **أن كل عقد لا يحصِّل الملكة التي شرع لأجلها لا يشرع**[173].

المطلب الرابع: البعد الاجتماعي للفتوى:

أما البعد الاجتماعي في الفتوى فيتجلى في الآثار الاجتماعية لفحش الزنا، والنظرة السلبية التي ينظر إليها المجتمع لمن يقوم بها، مما يؤثر سلبا في التوزان النفسي للشخص الفاعل، سواء في علاقاته الأسرية أو المجتمع.

---

169) المحصول في أصول الفقه، للرازي، (160/5).

170) مقاصد الشريعة الإسلامية، طاهر ابن عاشور، (240/3).

171) نفس المصدر، (237/3).

172) أحكام القرآن، ابن العربي (272/1).

173) الذخيرة في فروع المالكية، القرافي، تحقيق: محمد حجي، محمد بو خبزة، ط1، 1994، دار الغرب الإسلامي، بيروت (212/4).

وفي الحالة الراهنة أصبح الزنا عاديا في بعض المجتمعات؛ بسبب التغريب الذي لحق المجتمعات المسلمة ، وتأثير القيم والثقافة الغربية فيها ، بل من الغريب عند البعض السلامةُ منه ، والحذر على كل الذرائع التي تؤدي إليه ، حتى يصبح الشخص أحيانا موضع استغراب ، وهذا شائع في كثير من المجتمعات المسلمة. ونتج عن هذا أنواع من الأنكحة الحديثة كالزواج العرفي ، وزواج الأصدقاء (فيرند)؛ لأنه اشتهر في الغرب ما يسمى بالعشيق والعشيقة ، وهو الصديق المعاشر معاشرة الأزواج حتى أصبح أمرا عاديا بل أصبح الفتى أو الفتاة الذين ليس لهم عشيق أو عشيقة يعد عند بعضهم مريضا نفسيا ، ومن الأسباب التي تسببت في انتشار وباء الزنا ، الجو الجنسي السائد ، وتعليم جنسي تحت مسمى الثقافة الجنسية مما أحال الحياة في بعض الدول غير المسلمة إلى حياة جنسية تظهر آثارها المدمرة في كل زاوية من زواياها.

ومن المعلوم أن كثيرا من الجاليات الإسلامية تعيش في بلدان غربية ، وهي بلا شك قد تتأثر ببعض قيم وأخلاق هذه المجتمعات ، وخاصة الجيل الناشئ في تلك الديار ، فإنه سيرى المغريات والمشاهد الجنسية تحيط به من كل اتجاه مما قد يضعفه وتخور قواه إذا ما استمر في كبت هذه الغزيرة ، ونفس الكلام يقال في الفتاة[174].

الثقافة المجتمعية السنغالية تجاه المرأة الزانية:

تُوجَّهُ للمرأة المعروفة والمشتهرة بالزنى في المجتمع السنغالي بأصابع الاتهامات والمعاملة الجافة من أقرب الناس إليها ، بل قد يصل أحيانا إلى التخلي عنها ، ويعاملن بفتيات الشوارع حيث لا تحظى بالاحترام ولا المكانة ، ولا تحصل على التعاطف الذي يغدقه المجتمع للمرأة السنغالية باعتبارها خارج الإطار الإنساني ، ويُطبّقُ عليها مفهومُ الآية "فَتَذَرُوهَا كالمعلقة" [النساء: 129] ، فتعيش في برجها العاجي ، بعيدة عن العالم الإنساني؛ ما يدفع البعض أحيانا إلى الانتحار للتداعيات النفسية التي تعاني منها. فإنه رُغم التغريب وانتشار الثقافة الإباحية والحريات الجنسية ، فإن المجتمع السنغالي لازال متمسكا بعاداته وثقافته العتيدة ، وقِيَمه النبيلة؛ بالرفض عن كل سلوك يحط عن قيمة الانسان ، ويضر على مؤسسة الأسرة والمجتمع.

ومن المهم ، التعرف على الأسباب التي تدفع المرأة إلى الولوج في هذا العالَم. ونظرا للظروف الصعبة التي تعيشها الطبقة الفقيرة ، قد تدفع المرأة -خاصة إن كانت مسؤولة عن الأسرة[175]- إلى العثور على عمل - كيفما كان نوعه- لسد حاجياتها. لذلك ، فإن الأسباب تتجاذبها تداعيات اجتماعية واقتصادية وسياسية. ويكون بذلك الدور للجهة الدينية التدخل في الخط بالتوجيه والإرشاد لوضع حدّ لها.

ومن آثار الاجتماعية للزنى خارج العلاقة الزوجية؛ أنه يُبعِدُ وظيفةً اجتماعية مهمة للزواج والأسرة ، وهو «وظيفة الضبط الاجتماعي للشهوات والسلوك

---

[174]) النوازل المعاصرة في فقه الأسرة ، عبد الله بن محمد الطيار ، ط1 ، 1433هـ / 2012م ، مدار الوطن للنشر ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، (11/30-31).

[175]) ويظهر من هذا تعدد أوجه البنية الاجتماعية للمرأة السنغالية في بعض العائلات الفقيرة.
ينظر: وضعية البنية والجندر: تعدد أوجه البنية الاجتماعية للمهاجرة السنغالية دراسة سوسيو أنثروبولوجيا للمهاجرين/ات السنغاليين/ات بسوق الحي الحسني بالدار البيضاء ، أقدم أمينة ، مقال ، مجلة الإفريقية للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد:2 ، 2022م ، (ص:90-116).

الجنسي والعاطفي التي يعرفها المصطلح الإسلامي بمفهوم الإحصان بمعنى توفير إطار اجتماعي قانوني شرعي؛ لإشباع الرغبة الجنسية الطبيعية ، ولممارسة العلاقات الجنسية المسؤولة ، وما يترتب عليها من نتائج مثل الإنجاب ، بما يوصد الأبواب أمام الفوضى الجنسية التي يفضي تفشيها إلى نتائج سلبية على الفرد والأسرة والمجتمع ، ولعل هذا ما عبر عنه الذكر الحكيم بقوله: وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلا [الإسراء: 32]"[176].

كما أن التطور الهائل في المجال الطبي رافق معه إمكانية ترميم العذرية لدى المرأة ، بحيث تستطيع القيام بكل وسائل الزنى ، دون ترك أي أثر فيها ، وهذا من الأزمات التي يعانيها مجال الأسرة.

وقد أثرتْ في هذا دعاوى الحركاتِ النِّسْوِيّة بحق الحرية الجنسية ، التي تتمتع بقبول وتأييد كبير على مستوى المجتمع لأنها تنسجم مع السياسات الليبرالية العامة (الخطاب السياسي المسيطر على الغرب) ، وفي النتيجة تركت أثرا أكبر في نظام الأسرة.

وقد أدت الحرية الجنسية للنساء ، وتجويز العلاقات الجنسية خارج إطار الأسرة للنساء واعتبارها شرعيا ، أضرارا على الأسرة وخاصة على نفس النساء ، حيث تشير دراسات علم الاجتماع إلى ما يلي:

1- إن احتمال الزواج بالنسبة للثنائي اللذين كانت بينهما حياة مشتركة أقل من غيرهما ، كما أن نسبة طلاقها أعلى.

2- تؤدي الحرية الجنسية والإباحية عند النساء إلى تقليل قيمتهن في نظر الرجال ، وتقلل رغبة الرجال فيهن.

3- في نفس الوقت الذي تُشَوَّهُ فيه الحريةُ الجنسية سُمعةَ الشابات ، تؤدي كذلك إلى التخيلات الجنسية والاعتداء عليهن من قبل الرجال ، وإلى تركهم للأعراف والآداب وقواعد السلوك الجنسي عند التعامل مع النساء.

4- تؤدي الحرية الجنسية لدى النساء إلى تزايد العائلات أحادية الوالد (الأم مع الابن)؛ لأن الوصول الأكبر إلى أساليب منع الحمل أو الإجهاض يمنع الخوف من الحمل بدون زواج ، باعتباره عاملا يمنع من العلاقات الجنسية الحرة.

5- أدت الحرية الجنسية لدى النساء إلى انخفاض معدل الزواج؛ لأن الوصول السهل من قبل الرجال إلى النساء اللواتي لا يمانعن بالعلاقات الجنسية قبل الزواج ، يزيل الدافع لدى الرجال للقبول بطلب النساء اللواتي يطالبن بالزواج في إزاء علاقة جنسية؛ والأمر الآخر هو أن الشباب الذين يتمكنون من التمتع بالعلاقات الجنسية بدون مسؤوليات الزواج ، يؤخرون الزواج أو يصرفون النظر عنه تماما[177].

خاتمة

من خلال هذه الدراسة توصلت إلى نتائج أهمها:

---

[176]) من النكاح إلى الزواج نحو تعريف اجتماعي للزواج في الفقه الإسلامي ، د. أماني صالح ، مقال ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد:165 ، رمضان 1441هـ / أبريل 2020م ، (ص:319).

[177]) فيمينزم (الحركة النسيوية) مفهومها ، أصولها النظرية ، وتياراتها الاجتماعية ، نرجس رودكر ، تعريب: هبة ضافر ، ط1 ، 1440هـ / 2019م ، بيروت ، لبنان ، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، (ص:356-357) باختصار.

من أهم الجوانب الفقهية التي برز فيها تميز الشيخ الخديم باب النوازل، فقد أفتى في أبواب كثيرة من الفقه، خاصة باب الأحوال الشخصية، فكانت له فيه فتاوى عديدة لكثرة السؤال عنها ولتعلقها بالحياة العامة، فيتجه الناس إليه عند حلول الحوادث للاستفتاء.

كان منهجه في الفتوى متميزا، اتبع فيه سلفه من المالكية، يعتبر الأعراف والعادات، ويسد الذرائع، ويراعي المصالح والمفاسد، ويفتي بما جرى به العمل...

تضمنت فتاواه في فقه الأسرة مجموعة من القواعد والمصطلحات المقاصدية التي أعملها فيها، والتفت إليها عند إصدار الفتوى، كالضروريات الخمس، وقواعد رفع الضرر، والمصالح والمفاسد... مما يدل بوضوح توفره على فكر مقاصدي وفقه مصلحي أسس عليه فتاويه.

كان يطبق النظر المقاصدي في كثير من فتاويه في فقه الأسرة، واستحضره بشكل كبير، بالتوضيح أحيانا وبالتلميح أحيانا أخرى.

تمر الأسرة المسلمة في السياق المعاصر بمجموعة من التغيرات بسبب الأفكار الغربية الغريبة تجاهها، عبر المواثيق والمعاهدات الدولية التي تصدر من المؤتمرات، والتي تحاول نسف الأخلاق وإحلال الإباحية بدعوى الحرية.

استطاع الشيخ الخديم استنادا إلى روح الشريعة ونصوصها وقواعدها العامة معالجة جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية؛ مما يدل مرونة الفقه الإسلامي عموما، والفقه المالكي خصوصا، واستطاعته مسايرة الركب الحضاري على مر الزمن، وبطلان دعوى كون الفقه الإسلامي فقها جامدا لا يصلح لأن يطبق على الواقع.

المصادر والمراجع

أحكام القرآن، ابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2004م.

فيمينزم (الحركة النسيوية) مفهومها، أصولها النظرية، وتياراتها الاجتماعية، نرجس رودكر، تعريب: هبة ضافر، ط1، 1440هـ / 2019م، بيروت، لبنان، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

الذخيرة في فروع المالكية، القرافي، تحقيق: محمد حجي، محمد بو خبزة، ط1، 1994، دار الغرب الإسلامي، بيروت

مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، الحطاب، دار الفكر، ط3، 1412هـ/1992م.

من فتاوى الشيخ أحمد بامبا امباكي وأجوبته ونوازله، جمع ودراسة وتحقيق: عبد القادر بوسو، مراجعة: دائرة روض الرياحين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1441هـ/2019م.

من النكاح إلى الزواج نحو تعريف اجتماعي للزواج في الفقه الإسلامي، د. أماني صالح، مقال، مجلة المسلم المعاصر، العدد:165، رمضان 1441هـ / أبريل 2020م،

مقاصد الشريعة الإسلامية، طاهر ابن عاشور، دار السلام، ط8، 1439هـ / 2018م

النوازل المعاصرة في فقه الأسرة، عبد الله بن محمد الطيار، ط1، 1433هـ / 2012م، مدار الوطن للنشر، المملكة العربية السعودية، الرياض

مدخل إلى النظرية التكاملية في تراث الشيخ محمد البسوبي: (المشهور بالحاج امباكي بوسو)

بقلم الباحث سرين مود بوسو مأمون[178]

توطئة:

أضحت منهجيةُ التكامل بينَ العلومِ والمعارف ضرورة ذاتَ أهميَّةٍ في الميثودولوجيا المعاصرة، لا سيما عند دعاة التجديدِ في الفكرِ الإسلامي المعاصر، بل كانت عملية التداخل المعرفي الداخلي والخارجي بين تلكَ المعارفِ عمليةَ ممارسة بالسليقة في التراث الإسلام. ومن النماذج الظاهرة لذلك ما نجده بوضوحٍ في كتابات العلامة السنغالي الحاج امباكي بوسو، حيث حاولَ تقريبَ هذه المنهجية —التكامل المعرفي- التي يسعى الفكر الإسلامي المعاصر لتفعيلها في تراثه. فمقاربته في محاولةِ تقريبِ علمِ المنطقِ أو السياسة، أو الاجتماع الانساني، وغيرها من المعارفِ إلى مجال الفكر الإسلامي، مقاربة تستحق أن تسترعي انتباه الباحثينَ في هذا الحقل. ولا شكَّ أن الرؤيةَ التي يتبناها العلامة البسوبي رؤية توحيدية كونية أساس استمدادها من اللّه والكون المنظور، إذ أن معرفة اللّه هي أساس كل معرفةٍ لديه، لأن فكرةَ التوحيد —عندَ المسلمين- تتغلغل في كاملِ الوجودِ الانساني: فالتوحيدُ يستغرق كل جوانبِ الوجودِ والحياة، لأنَّ مبدأ التوحد والتكاملِ في فهم علاقات الكون والحياة حيثُ الإخاء فطرة إنسانية والغائية والأخلاقية والإعمار، وهيَ أيضًا مسؤولية سلوكية اجتماعية إنسانية، كما أن بناء الكون والحياة والإنسان، وحدة في تنوعٍ متكاملٍ. ومن هذا المنطلق التكاملي؛ يلحظُ المتأمل في تراث العلامة الحاج امباكي بوسو بأنه يشكل القطيعةَ الابستمولوجية في أطروحاته، سواء ما يتعلق بمنهجه في معالجة الاشكالات والقضايا التي يتطرق إليها، أو بتبنيه روحا نقديةً في بعض المواقف. لقد كانَ واعيًا بأن كلَّ الشعوبِ تفكرُ بتراثها، ولكنَّ هناك فرقا واسعِ جدا بين من يفكر بتراث ممتدٍ إلى الحاضرِ، ويشكل الحاضرُ جزءًا منه، تراث متجدد يخضعُ باستمرارٍ للمراجعة والنقدِ والتهذيب، وبينَ من يفكر بتراث توقف عن النمو منذ قرونٍ، تراث تفصله عن الحاضرِ مسافة علميةٌ طويلة. لذلكم يعدُّ تراث نموذجا في تجسيد قضيةِ النظريةِ التكاملية في العلوم، إذْ لم يترك فنًّا من الفنونِ التي كانَ يتداولهَا أهلُ عصرِه إلا وتكلَّمَ فيه بطريقة يخدم بعضه البعض، فمؤلفاته كلها على اختلافِ شُعَبِها تصب في قالَبٍ واحد، وتَهدفُ إلى مقصدٍ واحدٍ، وهوَ ضبط الرؤية الكونية وبوصلتُها معَ التوجُّهِ المعرفي الذي يخدم العلمَ الشرعي. هذا بالإضافةِ إلى جرأته في النقد الذي به يمتازُ عن علماءِ عصره، لذلك لَا غروَ عندَمَا نجده يوجِّه انتقادات لاذعةً إلى بعض المؤلفات التي كانت شائعة في عصره، إما من ناحية المضمونِ أو المنهجِ، من ذلكَ **قضية القبلة** والمشكلة التي كان يعاني منها أهل القطر السنغالي. وعليه، فَلأهميّةِ ما سَلَفَ ذكرُه يتجلَّى في الواقعِ بأنَّنا في أمسِّ الحاجةِ إلى استعَادَةِ الروح التكاملي بين العلوم، والمعارف التي كانت لدَى سَلَفنَا والتي أهلتهم إلى الإبداعِ والارتقاءِ بالعلمِ والمعرفةِ وبالأمةِ والدينِ، وذلك ما اخترنَا له بهذه المنَاسبةِ رمزًا من رموزِ هذهِ الموسوعيَّةِ في تاريخ تراث السنغال، وهو العلامة الحاجِ امباكي بوسو الغدوي رضي اللّه عنه.

1) مظاهرُ التكامل المعرفي عند الحاج امباكي بوسو

إنَّ ما أسميه **(القارئ السنغالي المعاصر)** يعيشُ تحت ضغط الحاجةِ إلى مواكبة التطورات المُعاصرة،

[178] طالب باحث بجامعة محمَّد الخامس / الرباط

لكن العصرَ يهرب منه ، إلى مزيد من تأكيد الذات **(الرجوع إلى التراث)** ، إلى إيجادِ حلول سحرية لمشاكله العديدة المتكاثرة ، لذلك عندما نعمق النظرَ في تراث هذا الجهبذ نجده كأنه يحمل نفس الإحساس تجاه تراثنا المنسي ، لذلكَ ، شمَّرَ عن ساعدِ الجدِّ وأضافَ إلى هذا التراث الشيءَ الجديدَ ، وألف عدة تواليف ، واستنبطَ من العلوم التي كانت شائعة في عصره نكتًا وفوائد لم يسبقه إليها أحد من أهلِ عصره كما ذكر ذلكَ ابنُه ومؤرخه الشيخ محمد البسوبي[179]. وبالتالي فمن خلال ملاحظة أولية في هذا التراث؛ يتجلى **أن قضية التكامل المعرفي بين العلوم** يحتل موقعا مرموقا ضمنَ **منظومةِ التصنيفِ** في تراث الشيخ امباكي بُوسُو. وكانَ يتحلَّى بموسوعية نادرةٍ واطلاع كبيرٍ على علومِ عصرِه وثقافته ، بل على حياةِ الناسِ وأفكارِهم ، اطلاع نابع على احتكاكٍ وممارسةٍ لا عن سؤال واستفسار ومتابعةٍ من بعيدٍ ، ولذلك لما ذكر الشيخُ محمَّدٌ البسوبي تضلعَ العلامة البسوبي في العلومِ النقلية والعقلية عقَّبَ ذلكَ بقوله: (فَقَدْ أَدْرَكَ مِنْ ذَلِكَ بِتَكْرَارِ التَّجَارِبِ وَطُولِ الْمُمَارَسَةِ مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ[180]) ، وإذا مَا عرفْنَا بأن الشيخَ يتكلَّم نحوَ عشرينَ علْمًا ، فإنَّه لَا شكَّ أنَّ هذه العلوم تتركّبُ وتتفاعلُ ضمنَ نسقٍ واحدٍ ، بحيثُ يغني بعضها بعضا ، ويقوِّم بعضُها البعضَ الآخرَ. وأقولُ بأنَّ هذا **المنطقَ التكاملي** ينفي كثيرًا من أوجهِ القصورِ والغلو وأحادية النظرِ والوجهةِ ، وسواءٌ تعلق الأمر هنا ، بالعلومِ الانسانيةِ أو بالعلومِ العقلية ، أو بالعلومِ الدينيةِ؛ فإن التكاملَ بينها ، واندماج معارفها ، يبقى أمرًا لا مفرَّ منه لكي تكون العلومَ نافعة للناسِ ، تجلبُ لهم المصالحَ وتدفعُ عنهم المفاسدَ وليسَ العكسُ.

لقدْ أحسَّ الشيْخُ امباكي بوسو بالحاجةِ الملحَّةِ إلى ضرورةِ **استعادة النظام الكلِّي المندمج والمتكامل للعلومِ** ، إذ لمْ يجد حرجًا ولا مانعا من أن يكونَ الفردُ عالمًا بالدين وبالرياضيات ، والفلكِ والسياسةِ والمنطق والحكمةِ... ، وغير ذلكَ من العلوم التي تُرجمَ معظمها إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغات الغربية بعد ذلكَ لتكونَ جزءًا مُهِمًّا من نهضةِ الغرب ، ذلك باعتبارِ أن هذه العلوم كلها تساعدُ على فهمِ النصِّ الشرعي الذي هوَ الأصلُ عنده. لذلكَ فمنَ الأهميةِ بمكان الإشادة هنَا بأن قضية التكامل عند العلامة البسوبي لمَّا نتأمل في تراثه نجدها لا تخرجُ عن ما نسميه **بمصادر المعرفة" في الإسلامِ** وهيَ: **العقلُ والنقلُ** ، فهوَ يَرجعُ إلى هذين الأصلين ويتمسَّكُ بهما في جميعِ مؤلفاته. بل ويستعمل القواعد الأصولية لاستنباط ولحسم حكم معينٍ إن اقتضت الحاجةُ لذلك ، كما فعلَ في **مسألة عدد الآي** ، والخلافُ الحاصلُ فيها في مصاحفِ أهلِ القُطر السنغالي: حيثُ يقولُ "وَعَلَى هَذَا الْأَخِيرِ بِحَسَبِ الْاِسْتِقْرَاءِ وَجَدْنَا إِجْمَاعَ مَصَاحِفِ سَلَفِنَا[181]". ويقصدُ بقوله **"وعلى هذا الأخيرِ"** بقول **شَيْبَةَ** في عدِّ الآيِ. كما أنَّ مؤهلاته العلميةَ وما يملكه من ذكاءِ القريحةِ وحسنِ الاستنباطِ لا تمنعُه من العدولِ عنِ الاجابةِ إذا ظهرَ لهُ أن ذلكَ أنسبُ ، كَمَا وردَ في إحدى فتاويه لمَنْ سأله عن الفرق بين الروح والروحاني والجسماني والجسدي؟ وما معنى قول الحلاج -قدس الله سره - ولدت أمي أباها ؟ وما معنى قول الحاتمي ـ نفعنا الله ببركاته: الحضرة المحمدية والحضرة الموسوية؟ وما

---

179 انظر: **ترجمة العالم النحرير والقطب الكبير** ، الشيخُ محمد البسوبي ، ضمن مجموعة من كتابات العلامة الشيخ امباكي بوسو ، جمع وإعداد سيدي بوسو مولاي ، 2008 ، (ص:11).

180 المرجعُ نفسه (ص:11).

181 **رسالة في فن رسم المصحف الشريف** ، المجموعة (ص:18)

تلك الحضرات وتفريقها ؟ ، فأجابه بقوله: (مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ[182]).

2) المفتي الحاج امباكي بوسو والمنهج التكاملي في العلوم والمعرفة

يلحظ المتأملُ والناظرُ في تراث الشيخ امباكي بوسو أنه تبنَّى فكرةً مفادها أن العلم دائرة واحدة كلية متسعة ، تندمجُ فيها علوم فرعية تتعلق بالنصِّ والأنفسِ والآفاق. ويرى بأنه لا خصومةَ بينَ العلوم والمعارف أيًّا كانَ مصدرها؛ الدينُ أو العقلُ أو الواقعُ ، لأنها في نهايةِ المطافِ هي آياتُ النص والأنفس والآفاق الواجب التدبر والتفكر فيها. **ويكفي النظرُ إلى عناوين مؤلفاته لإدراك ذلك** ، كما تؤكِّد ذلكَ من ناحية أخرى قولةُ ابنه الشيخ محمد البسوبي؛ **كانَ يتكلَّمُ في نحوٍ عشرينَ علمًا.** ولقد اشتغلَ إلى جانبِ العلوم الشرعية التي اشتهرَ بها ، بالحكمةِ والمنطقِ ، وبالتاريخِ والجغرافيا والآداب ، وبالفلك والرياضيات والحساب ، وبالاجتماعِ الانساني والسياسة وغيرها ، ويتضحُ ذلكَ جليًّا عند ما نعرضُ نماذجَ من كتبه. ولَا جرمَ أن كلَّ هذه العلوم كانتْ له عونًا على حسنِ استثمارِ وفهمِ نصوصِ الدينِ ، ودربة وقُدرة على النقدِ والموازنةِ والترجيحِ ، بلْ وعلى الإبداعِ في العَطَاءِ المتجدِّدِ.

ولعلَّ تلكَ العقليةَ — عقلية الازدواجية والتكاملية في المعارف- هي التي أثرتْ من ناحية أخرى على المدرسةِ الْكِدْوِيَّةِ العريقةِ التي كانَ يشرف عليها ، إذ كانتْ معروفةً بمزاوجتها بينَ الكثيرِ من العلوم بمختلفِ شعبها؛ الدينيَّةِ ، والفيزيقية ، والطبيعية ، والانسانية. ويعضِّدُ ذلك ما ذهبَ إليه تلميذُه المؤرخُ والأنثروبولوجي شيخ أنت جوب ، فيما نقله عنه الباحث شيخ تيجان سه ، إذْ يقولُ منوِّهًا لهذه المدرسة: (كَانُوا يَهْتَمُّونَ بِالرِّيَاضِيَاتِ وَمِيكَانِيكَا الْعِلْمِيَّةِ وَتَرْمُودِينَامِيكْ وَخَاصَّةً فِي مَقَايِيسِ الْوَقْتِ ، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ كَانَتْ مُرْتَبِطَةً بِضَرُورَةِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لَهَا[183]) .

وَلَقدِ اكتَسَى الشيخُ امباكى بوسو هذهِ الخاصيَّةَ —خاصية التكاملية- من جهة اشتغاله بالعلوم العقليَّةِ والنقليَّةِ معًا ، لذلكَ يطغى على تراثِه طابعٌ تعددي منسجم ومتكامل ، فقد كانَ بحقٍّ فقيهًا ، مصلحًا اجتماعيًّا ، مؤرِّخا ، جغرافيًّا ، نَسَّابًا ، شاعرًا ، فرَضِيًّا ، فلكيًّا ، عالمًا بالرياضياتِ والحساب. وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على كونِ تراثِ أسلافنَا حافلا بالمادة العلميّة من مختلف الشعاب ، حيثُ كانُوا يتطرقونَ إلى كلِّ شيءٍ ، ويتدخلونَ في الحياةِ الاجتماعيَّةِ وشؤونِ العامَّة. وعلى هذا الأساس ، فالمتأمِّلُ في النوازلِ والفتَاوى التي كانَ يجيبُ عليها العلامة البسوبي يدركُ مدى تمكنِّه من الفقهِ الاسلامي ، مع ارتباطه الوثيق بالمذهبِ المالكي ، ومن جهةٍ أخرى يدرك دقةَ معرفته بالتفاصيلِ مع اختيارِ الأنسبِ منَ الآراءِ ما يناسبُ أوضاعَ شعبِه وخصوصيةَ وطنه ، إذ النوازل تمثِّلُ جانبًا من الفقهِ متفاعلة مع الحياةِ المحليَّةِ لمختلفِ المجتمعاتِ ، لذلكم ، فهوَ لمْ يكنْ فقيهًا ومفتيًا منعزلًا عن الحياةِ الاجتماعية ، بلْ كانَ أعرفَ الناسِ بأحوالهم وشؤونهم ، وقدْ كانَ يأخذُ هذا بعينِ الاعتبارِ في مؤلفاته وفتاويه. وقد كانت هذه النظرة التكاملية إحدى مميزات التراث الإسلامي ، كما أشار إلى ذلك طه عبد الرحمن بقوله: " كما أنه لا بدع في أن تؤثِّرَ هذه العلومُ بعضها في بعض ،

---

182 **أجوبة في النحو والفقه والتفسير ، المجموعة** (ص:121).

183 **La confrérie senegalaise des mourides**, Cheikh Tidiane Sy (P : 137) .

فتنتقلُ على سبيل المثال أوصاف الدليل من المنطق إلى علمِ الكلام ، قم منها إلى علم الأصولِ فإلى علمِ البلاغة ، وتتلونُ هذه الأوصاف بلونِ كل علمٍ من هذه العلوم ، ثم تنتقلُ هذه الأوصاف بألوانها المختلفة من علمٍ إلى آخرَ ، كأنَ يعرضَ الدليل في علمِ المنطق بلونِ علم الكلام ، أو علمِ الأصول ، وقد تجتمعُ الألوانُ المختلفةُ للدليلِ في علمٍ واحدٍ ، وما هذا وذلك إلا لأن التراث الإسلامي ، العربي ينزعُ نزعة تكاملية ظاهرة يكادُ ينفردُ بهَا عن غيرهِ[184]".

ولَتبنيه **منهجيةَ التكامل المعرفي النقدي** ، تجده يبرهنُ كثيرًا في مقدمات مصنفاته بأنه لا يُلزمُ نفسَه بتقليدِ ما وجد عليه من سبقوه دون الالتفات إلى الحقِّ حيث ما دارَ ، من ذلك ، قولُه في مقدِّمة كتابه: "**رِسَالَةٌ فِي فَنِّ رَسْمِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ**" لَمَّا يندِّدُ التقليدَ الأعمى الذي كانَ يتمسَّك به أهل قطره السنغال في جميع المجالات لغيرهم فيمَا يخالفُ خصوصيَّة وطنهم لا سيَّما في الأمورِ الدينيَّة ، يقول: (وَرَفَضْنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مُتَأَخِّرِي هَذَا الْقُطْرِ مِنِ الْتِزَامِ مُعَيَّنٍ ، دُونَ الدَّوَرَانِ مَعَ الْحَقِّ ، كَمَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ بَعْضُ مُحَقِّقِيهِمْ كَتِلْمِيذِ جَدِّنَا الْأَعْلَى الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِ امْبَاكِي)[185]. وعلى نفسِ المنوالِ يسلكُ في ما يتعلقُ بمصنفاته الأُخَرِ ، حيثُ نجده يرجحُ ويقررُّ ويخالفُ -ان اقتضت الحاجةُ- ما كانَ عليه السواد الأعظم من المغاربة الذين كان يرجع إليهم ممَّن قبله من علماءِ عصرهِ ، لذلك يحرِّر في كتابه " **يَوَاقِيتُ الصَّلَاتِ فِي تَقْرِيبِ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ**" أوقات الصلاة والسحور والفطور ، من غيرِ اعتمادٍ على أدلَّة استدلَّ بها أهلُ قطرٍ لا يشاركُ القطر السنغالي في أعراضٍ ولا في أطوال. ويقولُ في كتابه: "**القبلة وكيفية الاستدلال عليهَا لأهل القطر السنغالي**" "الذي يَنْبَغِي لِعُلَمَاءِ كُلِّ قُطْرٍ أَنْ يَجْتَهِدُوا لِخُصُوصِ قُطْرِهِمْ وَلَوْ تَقْرِيبًا فِي الْمُتَوَجِّهِ نَحْوَهَا بِالدَّلَائِلِ الْمُقَرَّرَةِ فِي الشَّرْعِ الشَّرِيفِ الدَّالَّةِ عَلَى الْجِهَةِ ، كَالْفَجْرِ ، وَالشَّفَقِ ، وَالشَّمْسِ ، وَالْقَمَرِ ، وَالنُّجُومِ ، مِنَ الْقُطْبِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الطَّالِعَةِ وَالْغَارِبَةِ عَلَى سَمْتِ الْكَعْبَةِ ، وَكَالرِّيَاحِ الشَّرْقِيَّةِ ، أَوِ الْجَنُوبِيَّةِ ، أَوِ الشِّمَالِيَّةِ ، أَوِ الْغَرْبِيَّةِ[186]". ويواصلُ أيضا ناقدا "بَعْدَ مُبَاحَثَةٍ لَطِيفَةٍ وَمُذَاكَرَةٍ ظَرِيفَةٍ فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ وَكَيْفِيَّةِ الْاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا لِأَهْلِ هَذَا الْقُطْرِ السِّنْغَالِي وَمَا قَارَبَهُ الَّذِي غَلَبَ عَلَى أَهْلِهِ الْجَهْلُ وَتَلَاشَى مِنْ بَيْنِهِمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ ، فَلَا تَكَادُ تَرَى مَجْلِسًا حَافِلًا يَتَّفِقُ مَنْ ضَمَّهُمْ عَلَى قِبْلَةٍ وَلَا مَسَاجِدَ قُرَى مُتَقَارِبَةً عَلَى مِحْرَابٍ وَاحِدٍ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّحِدُوا فِي مِلَّةٍ ، بَلْ إِمَّا مُتَيَامِنٌ مُفْرِطٌ أَوْ مُتَشَائِمٌ مُفْرِطٌ. وَإِذَا بَحَثْتَ عَلَى مُعْتَمَدِ أَكْثَرِهِمْ فَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى ظُلُمَاتٍ بَعْضِهَا فَوْقَ بَعْضٍ. بَلْ رُبَّمَا يَسْقُطُ بِكَ الْبَحْثُ إِنْ تَمَادَيْتَ عَلَى سَرْحَانٍ ضَارٍّ ، إِنْ سَلِمْتَ أَوَّلًا مِنْ أَظْفَارِهِ بِالنَّبْشِ فَلَا تَسْلَمُ ثَانِيًا مِنْ أَنْيَابِهِ بِالْعَضِّ[187]". وقدْ استخدمَ هذه الرؤيةَ النقدية في تبنِّيه لقضية التكاملِ والانسجام بين العلوم ، مؤطرا أن مقاصد المعرفة باعتبارها تكليفا إنسانيًّا متحدةُ الاتجاه ، وكأنه بذلك يسلُك مناهج علماءِ المسلمينَ المجددين الذين نفوا ثنائيةَ النقلِ والعقلِ[188] (أي العلوم الدينية والعلوم الانسانية أو العقلية) باعتبارِ أنها دخيل على جسمِ الثقافة الانساني وليست أصلًا فيهَا ، بل إنَّ

---

184 **اللسان والميزان أو التكوين العقلي** ، طه عبد الرحمن ، بيروت-لبنان ، المركز الثقافي العربي ، 1998م ، (131).

185 **رسالة في فن رسم المصحف الشريف** ، المجموعة (ص:17)

186 **القبلة وكيفية الاستدلال بها لأهل القطر السنغالي** ، المجموعة (ص:100)

187 انظر: المجموعة (ص:98).

188 أمثال الإمام الغزالي وابن رشد.

الأصل في العلوم التكامل والانسجام وليس التقابل والخصام، وإن كانَ هنالك من تقابلٍ أو تعارضٍ فذلك متوهّم ينبغي تقويمه وليس إلغاء الأصل. وما ذُكرَ يؤكّدُ بأن الشيخَ امباكي كانَ جامعًا للعلوم نقولِها وعقولها، وقد تجسَّدَ ذلك في تراثه.

3)موقف معاصريه الذي يؤكد بدوره المنحى التكاملي بين العلوم في تراثه

لنتوقف هنا قليلًا عند بعضِ النصوصِ التي ترجمت للعلامة الحاج امباكي بوسو والتي تبرزُ وتؤكّدُ بدورها هذا المنحى التكاملي في العلوم، ونقتصرُ على بعضها، وخصوصًا من الشيوخِ وتلامذته الذينَ عاصروه، ذلك أنَّ كلَّ من جاءَ بعدَهم نقلَ عنهم مع إضافات ليستْ مقصودة لدينا هنا.

ولنبدأ بما ورد في لسانِ مترجمه **العلامة الشيخ محمـّـد البسوبي** وهوَ من أدرى الناسِ به، يقول: "إِلَيْهِ انْتَهَتِ الرِّيَاسَةُ الْعِلْمِيَّةُ فِي عَصْرِهِ" وقال أيضًا: "وَكَانَ —أي الشيخ امباكي بوسو- يَتَكَلَّمُ فِي نَحْوِ عِشْرِينَ عِلْمًا[189]".

ونوردُ هنا نصًّا للعلامة الفلكي **عبد القادر بن محمَّد بن عبد القادر الكمليلي**، وهوَ يُقرِّظُ لكتاب الشيخِ امباكي بوسو في فن الرسم، و يشهدُ له ببلوغِ رتبة الاجتهاد، وهي رتبة يختص بها الأئمة الكبار، قال: ... "وَهِيَ رِسَالَةٌ تَدُلُّ عَلَى طُولِ الْبَاعِ، وَكَثْرَةِ الْاطِّلَاعِ، وَغَزَارَةِ الْمَادَّةِ، وَسُلُوكِ الْجَادَّةِ، وَغَايَةِ التَّحْقِيقِ، وَنِهَايَةِ التَّدْقِيقِ، وَكَيْفَ لَا ؟ وَمُؤَلِّفُهَا مَنْ لَمْ يَجِدِ الزَّمَانُ بِمِثَالِهِ، وَلَمْ يَنْسُجْ عَلَى مِنْوَالِهِ، **حَامِلُ رَايَةِ التَّحْقِيقِ فِي هَذَا الزَّمَانِ**...[190]".

وقد لقبه **الشيخ محمَّد البشير امباكي** "بِالْمُحَقِّقِ الْبُسُوبِي، عَالِمُ الْبَلَدِ وَمُفْتِيهِ[191]".

وكانَ **الشيخُ إبراهيم انياس** يراسله ويستفتيه في الكثيرِ من الأمور التي غَمُضَ واستشكلَ عليه، منها ما بعثه إليه يسأله عن أمرِ جده مام مصمبَ اتيام[192]. ويحكى أنه سافرَ ذاتَ يومٍ إلى بلادِ شنقيط فسُئلَ عن أكبرِ عالمٍ في السنغال فأجابَ قائلًا: "أن الذي يعرفه هو أن مفتيهَا هو العلامةُ الحاجِ امباكي بوسو".

وعن **الشيخِ العلامة محمَّد بن عبد الرحمان التندغي**: "فَإِنِّي لَوْ حَلَفْتُ أَنِّي مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ فِي التَّحْقِيقِ مَا حَنِثْتُ[193]".

وللشيخ امباكي بوسو **رحلة حج شهيرة** كان لها دور كبير في إغناء رصيده المعرفي، وفي صلاته وعلاقاته بالعلماء، وفي إغناء رصيده المعرفي الواسع بالمناقشة والمذاكرة مع العلماء في الفنون والعلوم المختلفة. ويمكنُ أن نذكرَ في هذه العجالة مناظرته مع الفلكي والمؤقّت الشهيرِ الشيخ خليفة النبهاني، حول أي يومٍ تسامتُ الشمس على الكعبة، فقال له النبَّهاني ما لا يقتنع به، لكنه في نفسِ الوقتِ لا يقدرُ على تكذيبه، فأقرَّ بكلامِ النبَّهاني منَ الحقيقة بمسافة

---

189 **ترجمة العالم النحرير والقطب الكبير**، الشيخُ محمد البسوبي، المجموعة (ص:11).

190 انظر(ص: 23).

191 **منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم**، الشيخ محمد البشير امباكي، بتحقيق د. محمد شقرون، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط، الطبعة الأولى، 2012م (ص:38).

192 انظر ملحق الرسالة من المجموعة (ص:204).

193 المجموعة (ص:96).

خمسةِ أيَّامٍ فقال: **"لعلَّ أهل مكة أدرى بشعابها"** ، ثمَّ بيَّن سببَ خلافهما وهوَ أن المسامتةَ تكون في يومٍ واحدٍ لكنها صالحة لمدة خمسةِ أيام. ويستفادُ من هذه المناظرةِ عدمُ التقليدِ لمنْ بلغَ رتبةَ الاجتهادِ إلا بدليلٍ مقنعٍ دامغٍ ، وعدم خضوعٍ لعالمٍ باعتبار مكانه ومقامه. كما ارتقى الشيخ امباكى بوسو إلى منزلة عاليةٍ برحلته الحجازيةِ والتي مرَّ فيها على مجموعةٍ من الدولِ من افريقيا واوروبا وآسيا ، وخاصة أنَّه لم يترك في هذه الرحلةِ لا صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها ، حيثُ كان فيها مثال الباحث المتضلع من ثقافات عصره في الأقاليم والعواصم التي زارها.

يجعل الشيخُ امباكي بوسو للعلم **غاية ومقصدا** ، وكل العلومِ في الواقعِ عندهُ لها نفس الغايةِ والمقصدِ أيا كان تخصصها وتعلقها بآيات النص ، أو آيات الأنفس ، أو آيات الآفاقِ. ويكفي أن تتأمَّل موقفهُ لما استشاره الشيخ الخديم هوَ ومجموعةً من كبار المريدينَ حولَ إنشاءِ المدرسة الفرنسيةِ في **"انْجَارِيمْ"** ، حيثُ تبنى فكرةَ أن **اللغةَ ليست غايةً وإنما هي وسيلةً فقط** ، وإذا حكمنَا على أبنائنَا في تربيتهم تربيةً إسلاميَّةً وتلقينهم العلومَ الشرعية ، لن يتمكَّن المستعمرُ من التصرُّفِ فيهم مهما فعلوا ، لأننَا سبقناهم إلى قلوبهم ، وبالفعلِ قد استحسنَ الشيخُ الخديم فكرتَه فأخذها. والواقع أن الشيخ امباكي بوسو بهذا الموقف يُجيبُ عن إشكالٍ كبيرٍ في العلومِ والمعرفة المعاصرة ، وهو فقدانها للوجهة والغاية وعدم قدرتها على التحرر من أسر التخصص الضيق الذي أنتج الأزمات والمشكلات التي غالبا مَا نقعُ فيها نتيجةَ تجاهلنَا ببعضِ العلومِ ، ويَقتنِعُ بهذا ، معانقةَ آفاق أرحب في تكامل العلوم مع بعضها من جهة ، وفي تطلعها وتشوفها إلى الحقائق الكبرى ، التي لا تعتبر تلك العلوم إلا دلائل عليها ، وعلى رأسها حقيقة الخالق الذي خلق الكونَ والكائنات التي هي محل هذا النظرِ من جهةٍ أخرى. لذلك مخطئ من يظنُّ أن فكرة الإبداعِ والابتكارِ محصورة على لغات أو فنون دون الأخرى ، وبهذه المناسبةِ كتب **الشيخ محمَّد البسوبي** ابن الحاج امباكي بوسو منتقدًا عقليةَ بعض الناسِ لمَّا خُيلوا أن علمَ الحسابِ لا يمكنُ تعلمها إلا باللغةِ الفرنسيةِ ، يقول في مطلع كتابه في **علم الحساب**: " هذه جملة شافية في علم الحساب وضعتها للمبتدئين في هذا الفن الذي رفعت راياته في هذا الأوان ، حتّى انصرفت إلى تعلّمه همم جل أبناء الزمان ، إلا أنهم لقصور الهمم وقلّة الاطلاع ظنّوا أن هذا العلم لا يمكن إتقانه إلاّ من لّغة الفرنسيين ، وطفقوا كلّهم أو جلّهم يتعلمونه منها حتّى أن البعض منهم ربّما ادعته المهارة فيه أولا إلى تعلّم اللّغة ثانيا دون داع سوى الذوق الذي لا تمالك معه غالبا في مهمات الأمور.."[194] ومن أجل هذا كله ، نجدُ الشيخ امباكي في تراثه كأنه يتحدث بلسانِ تصنيفه للعلومِ إلى: دينية ، وإنسانية اجتماعية ، وكونية عقلية ، فيعتبرُ أن الصلاحَ والاستقامةَ والرشدَ فيهَا لا يكونُ إلا من حيثُ ارتباطها باللّه تعالى واسترشادها بهديه وكأنه لما يصنف ينصب عينه أمام قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ﴾ **[فصلت ٥٣]** .

4) نماذج من كتب العلامة الحاج امباكي بوسو

وغرضنا هنا هو الاشارةُ إلى منهجِ العلامة الشيخِ امباكي بوسو في تكاملِ وتداخل العلومِ ، وخصوصا العقلية والنقلية ، وإلى نفَسِه الاجتهادي الإبداعي وعدم ركونه إلى التقليدِ والتكرارِ ، وإلى سعة اطلاعه ، وحسن تتبعه ووفائه وكريمِ خصاله مع من استفادَ منهم .

---

194 **كتاب الحساب** ، الشيخ محمد البسوبي ، المجموعة (ص:217).

في كتابه: **رسالة في فن رسم المصحف الشريف**، وهو كتاب يبينُ فيه ما كان عليه السواد الأعظمُ من اتباع الرسم العثماني. فقد نسجه على منوال العالم أحمد بن محمد بن أحمد بابا بن النجيب الحاجي وفقًا لمؤلفاته في علوم الرسم، كجوهر المنظم وشرحه، والمبين. إلا أنه خالف فيه الشيخَ الحاجي في ستة مواضعَ، وسببُ وضعِه هذا الكتابَ كما حقق ذلك ابنُه الشيخُ محمد البسوبي أن أهل هذا القطرِ كانوا يقتصرون على الرسمِ المتداولِ روايةً، ولا يلتفتونَ إلا أن ثم غيره راجحًا أو مرجوحًا، لذلك شمر عن ساعد الجد واجتهدَ حتَّى أظهرَ ذلك للطالبينَ. و قدْ وجَّهَ في هذا الكتابِ العلامةُ البسوبي نقدا لاذعا لمتأخري هذا القطرِ من التزامٍ معين دون الدورانِ مع الحق حيثُ ما دارَ. ولذلك يقول في هذا الصدد: "...وَمُرَادُنَا بِمُتَأَخِّرِي هَذَا الْقُطْرِ هَذَا الرَّجُلَ وَ أَضْرَابَهُ مِمَّنْ عَاصَرُوهُ وَمَنْ قَبْلَهُمْ بِقُرْبٍ. وَأَمَّا مَنْ أَتَى بَعْدَهُمْ فَلَا عِبْرَةَ بِجُلِّهِمْ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا تَعَلُّمَ هَذَا الْفَنِّ رَأْسًا وَاكْتَفُوا بِمَا تَلَقَّنُوهُ مِنْ أَفْوَاهِ مُعَلِّمِيهِمْ بَعْدَ أَنْ حَوَّلُوهُ إِلَى أَلْسِنَتِهِمُ الْعَجَمِيَّةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِي رَاجِحٍ وَمَرْجُوحٍ وَتَمْيِيزِ صَحِيحٍ مِنْ سَقِيمٍ، وَذَلِكَ نَحْوَ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ، وَخُصُوصًا مِنْ ظُهُورِ شَيْخِ أَجْدَادِنَا الْمُصَحِّحِ الشَّهِيرِ الشَّيْخِ مَصَنَّبَ جِيرِ. رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. فَلَمْ يَشْتَغِلْ بَعْدَ ظُهُورِهِ بِمُطَالَعَةِ كُتُبِ الرَّسْمِ إِلَّا أَفْرَادٌ مِنَ النَّاسِ اكْتِفَاءً بِمَا تَلَقَّنَهُ غَالِبُهُ عَنْهُ وَعَمَّنْ انْتَهَجَ نَهْجَهُ إِلَى الْيَوْمِ[195]". وفي الحقيقة فالرسالة كما يقول الشيخ العلامة عبد القادر الكمليلي تدل على طول الباع، وكثرة الاطلاع، وغزارة المادة، وسلوك الجادة، وغاية التحقيق، ونهاية التدقيق.

كتابه: **أمان البليد من خطرِ التقليدِ**، وهو كتاب في العقيدة، ويعد من أهمية الكتب التي أُلِّفتْ في العقيدةِ الأشعرية في القطر السنغالي، يضمُّ أبحاثا كثيرةً من أبواب علمِ الكلامِ. وينفي الشيخُ امباكي بوسو — ويظهر ذلك من خلالِ عنوانِ الكتابِ- مبدئيًّا عدمَ التقليدِ في أصولِ التوحيدِ، بحيثُ يجب على المكلف معرفتها كالإيمانِ باللّه وملائكته وكتبه ورسله والقضاءِ والقدرِ، وما يستلزم ذلك كله من مواصفاتٍ. فهوَ ينذرُ بالخطرِ في التقليدِ في هذه الأمورِ على غرارِ كبار المذهب الأشعري، كأبي الحسن الأشعري، والإمام أبي بكر الباقلاني، والإمام عبد اللّه السنوسي، لأن التقليدَ في العقيدة يؤدِّي إلى التخبُّطِ فيها، وذلكَ يؤدِّي إلى الشركِ باللّهِ. والكتاب واضحُ اللهجةِ سلس الأسلوبِ إذ لا يحتاج القارئ إلى كثيرٍ من العناءِ لفهمه، ولم يجعل له بابًا ولا فصلًا ولا مقدمةً، وإنَّما دخلَ في الموضوعِ مباشرةً على طريقة المتقدمينَ، وبدأه بقوله: "**اِعْلَمْ -وَفَّقَكَ اللَّهُ- أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلَّفِ، وَهُوَ الْبَالِغُ الْعَاقِلُ الذي بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ، إِنْسِيًّا كَانَ أَوْ جِنِّيًّا، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، حُرًّا أَوْ عَبْدًا، مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّوَ جَلَّ**[196]" ومن جهة أخرى، فالكتابُ جامعٌ ومانعٌ جاءَ ليسد ثغرةً كبيرةً في الجانب العقدي بأسلوبٍ مسبوكٍ بصفةٍ محكمةٍ، وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنَّما يدل على تمكن العلامة البسوبي وتبحره وطول عطنِه من العقيدة الأشعرية، وهو نبراس منيرٌ للمسلمِ لمعرفة عقيدته في التوحيد وترس منيعٌ لحمايةِ المؤمنِ من الانزلاقِ في وحلِ الشركِ.

في كتابَيْه: **مواقيتُ الصَّلاتِ في تقريب مواقيت الصلاة**، وكتاب **القبلَةُ وكيفية الاستدلال عليها لأهلِ القطرِ السنغالي**، وهما كتابانِ في علمِ الميقات ألفهما العلامة البسوبي خصيصًا لأهل القطرِ السنغالي. وقد

---

195 **رسالة في فن رسم المصحف الشريف**، المجموعة (ص:17).

196 **أمان البليد من خطرِ التقليد**، المجموعة (ص:34).

انبرَى إلى وضعِهما لمَّا لاحظَ أنَّ جلَّ من ألَّفوا في هذا الفنِّ من علماءِ عصرِه قلَّدوا غيرهم من أقطارٍ لا مناسبةَ بينهَا وبينَه في شيءٍ لا في الأعراضِ ولا في الأطوالِ ولا في الأوقاتِ ولا في الأحوال. وقدْ حرَّرَ **في الأوَّلِ** أوقات الصلاة والسحور والفطور من غير اعتماد على أدلة استدل بها أهل قطر لا يشارك هذا القطر في أعراض ولا في أطوال ،كما وقع لكثيرٍ ممن قبله ، فقد أدرك من ذلك بتكرار التجارب وطول الممارسة ما يبهر العقول كما ذكرَ ذلك الشيخُ محمَّد البسوبي[197].

أما الكِتابُ الثاني فقد وضعَ فيه الضوابط والقواعد الأساسيةَ لمعرفةِ القبلةِ لأهل وطنه خصِّيصًا دونَ الاعتمادِ على ضوابطِ غيرِهم ممَّن لا يشاركهم في المقياس. وفي الحقيقة ، يدركُ الناظرُ في هذيْن الكتابين عمقَ الحسَّ النقْدي والتجديدي الذي كان تكتنزُه شخصيَّةُ العلامة الحاج امباكي بوسو . وفي ذلك يقولُ في مطلع كتاب **يواقيت الصلات**: "إِنَّ هَذَا التَّقْيِيدَ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى- لِمَعْرِفَةِ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ بِالْمَجَانَاتِ الْمُتَدَاوَلَةِ تَقْرِيبٌ مَأْخُوذٌ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَكَرُّرِ التَّجَارِبِ ، لَا مِنْ مَوْضُوعَاتٍ أَجْنَبِيَّاتٍ تُوقِعُ فِي لَبْسٍ مُرِيبٍ ، لِكَوْنِهَا لَمْ تُوضَعْ لِخُصُوصِ هَذَا الْقُطْرِ السِّنْغَالِي وَلَا لِقُطْرٍ مِنْهُ قَرِيبٌ".

ولم يعتمد الشيخُ امباكي بوسو في تأليفهمَا على التجارب الأخرى من الأقطارِ الأخرى بل شمَّر عن ساعدِ الجدِّ فأخذَ يلاحظُ الشمسَ وقتَ طلوعه ووقتَ غروبه ، ما يربو على **نحوِ ثلاثينَ سنةً** فخلُصَ إلى نتيجةٍ أهَّلتْهُ إلى إنشاءِ ساعة محليةٍ تدور بالشمسِ ، ومعرفةِ أوقات الصلاة والصيامِ ، ومفاتحِ الشهور ، فأنشأَ لذلكَ جداول مهمةً جدا تنم عن الغاية في الدقة وطول الباع في علم الفلك. ولا زالت مزولتُه التي نصبها في قريته العريقة "**غيدي بوسو**" ، -وتوجد حاليا في الكثير من المدن السنغالية- صالحة إلى يومنا هذا يستعملها الناسُ في ضبطِ أو قاتهم. كما نلحظُ من خلال هذين الكتابين بأن **نفسَه الإصلاحي والتجديدي** هو الذي حفَّزه ودفَعَهُ إلى البحث في علم الفك حتى تبحَّرَ فيه ثمَّ ألف فيه فأجاد ، وكأن لسانَ حاله يقولُ آنَ الأوانُ لتجْديدِ هذا العلمِ في قُطرِنَا هذا ، وإصلَاحِ ما دخلَ فيهِ من الفسادِ والخُمولِ والاختلالِ مع التنبيهِ إلى طرقٍ ومناهج ذلك ، ولهذَا يقول: "بَلِ الذِي يَنْبَغِي لِعُلَمَاءِ كُلِّ قُطْرٍ أَنْ يَجْتَهِدُوا لِخُصُوصِ قُطْرِهِمْ وَلَوْ تَقْرِيبًا فِي الْمُتَوَجِّهِ نَحْوَهَا بِالدَّلَائِلِ الْمُقَرَّرَةِ فِي الشَّرْعِ الشَّرِيفِ الدَّالَّةِ عَلَى الْجِهَةِ ، كَالْفَجْرِ ، وَالشَّفَقِ ، وَالشَّمْسِ ، وَالْقَمَرِ ، وَالنُّجُومِ ، مِنَ الْقُطْبِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الطَّالِعَةِ وَالْغَارِبَةِ عَلَى سَمْتِ الْكَعْبَةِ ، وَكَالرِّيَاحِ الشَّرْقِيَّةِ ، أَوِ الْجَنُوبِيَّةِ ، أَوِ الشِّمَالِيَّةِ ، أَوِ الْغَرْبِيَّةِ[198]".

ولإبراز الجانبِ النقْدِي الذي تحدثنَا عنه سابقا ، نورد مقطعًا على طوله من مقدمة كتابة: القبلة وكيفية الاستدلال عليها لأهل القطر السنغالي ، والَّذِي يبين فيه الحافزَ الذي دفعه إلى وضع هذا المؤلَّف ، وكأنَّه يقولُ: " قمتُ لأستدرك هذا العلمَ الجليلَ الذي به قوامُ الأيام والشهور والأعوام ، وأوقات الصلاة والصيام حتى لا تتَّسعَ فجوةُ انْدِراسِه فنبْتعدُ النجعةَ عن قيامنَا وصيَامنَا ، يقول رضي الله عنه: "إِنَّهُ طَلَبَ مِنِّي بَعْضُ الْفُضَلَاءِ ، مِنَ الْأَصْدِقَاءِ النُّبَلَاءِ بَعْدَ مُبَاحَثَةٍ لَطِيفَةٍ وَمُذَاكَرَةٍ ظَرِيفَةٍ فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ وَكَيْفِيَّةِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا لِأَهْلِ هَذَا الْقُطْرِ السِّنْغَالِي وَمَا قَارَبَهُ الَّذِي غَلَبَ عَلَى أَهْلِهِ الْجَهْلُ وَتَلَاشَى مِنْ بَيْنِهِمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ ، فَلَا تَكَادُ تَرَى مَجْلِسًا حَافِلًا يَتَّفِقُ مَنْ ضَمَّهُمْ عَلَى قِبْلَةٍ وَلَا مَسَاجِدَ قُرَى مُتَقَارِبَةً عَلَى مِحْرَابٍ وَاحِدٍ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّحِدُوا فِي مِلَّةٍ ، بَلْ إِمَّا

---

197 **ترجمة العالم النحرير والقطب الكبير** ، الشيخُ محمد البسوبي ، المجموعة ، (ص:10).

198 **القبلة وكيفية الاستدلال بها لأهل القطر السنغالي** ، المجموعة (ص:98).

مُتَيَامِنٌ مُفْرِطٌ أَوْ مُتَشَائِمٌ مُفْرِطٌ. وَإِذَا بَحَثْتَ عَلَى مُعْتَمَدِ أَكْثَرِهِمْ فَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى ظُلُمَاتٍ بَعْضِهَا فَوْقَ بَعْضٍ. بَلْ رُبَّمَا يُسْقِطُ بِكَ الْبَحْثُ إِنْ تَمَادَيْتَ عَلَى سَرْحَانٍ ضَارٍّ ، إِنْ سَلِمْتَ أَوَّلًا مِنْ أَظْفَارِهِ بِالنَّبْشِ فَلَا تَسْلَمُ ثَانِيًا مِنْ أَنْيَابِهِ بِالْعَضِّ ، أَنْ أَكْتُبَ فِي ذَلِكَ حُرُوفًا يَسِيرَةً تَحْوِي مَنَافِعَ كَثِيرَةً يَنْتَفِعُ بِهَا اللَّبِيبُ الْمُنْصِفُ وَيُبْهِتُ بِهَا الْخَصْمُ الْمُعْنِفُ لِمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ فِي خُصُوصِ هَذَا الْمَحَلِّ الْمَذْكُورِ الَّذِي هُوَ بِأَنْوَاعٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْجُمَلِ مَغْمُورٌ إِذْ قَلَّ فِيمَا بَلَغَنَا مَـنْ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ مِنْ عُلَمَائِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ وَأَفَادَ أَوْ أَلَّفَ فَأَجَادَ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ إِنَّمَا يَسْتَدِلُّونَ بِدَلَائِلَ ظَفِرُوا بِهَا فِي مُؤَلَّفَاتٍ لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَقْطَارٍ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فِي شَيْءٍ لَا فِي الْأَعْرَاضِ وَلَا فِي الْأَطْوَالِ وَلَا فِي الْأَوْقَاتِ وَلَا فِي الْأَحْوَالِ ، فَاسْتَعْظَمْتُ ذَلِكَ وَاسْتَصْغَرَتْ نَفْسِي عَمَّا هُنَالِكَ[199]".

وله أيضا: **مسائل من علم الفلك ،** وهي مجموعة من الأجوبة التي يفتي فيها بعض علماء شنقيط ، في دقائق علم الفلك ، وكذا بعض التقييدات لبعض التفاصيل في أبيات شعرية. كأسماء البروج الاثني عشر ومواقعها من الشهور. وتجدر الإشارة في هذه العجالة ، إلى أن العلماء الموريتانيين كانوا كثيرا ما يراسلونه ويستفتونه في دقائق هذا العلم وغيره ، وهذا دليل واضح على كونه بحرًا لا ساحلَ له في هذا الفن.

أجوبة فقهية: وهي عبارة عن مجموعة من النوازل والفتاوى ، استفتيَ عنها فأجاب بها إجابةً وافيةً تشفي غليلَ المستفتي ، وتضمُّ هذه الفتاوى **إحدى وعشرينَ مسألةً** ، تدور **حولَ الصلاةِ ومقدماتها ، وأحكام الجنائزِ ، والأطعمةِ والذبائحِ ، والأحوال الشخصيةِ من قضايا الزواجِ ، والطلاقِ ، والعدَّة وغيرِها ، والمواريث.** وقد كان الشيخُ امباكي بوسو أعلم أهل زمانه بالفقهِ ، عرف باستبحاره فيه ، واقتداره عليه ، مع براعته في إحكام صنعة الأجوبةِ فيما يرد عليه من النوازلِ والمستجدات ، لذلك فلا غرو لما عينه الشيخُ أحمد بمبا **مفتيًا وقاضيًا** للديارِ المريدية ، وتدلُّ أجوبته على تمكنه من دقائق وتفاصيل **الفقهِ المالكي** الذي كان متمسكًا ومفتخرا به ، وقدرته على الاجتهاد في المذهبِ لاختيارِ الأنسب من الآراء ما يناسبُ خصوصيَّة بلده وشعبه. وإذا ما نظرنا نظرةً متفحصةً في قائمةِ مصادره ندرك تشبثه بالمذهب المالكي ، وإيمانه بضرورة الالتزام به في الفتاوى ، لذلك لا يكاد يخرجُ منه إلا للضرورة. هذا ، بالإضافةِ إلى أن أجوبته تختلفُ على الشخصِ المستفتي فأحيانا تجده يسبغ في إيراد الأدلة لكل مسألةٍ يجيبُ عليها ، وأحيانا أخرى يكتفي فقط بذكر الجواب دون عناءِ الاستدلالِ. وقد كانَ شديدَ التدقيق والتحقق والتعهدِ قبل إصدار الجواب ، لذلك كثيرا ما تجده يقول عند كل جواب: " **إذا كان صورة المسألةِ هكذا ، فالجواب كذا.** أو قوله **أما قولك كذا وكذا هكذا بخطٍّ يمينِك فإن كانَ معناه كذا وكذا فاعلم أن هذا**... وقال في بداية بعض فتاويه " **أما بعد فقد وقفتُ على السؤالِ ونظرتُ في المقالِ ، وأتيتُ بما أرانيَ اللهُ من الجواب".**

أجوبة من النحو والتفسير والفقهِ ، وهيَ صفحات أجاب بها العلامة البسوبي على مجموعةٍ من مسائلَ متفرقةٍ من علم النحو والفقه والتفسير ، ابتدأ بالإجابةِ على مسائل النحوِ ، ثمَّ أردف بها مسائل التفسيرِ ، ثم مسائل الفقهِ ، ويلحظُ الناظرُ فيها طولَ باعِ الشيخِ في هذه العلوم معَ وفرةِ الزادِ فيها ، لذلك تجده **يقرِّرُ ويرجِّحُ ويخالف** فيما لم يجدْ فيهِ دليلًا. كما يعدلُ عن الاجابةِ في بعضِ الأحايينِ إن اقتضت

[199] المصدر نفسه (ص:98)

الحاجةُ لذلكَ ، وقد ورد في إحدى أجوبته قوله: "وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّوحِ والرُّوحَانِي وَالْجِسْمَانِي وَالْجَسَدِي؟ وَمَا مَعْنَى قَوْلِ الْحَلَّاجْ ـ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ ـ وَلَدَتْ أُمِّي أَبَاهَا ؟ وَمَا مَعْنَى قَوْلِ الْحَاتمي ـ نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِه: الْحَضْرَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ وَالْحَضْرَةُ الْمُوسَوِيَّةُ ؟ وَمَا تِلْكَ الْحَضْرَات وَتَفْرِيقهَا ؟ فَنَقُولُ فِيهِ مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ[200]".

كتابه: **"في الفرائض المعروف ب"هَبَادَبَزْ"** ، وهو كتاب كبير وواسع قيَّدَ فيه علمَ الفرائض ، وقد تبينَ لنا من خلال دراسته امتلاك الشيخِ لناصيةِ علم المواريث ومسائله ودقائقه ، ألفه بأسلوب سلسٍ عذبٍ سهل الوصول. وتقييد " **هَبَادَبَزْ**" مختصر **لعدد الورثة من الذكورِ والإناث** ، وقيلَ أن هذه الرسالة وضعَها الشيخِ امباكي بوسو شرْحًا لباب الفرائض من كتاب " رسالة ابن أبي زيد القيرواني[201].

وله أيضا ، **مسائل من النحوِ والبيانِ والمنطق والعروض والحكمة** ، وهذه المسائل بتنوعها واضحة في الدلالةِ على ما نحنُ بصدده من تكاملٍ وتداخل العلوم وأثرها في فهم النصِّ الشرعي ، وتحريرها من آفات التضييق ، ونزعات الغلوِّ ، حينَما ينفردُ بذلكَ نظر أحادي الوجهةِ والبعد. قد كانَ الشيخ امباكي بوسو متضلعًا في هذه العلومِ كلِّها ، معَ كونه حكيمًا يضربُ به المثل في عذوبةِ اللهجةِ والكلامِ والعبارات.

أجوبة في التصوف: وهيَ ايضًا مجموعة من الأجوبةِ في التصوفِ على غرارِ أجوبته الفقهية. حقق فيها الكثير من المسائلِ الخلافية في علمِ السلوك. وقد أبدعَ فيها بما يدلُّ على أنه شخصيَّة موسوعية غنية ، معَ ثراء عقلي **وجرأة نقدية علميَّة** ، وقدْ أوردَ بها أجوبة لازال بعضُ الناس يجدونَ لهَا إشكالات ، في حين أنه قدَّمَ فيها أجوبة شافية ، فلوْ رجعوا إليها لوجدوا ما يُشفي غليلهم ، فمن الأمثلة لذلك: إشكالية الاستغناء عن التعلقِ بشيخه بعد وفاته عن تجديد حبل الوصلِ لشيخٍ آخر ، إذ يقولُ في هذا الصدد: " وأما قولك: هل للمريد أيضا أن يستغني بتعلقه بشيخه بعد وفاته عن تجديد حبل الوصل للأشياخ الأحياء الحواضر بعده إن لم ير من أمره كأمر شيخه حرفا بحرف أم لا ؟" فالجواب ـ والله أعلم بالصواب ـ أن المريد الذي توفي عنه شيخه **إما أن يكون فطيما أو رضيعا** . أما الفطيم فلو عاشت معه أمه لكان يأكل معها مما تأكل ويشرب مما تشرب فبالأحرى إذا ماتت عنه. وأما الرضيع فلا بد له إما من ظئر عاجلا أومن هلاك آجلا. والمرء أدري بنفسه. والله أعلم[202]" .

كتابه: **سعادة الطلاب في سيرة الشيخ الخديم** ، وهوَ كتاب لخَّص فيه سيرةَ شيخِه ومولاه الشيخِ الخديم عليهما رضوان الله ، ويعدُّ من أمَّهات المراجع في سيرة الشيخ ، وقد ألفه في حياته ، وقرأه الشيخ ثم أقرَّ بما فيه ، وعليه ، فليس هنالك أصحَّ منه ، والدليل أن الكتب التي تعتبر المراجع الأولى في تاريخ الطريقة المريدية وفي سيرةِ الشيخ الخديم ، ك"**منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم**" لمؤلفه الشيخ محمد البشير امباكي ، وكتاب "**إرواء النديم من عذب حب الخديم**" للشيخ محمد الأمين جوب الدغاني وغيرهم ترجع إلى هذا الكتابِ ، وتنقلُ منه. وقد ألفه الشيخ البسوبي بأسلوبٍ روائي فريدٍ من نوعه ، وهذا إن دل على شيءٍ فإنَّما يدل على براعته في اللغةِ العربية من

---

200 **أجوبة في النحو والفقه والتفسير** ، المجموعة (ص:121).

201 ولم أجد بعد دليلًا مقنعا لذلك.

202 **أجوبة في التصوف** ، المجموعة (ص:105).

بلاغتها وصرفها ونحوها ، ويتصرَّف فيها كما يحلو له ، وهو نثر واضحٌ لكنه يحتاج قارئُهُ إلى نصيبٍ وافر من اللغةِ العربيةِ لكي يفكِّكَ رموزه ، ويصل إلى معانيه ، وذلك لِمَا لا يخفى على أن أسلوبَ الروائي يستلزمُ استحضار عدة علمية ومنهجية من العلومِ العربيةِ. وقد أبدعَ فيه وتسمَّى نفسَه **بعبد الله المدني.** وقد نسجَه على منوالِ الأسلوب الروائي. وقد قدَّم فيهِ سيرةَ الشيخِ الخديم تقديمًا لم يرَ مثله قط فيما نعلم لافي الماضي ولافي الحاضر ، ولا غروَ إذا علمنا أن الشيخ امباكي من أعلم أهل زمانه بالتاريخِ ، ولذلك نسفرُ من خلالِ هذا الكتابِ لونًا آخرَ من ألوان المعرفة التي برزَ فيها العلامة الكدوي ، وهيَ **المعرفةُ التاريخيَّةُ** تدقيقًا وتحقيقًا في الأحداث ، نقرأه وكأننا أمامَ كتابٍ في العلوم الانسانيةِ مسلح بمناهج عقلية واجتماعية وتاريخية وأدبية[203].

كتابه: **نصيحة لعشيرة الأقربينَ ،** وهو رسالة صغيرة وجدُّ مختصرة ، وضعَها بمثابة النقدِ الذاتي ، إذ يندد فيه بعض الظواهر غير المرغوبةِ التي بدأتْ تنتشرُ في أواصرِ الأسرةِ التي ينتَمي إليها ، فأخذته الغيرةُ ، وطفقَ ينتقدهم بجرأةٍ كبيرة ، ويدعوهم إلى الرجوع إلى السنةِ التي جُبِلوا عليها. وقد كتبها بلهجة حزينةٍ جدًّا لكنها شديدة ، تنمُّ عنْ حرصه على إحياءِ السنة الرفيعةِ ، وإماتةِ البدعةِ الشنيعة التي بدأت فجوتها تتسعُ في أرجاءِ هذه الأسرةِ المباركةِ ، ولذلك يقول بعد القصيدة –**الرسالة قصيدة ونثر** – "كَتَبْتُ (الْقَصِيدَةَ) وَعَيْنُ السُّنَّةِ تَدْمَعُ وَلِشَأْنِهَا تَجْزَعُ وَلِسَانُهَا يَلْفَظُ بِيَا وَيْلَاهُ؛ آهِ مِنْ قِلَّةِ أَنْصَارِي ، آهِ حِينَ أَلْجَأَتْنِي ضَرُورَةُ الْمُجَاوَرَةِ وَسَاقَنِي شُؤْمُ الْمُعَاصَرَةِ إِلَى رُؤْيَةِ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَرَى أَنِّي أُفَارِقُ الدُّنْيَا وَلَا أَرَاهَا حَتَّى هَيَّجَنِي لِلْبُكَاءِ مَبْكَاهَا ، لَهْوٌ لَيْسَ بِالْحَلَالِ وَإِسْرَافٌ بِنَفَائِسِ الْأَمْوَالِ وَمُخَالَطَةُ الْأَجْنَبِيَّاتِ بِالرِّجَالِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْوَبَالِ[204]". وتدل الرسالةُ على أن للشيخ امباكي بوسو جرأة كبيرة في النقدِ بحيثُ شملَ ذلكَ حتى أفراد الأسرة التي ينتمي إليها مع حبه وتقديره لهم ، لأنَّه لا يقرُّ على الباطلِ ولا يسكت عن الحق أيا كانَ مصدره لا خائفًا ولا غافلًا. ويؤكِّد ذلك قوله في آخر الرسالة: "أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَلَا أُبَالِي بِمَا سَأُرْمَى بِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ ، أَوْ يُغْلَظُ عَلَيَّ مِنْ قَبَائِحِ الْعِبَارَةِ ، إِذْ لَا يُخَالِفُنِي فِيهِ مِنَ الْأَصْحَابِ وَلَا يَجْنَحُ إِلَى الْعِتَابِ إِلَّا أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: رَجُلٌ يُدَاهِنُ فِي أَمْرِهِ ، وَرَجُلٌ يَتَهَاوَنُ بِدِينِهِ ، وَبِئْسَ الرَّفِيقَانِ وَخَابَ الْفَرِيقَانِ ، أَمَّا أَنَا فَلَا أَرْضَى لِنَفْسِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ ظُهُورِ الْبِدَعِ رَابِعَ الثَّلَاثَةِ إِذْ لَا يَعْجِزُنِي أَنْ أَكُونَ أَدْنَاهُمْ. اللهم إِنَّ هَذَا مُنْكَرٌ فَأَنْكَرْنَاهُ لَا نَرْضَى وَلَا نَرْضَى ثُمَّ لَا نَرْضَى حَتَّى تَرْضَى[205]".

كتابيه: **الأخوة والصداقة ،** وكتاب **إصلاح ذات البين ،** وهما رسالتان صغيرتا الحجم ، وافرتا المضمون ، أبرزَ فيهما **معرفته بالاجتماعِ الإنسان** عرفة دقيقة لا نظيرَ لها ، إذ عرضَ في الأول **أسُسَ العلاقة الاجتماعية** القائمة على مبدأ المؤاخاة. ويرى العلامة البسوبي بأنَّ مفهوم الأخوة يحملُ فكرةَ التجرد من الانشغالِ إلى الحقوقِ الذاتية ، باعتبارِ أنَّ ذلكَ من العوامل التي تهدد الحياة الاجتماعية ، كما يدعو إلى ضرورةِ تبنِّي مبدأ المواطنة نحوَ الغير والجماعة والمجتمع ، خدمةً للصَّالحِ العامّ ، بحيثُ يجبُ أن ينظرَ الأفرادُ المتفاعلون إلى العلاقات الاجتماعيةِ والحقوق الجماعيةِ على أنها حقوق خولها

---

203 لقد حقق الكتابُ مؤخرا من طرف اللجنة الثقافية التابعة لدائرة سلَّم الوصول الجامعة لأحفاد العلامة الحاج امباكي بوسو.

204 **نصيحة لعشيرته الاقربين** ، المجموعة (ص:156).

205 المرجع السابق (ص:156).

لهم العدلُ الأسمى جلَّ جلاله، فيتعاملُ معها تعامله مع حقوقه تعالى، قائمًا بآدابها، قيامه بآداب واجباته، ومن ثمَّ فلا محالةَ أنهم يقدِّمُونَ مصلحةَ الغيرِ على مصلحةِ الذاتِ، ومن جهةٍ أخرى؛ يؤكِّد الشيخُ امباكي بوسو بأن الأخوة الصادقة لا تتحقق بالاتصالِ بين الذاتِ والآخر فحسب، بل إنها تتجاوزُ ذلكَ لتشملَ الجانب الرباني، وهذا ما يجبُ أن تتأسس عليه الأخوة والصداقةُ. وينبعثُ من سطورِ الكتابِ تضلعَ الكاتب **بالسيسيولوجيا** والضوابط التي ينبغي أن تقوم عليهَا العلاقات الاجتماعية. كما أنه قدْ أدركَ العلامةُ البسوبي أن التفاعلَ الاجتماعي هو البوصلة والحجر الأساسي الذي يقوم عليه المجتمعُ بأكمله وتتعضَّد به الأواصر، ويرى بأن التفاعلات الاجتماعيةَ بما فيها **الأخوة والصداقةُ** القائمتانِ على التواصل المرنِ الدائمِ المتلازم تحتاجُ إلى اللباقةِ والتهذيبِ استنادًا على قيم ومعايير محددة، استنادًا أن الانسان كائن اجتماعي بالطبع، ولا يمكنُ أن يعيشَ منعزلًا عن المجتمعِ وعن الحياة العامة، وهذا ما يعبِّرُ عنه بقوله: "**إِنَّ الْإِنسَانَ لَا يَسْتَغْنِي أَبَدًا عَنْ أَخِيهِ، لِأَنَّهُ لَا يَكْمُلُ إِلَّا بِهِ**"، فلا يخلق إنسانٌ وحده، ولا يظهرُ إنسانٌ من عدمٍ، ووجوده في بيئةٍ جماعية، يتحتَّم وجود تفاعل بين الأفرادِ إيجابا أو سلبًا، ويتأثَّرُ كل فردٍ بهذا التفاعلِ، فتنتجُ العلاقات بينَ الفردِ والآخرِ. ثمَّ بعدَ ذلكَ ذكرَ مجموعةً من **الشروطِ** التي لا بدَّ منها لديمومةِ هذه العلاقة (الأخوة والصداقة)، وذهبَ إلى أنَّ الذي يستجلبُ به بقاءُ المودَّة والصداقة هو **المشاورة**، إذ أن الاحتكارَ بالرأيِ، لا يليق بالشخصِ الذي يراهنُ على أن يلقى رأيَه صدى وقبولًا، فالتجرُّدُ والموضوعيَّةُ واحترام الرأي الآخر هو الذي ينبغي أن يتحلَّى بها كل إنسانٍ عاقلٍ، ولذلكَ يقولُ في هذا الصدد: "**الْاِسْتِبْدَادُ بِالرَّأْيِ مَذْمُومٌ**".

وأما كتاب: **إصلاح ذات البينِ**، فقد أوردَ فيه فوائدَ جمَّةً بخصوصِ الكيفية والنهج الذي ينبغي أن تقومَ عليهِ أركان المؤاخاة الدينيةِ، والأخوة الطينية. وهو كتاب غزيرُ المضمونِ، أبرزَ فيهِ المفتي البسوبي شخصيتَه الإصلاحيةَ والتجديديةَ، وامتلاكَه تقنياتِ الإصلاح وآلياته وأولوياته. والمتأملُ في هذا الكتابِ يدركُ أن الشيخَ شعرَ بالمسؤوليةِ المنوطةِ عليهِ كعالمٍ مجدِّدٍ، تجاه شعبه ووطنه، في حمايتهم والمحافظةِ عليهم من كلِّ أنواعِ الفسادِ الجارفةِ، وهذا من علَامات الإيجابيةِ التي تمتاز بها شخصيته بما يشهد التكامل المعرفي الذي نحاول تجسيدَه في تراثه. وقد كان أعلم الناسِ بشؤونهم، لذلك تجده يتفاعلُ مع أفرادِ شعبه من مختلفِ مشاربهم وأصولهم بالحكمةِ بناءً على تفقهه بأحكامِ الأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكرِ، مع اطلاعه الواسعِ على الدستورِ والقوانين الساريةِ للقيام بواجبه تجاه الفسادِ والشرِّ بالطريقة الصحيحة شرعًا وقانونًا. ولعل موقفه هذا سيتضِّح من خلالِ رسائله في السياسة، حيثُ نجدهُ ينطلقُ من مبدأ الدين، لكنه لا يجازفُ بالجانب القانوني الذي عليه يسيرُ نظام الدولةِ التي يعيشُ فيهِ رضي الله عنه.

رسائلُه في السياسَة: لسانُ الحق يتكلم، وهي رسالة فريدة من نوعها من حيث الأسلوب، ووضوح المعنى، مع غزارة المضمونِ، نسجه بشكلٍ روائي، ويخاطبُ فيهِ بكلمةِ الحقِّ ضد الولاةِ ومسؤوليتهم على رعيَّتهم. نُسِجَت بأسلوب شديدِ اللهجةِ، مما يدلُّ على اهتمامه الكبيرِ بالشأنِ العامِّ، وضخامة مسؤولية الراعي تجاه رعيته. وتوحي الرسالةُ على قصرها، إلى إلمامه الكبير بأمور **السياسةِ الشرعيةِ وفقه القيادة**، واهتمامه المفرط بأمور الناسِ، فلم يكنْ قطُّ منغلقًا مع جماعته وتلامذته في قريته، بلْ كانَ مشاركًا في الحياةِ العامةِ، لذلكَ لم يصرفه كونه

فقيها مفتيًا عن إبراز مواقفه السياسية ضدَّ نظامِ السلطة القائمة أيا كان سطوته. ففي هذه الرسالةِ نجدُ أنفسنَا وكأنَّا أمام عالم سياسيٍّ متخصص، يعالجُ المشكلات السياسية التي نعشيها في واقعنا المعاصر. فالرسالةُ قمة في **حسنِ التدبير**، وقد رصَّعها الكاتب بالأولويات الواجبةِ لكلِّ رئيسٍ تجاه شعبه، فذكرَ المبادئَ الأساسية التي ينبغي أن تقومَ عليها الدولة المثاليةُ؛ من تعمير، وأمنٍ، وعدالةٍ، وتوفيرِ العمل للمواطنين، ومعاونة المحترفينَ في حرفهم، وإعطاءِ الفلاحينَ حقهم، لأنهم أفضل عمار الأرضِ، ومعاونةِ التجَّار، ثم نبذ الرشوة والظلم، مع التخلِّي عن كلِّ ما يفضي إلى خيانة **الدَّوْلَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ، لِأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمُسَاوَاةِ ضِدَّ الْاِسْتِبْدَادِيَّةِ**. وعلى نفسِ المنوال نسجَ رسالتيه المتبقِّيتين: **رسالة إلى الحاكم بروفيه**، **ورسالة إلى تيج تنورْ**، ينمُّ فيهما عنْ قدرته الفائقة في التعامل مع جميع الناسِ، يلينُ وقت الليونة، لكنه أشد الناسِ حينَما يقتضي الأمر لذلك، وهذا واضح وبارز في هاتين الرسالتين.

الخلاصة

إنني وإن لم أضمن لنفسي بالنجاحِ في إحاطةِ وتقديمِ دراسةٍ شاملةٍ ومحيطةٍ بطبيعةِ تراث هذا الجهبذ الكبير بكل جوانبه، فقد لا أغالي في أنِّي حاولتُ إعطاءَ صورة تقريبيةٍ عنه، يتيح للقارئ نوعًا من فرصةِ الإلمامِ بقضية التكامل المعرفي للعلوم فيه. ولا شكَّ في أن البحثَ في العلاقاتِ والروابط القائمةِ ما بين العلوم المختلفة في الغاية القصوى من الأهميَّةِ. فإن العلوم دوائر متداخلة، متشابكة، تتقاطعُ وتلتقي وتفترق، وينشأ من تقاربها وتباعدها فوائد وعلوم وفهوم. وقد تطرقتُ في هذا البحثِ إلى التقاطعِ الابستمولوجي ما بينَ العلوم عند الحاج امباكي بوسو، مع بيانِ المنهج الذي ينزلُ به النص الشرعي انطلاقًا من العلومِ الأخرى التي يعتبرها خادمة للعلم الشرعي، فهو لم يؤمن بحدوديَّة المعارف، ويكفي النظرُ إلى عناوين مؤلفاتهِ لإدراك ذلك، فلم يترك فنًّا من الفنونِ التي كان يتداوله علماءُ عصره من العلومِ الشرعيَّةِ عقولها ونقولِها، ومن العلوم الإنسانية من تاريخ، وسياسة، والاجتماع الانساني، ومن العلوم الفيزيقيَّة: من حسابٍ، ورياضياتٍ، وعلم الفلك وغيرها، إلا وألف فيه، فقد كانَ يتكلَّمُ على نحو عشرينَ علمًا، لذلكم كانت بحقٍّ شخصيَّةً تتحلَّى بموسوعية نادرةٍ واطلاع كبيرٍ على علومِ عصرهِ وثقافة وطنه، بل على حياةِ الناسِ وأفكارِهم، اطلاع نابع على احتكاكٍ وممارسة. فقد اشتملَ تراثه الثريُّ الغنيُّ على أرفعِ ما كانَ حاضرًا عند علماءِ السلفِ، من علومٍ ومناهجَ، وأنظارٍ دقيقة، وطرائق رفيعة وقويمة، لتحويل الوحيينِ الشريفينِ إلى مناهج تطبيق، وبرامج عمل، ومما يؤكد براعتَه في تنزيلِ قضيةِ التكاملِ على أرض الواقعِ مزاوجتُه في التصنيفِ على مختلف المناهج، فتارةً تجدهُ يسلك **منهجَ المتقدمينَ** في التأليف، كما في كتابه: أمان البليد" وتارة أخرى **منهجَ الروائيين المعاصرينَ** كما في كتابه سعادةُ الطلاب، ورسالته في السياسة لسان الحق يتكلَّم، أما جرأته في النقدِ فيمكنُ أن نتلمسه في جزءٍ كبيرٍ، ويكفي فقط التأمل إلى كتبه الثلاثةِ لإدراك ذلك، **فن في رسم المصحف الشريف، يواقيت الصلات في تقريب مواقيت الصلاة، القبلة وكيفية الاستدلال عليها لأهل القطر السنغالي**. ولا شك في أنَّ العلاقةَ بين هذه الجوانبِ كلها من تراثه تمثِّلُ محورًا مهمًّا وجديرا بالتأملِ لمحاولةِ التوصّلِ إلى تصوّرٍ واضحٍ للكيفيَّة التي كان يشتغل بها أذهان سلفنَا المجتهدينَ، حتى خلَّفوا لنَا هذا الكمَّ الهائلَ الثريَّ من التراثِ الذي نحنُ مدينون به إليهم رحمهم اللهُ ورضي عنهم.

لائحة المصادر و المراجع:

1) القرءان الكريم.

2) مجموعة من كتابات العلامة الشيخ امباكي بوسو ، جمع وإعداد سيدي بوسو مولاي ، 2008.

3) منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم للشيخ محمد البشير امباكي ، بتحقيق د. محمد شقرون ، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط ، الطبعة الأولى ، 2012م.

4) نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ، د. محمد عابد الجابري ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة السادسة ، 1993م.

5) نوازل الشيخ محمد البصوبي المشهور بالحاج امباكي بوسو ، جرد ودراسة وتحقيق ، بحث تقدم به طه عبد الأحد جينغ لنيل شهادة الماستر في القواعد الفقهية والأصولية وتطبيقها في الأحكام والنوازل ، من كلية الآداب ، ظهر مهراز- فاس ، 2008-2009.

اللسان والميزان أو التكوين العقلي ، طه عبد الرحمن ، بيروت-لبنان ، المركز الثقافي العربي ، 1998م ، (131).

6) La confrérie senegalaise des mourides : un essai sur l’Islam au Sénégal, Cheikh Tidiane Sy .

ركن الأدب المريدي

الشمائل المحمدية في قصيدة "جَذْبُ الْقُلُوب" – دراسة وتأصيل

بقلم الباحث: شيخ مصطفى غاي[206]

خلق الله الرسل واصطفاهم لحمل عبء الرسالة إلى العالمين، وجعلهم واسطة العقد بين العباد **وخالقهم رب السماوات والأرضين**، فهم نجوم هذه البسيطة ومعالمها التي بها يهتدي الخلائق في كل حين، وبهم قطع الله الحجة عن كل ناكر ومستكبر يستنكف عن اتباع الحق المبين.

ونبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاز من المفاخر الحظ الأوفر والنصيب الأفخم، فقد هيأه الله بما لم يهيئ به أحدا من قبله من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك لكونه الخاتِم الذي به يُختم بابُ النبوة وبه تكمل الرسالة الإلهية فكان بحق عجبا في خَلْقه وفي خُلُقه معا، وآية في جمعه بين مقتضيات الوحي ومتطلبات تبليغه من مخالطة الناس والتعامل معهم.

ولما كان تصديقه والإقرار به لازما لاكتمال الإيمان اقترن ذلك بضرورة معرفته حق المعرفة فجاءت كتب الشمائل حافلة بأوصافه ومليئة بسجاياه الشريفة وأخلاقه الحميدة. وخصه الشعراء المصاقع بالمدح والدفاع عنه فكانت القصائد والأمداح النبوية وعاء وميدانا للإبداع والإمتاع.

وكان من بين تلك القصائد **جذب القلوب لعلام الغيوب** للشيخ أحمد الخديم ـ رضي الله عنه ـ وقد تضمنت جملة صالحة من هذا النوع وهي مما سارت به الركبان وطربت بسماعها الآذان.

وهي قصيدة من مجزوء الرجز مطلعها:

الحمد للحق المبين

من كونه لي يبين

على الكتاب المستبين

مع جميع النعم

وتدور في فلك مدح سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والصلاة عليه وذِكر أوصافه الشريفة وسجاياه الحميدة التي أكرمه بها المولى الكريم تبارك وتعالى، والتي كان بسببها موضع العُجْب والإجلال من الناس الذين عايشوه وخالطوه سيان في ذلك من آمن به وصدق برسالته وبين من عاند وجحد بما جاء به. فهي خصال تقوم بأنفسها مقام المعجزة التي تبرهن على صدق صاحبها وأن ما يدعو إليه حق من عند الله.

وللشمائل عندي في هذه القصيدة قصة وحكاية، وذاك أنه اتفق أن درسنا شمائل الترمذي وسردناه سرد مباحثة ومُفَاتشة فكانت الكلمات الواردة فيها من نحو (المكلثم) و(المطهم) تذكرني بهذه القصيدة وتعود بي إلى دررها التي تضمنت أوصاف سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام فكانت الفكرة التي ترافقني في هذا الوقت هي: لم لا أضع بإزاء هذه الأبيات هذه الأحاديث؟ ولم لا يكون هناك تأصيل لهذه الشمائل بالاستعانة بشمائل الترمذي فيكون ذلك جمالا فوق جمال؟

والشمائل المحمدية التي وردت في القصيدة دون احتساب الكرامات والمعجزات عدد ليس بالكثير ويمكن حصرها ما بين كلام الشيخ رضي الله عنه في القصيدة:

[206] طالب باحث بمؤسسة معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية — الرباط.

يا ملهما قد وفقا

صل على من خلقا

والخَلْق فاق خُلُقا

صل على من خلقا

إلى قوله:

وهو أكمل الورى

خَلقا وخُلُقا ظهرا

والمثل قط لن يرى

ولن يرى في الشيم [207]

ذلك لأن هذا القدر من القصيدة هو الذي ينطبق عليه تعريف الشمائل في الاصطلاح.

وهو ما ينصب العمل عليه إن شاء الله.

والمنهج الذي يسير عليه هذا العمل هو إيراد المقاطع الشعرية على الترتيب الذي هو عليه في القصيدة وتأصيل كل واحد منها واحدا تلو الآخر مع الاجتزاء من الأحاديث الطوال بما يخدم الغرض ويصب في صميم العمل فحسب، وذلك على النحو التالي:

قد كان ذا **توسط**

في القدّ جالي السّطط

ولم يكن بالمفرط

ولم يكن بآدم

ورد أصل معنى البيت في كتب الشمائل بصيغ مختلفة ففي شمائل الترمذي باب صفة النبي صلى الله عليه وسلّم عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لَيْسَ** [208] **بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ، وَلَا بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ، وَلَا بِالْآدَمِ**، وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبْطِ، بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ».[209] ونقل مثل ذلك القاضي الإمام أبو بكر محمد بن علي القفّال الشّاسي في كتابه شمائل النبوة و ذلك بإسناد طويل يصل إلى نافع بن جبير بن مطعم عن علي رضي الله عنه قال: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم **بالطويل ولا بالقصير** شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس واللّحية مشرب بحمرة ضخم الكراديس طويل المسربة، إذا مشى تكفّأ تكفّؤا كأنه من صبب لم أر مثله قبله ولا بعده صلى الله عليه وسلم.[210]

ولم يكن مطهّما

ولم يكن مكلثما[211]

بل فاق كل من سما

من منتم لآدم

---

[207] المصدر السابق، ص267.

[208] للإشارة فإن أحاديث الشمائل تضم كلمات غريبة أحيانا، وقد شرحنا ما لابد منه ولاستيفاء ذلك يرجع إلى كتب الشمائل.

[209] الترمذي، أبو عيسى (ت279هـ). **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**. تحقيق: سيد بن عباس الحليمي. ط1 (مكة المكرمة: المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، 1993). 28. وقد خرجه البخاري، رقم 3548، والترمذي، رقم 3623.

[210] الشاسي القفال، **شمائل النبوة** ص125. ط دار التوحيد للنشر

[211] المطهم: المنتفخ الوجه. والمكلثم يعني: المستدير الوجه مع كثرة اللحم.

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أوصافه أنه لم يكن مطهّما ولا مكلثما ، وأصل هذا ما ورد في الشمائل للترمذي بإسناده إلى إبراهيم بن محمد من ولد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ إِذَا وَصَفَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ بِالطَّوِيلِ الْمُمَغَّطِ ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ ، لَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ ، وَلَا بِالسَّبْطِ ، كَانَ جَعْدًا رَجِلًا ، وَلَمْ يَكُنْ **بِالْمُطَهَّمِ وَلَا بِالْمُكَلْثَمِ** [212] ، وحكى مثل ذلك الإمام البيهقي في دلائل النبوة قال : أخبرنا أبو الحسن : محمد بن محمد بن الحسن الكارزي ، قال : أخبرنا علي بن عبد العزيز ، قال :

قال أبو عبيد في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: إن عليّا كان إذا نعته قال لم يكن بالطويل الممغّط ولا القصير المتردّد ، لم يكن **بالمطهّم ولا بالمكلثم** .

كان يطول كلّ من

ماشاه في كلّ زمن

وكان واسع العطن

يضحك بالتبسّم

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه كان لا يماشي أحدا إلا فاقه في الطول ، وأصل ذلك ما ورد عند البيهقي في الدلائل عن عائشة أنها قالت:" كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قامته أنه لم يكن بالطويل البائن ، ولا المشذّب الذاهب ، والمشذب :

الطول نفسه إلا أنه المخفّف ولم يكن صلى الله عليه وسلم بالقصير المتردّد وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده **ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ممن ينسب إلى الطّول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم** وربّما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما فإذا فارقاه نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الربعة ، ويقول نسب الخير كله إلى الربعة[213] "وهذا من عجائبه وتمام معجزاته.

وأما وصفه بسعة الصدر فقد ورد في غير ما حديث ، ومن ذلك ما ذكره أبو بكر محمد بن علي القفال الشاسي في شمائل النبوة بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: كان الحسن بن علي يحدّث عن النبي صلى الله عليه وسلّم بأحاديث سمع بعضها منه ووصفه ببعضها فأما ما وصفه به فإنا سألناه أن يجلّي لنا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: كان فخما مفخّما ، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر أقصر من المشذّب وأطول من المربوع ...سواء البطن والصدر **عريض الصدر** بعيد ما بين المنكبين.....الحديث[214] ، ويضحك بالتبسم ودليله ما ورد عند البيهقي ورواه بإسناده عن جابر بن سمرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنت إذا نظرت إليه قلت أكحل العينين وليس بأكحل وكان في ساقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حموشة **وكان لا يضحك إلا تبسّما**.[215]

وهو جليل قلـــب

بياضه مشـرّب

---

[212] الترمذي ، أبو عيسى (ت279هـ). **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**. ت: سيد بن عباس الحليمي.ط1 (مكة المكرمة:المكتبة التجارية ، مصطفى أحمد الباز ، 1993) ،32.

[213] المصدر السابق

[214] الشاشي القفال ، **شمائل النبوة** ص134 ط دار التوحيد للنشر.

[215] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** ، ص212 ج 1 ط دار الكتب العلمية.

بحمرة وأهدب

وأنجل ذو رسم

كان سيدنا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم جليل المشاش متبصّرا بالعواقب جل نظره الملاحظة بياضه مشرب بحمرة ، وأصل ذلك ما ورد في شمائل النبوّة للقفال الشّاسي ورواه بإسناده عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي ، عن أبيه ، عن جدّه عن علي قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال فإني لأخطب يوما على الناس وحبر من أحبار اليهود واقف في يده سِفْر ينظر ، فناداني وقال: صف لنا أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فقال علي رضي الله عنه : رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالقصير ولا بالطّويل البائن ...إلى أن قال **مشرب لونه حمرة** عظيم الكراديس ، شثن الكفّين والقدمين ، طويل المسربة ، **أهدب الأشفار** ، مقرون الحاجبين ، صلت الجبين ، بعيد ما بين المنكبين...الحديث [216] وحدّث بمثل ذلك البيهقي في دلائل النبوة عن الزهري محمد بن مسلم ، عن سعيد بن المسيّب أنه سمع أباهريرة يصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: كان مفاض الجبين **أهدب الأشفار**. [217]

يفترّ في أسنى ابتسام

كالبرق أو حبّ الغمام

وضحكه يجلو الظلام

كسرج في ظلم

في هذا وصف لكيفية ضحكه عليه الصلاة والسلام وأنه كان يفترّ عن مثل حبّ الغمام ، وقد ورد ذلك في حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال سألت خالي هند بن أبي هالة ، وكان وصّافا قلت صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السّكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه.....جلّ ضحكه التبسم ، **يفترّ عن مثل حبّ الغمام** [218] ، وكان إذا تكلّم رئي كالنور بين ثناياه كما ورد عن ابن عباس.

ووجهه **مدوّر**

وهو **خميص أزهر**

وهو بهيّ أسمر

مرتل التكلم

من تتبّع وصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم لاحظ التواتر في وصف وجهه بالتدوير ، والتدوير صفة حسنة في الوجه كما يقول الشراح ، ومما يؤصل ذلك ما رواه الترمذي في الشمائل بسنده عن محمد من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان علي رضي الله عنه إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: لم يكن رسول الله عليه وسلم بالطويل الممغّط ولا بالقصير المتردّد ، ولا بالسّبِط ، كان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، **وكان في وجهه تدوير** ، أبيض مشرب ...الحديث [219] ، وكان خميصا أزهر اللون يدل على ذلك حديث أم معبد حين قالت: **لم تعبه ثجلة وهي عظم البطن** وجاء في حديث هند

---

[216] المصدر نفسه ص131

[217] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** 214 ج 1 ط دار الكتب العلمية

[218] الترمذي ، **الشمائل المحمدية** تحقيق علي عبده كوشك147 وقف مكتبة نظام يعقوبي الخاصة . المنامة- البحرين.

[219] الترمذي ، **الشمائل النبوية** تحقيق علي عبده كوشك ص42 وقف مكتبة نظام اليعقوبي المنامة . البحرين

بن أبي هالة: معتدل الخلق بادن متماسك ، **سواء البطن والصدر** ، بعيد ما بين المنكبين ، أنور المتجرّد ، موصول ما بين اللّبّة والسّرّة بشعر يجري كالخيط ، عاري الثديين والبطن ، أشعر أعالي الصدر.[220] أما بهاؤه فحدِّث عنه ولا حرج فما رئي شيء أحسن ولا أجمل منه صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء في لونه وصفه بأنه أزهر اللّون ورواه ثابت عن أنس فقال: كان أزهر اللّون مثلما ورد وصفه بالسّمرة عن أنس أيضا قال: كان رسول الله عليه وسلم أسمر اللّون[221] ، وكان مرتِّل التكلّم ، وأصل ذلك ما جاء عند الترمذي في باب كيف كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا ، ولكنه كان يتكلّم بكلام بيِّنٍ فصلٍ ، يحفظه من جلس إليه.[222]

كأن ماء الذهب

في خدّه المهذّبِ

وكان **سبط القصب**

عرنينه ذو شمم

كان عليه الصلاة والسلام سبْط القصب[223] وقد ورد ذلك في مصنّفات كثيرة ، فمن بينها خلاصة سِير سيّد البشر لمحب الدين الطبري في الفصل السابع في صفته عليه الصلاة والسلام قال:" كان ﷺ ربعة من القوم لا بائن من طول ولا مقمحة عين من قصر[...]سائل الأطراف ، **سبط القصب** خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء.....[224] ." وكان صاحب عرنين أشمّ يشهد لذلك ما ورد في دلائل النّبوّة للبيهقي فيما رواه الحسن بن علي عن خاله قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم واسع الجبين ، أزجّ الحواجب ، سوابغ في غير قرن ، بينهما عِرق يدرّه الغضب **أقنى العرنين** ، له نور يعلوه.....الحديث[225] . قال ابن الأثير في الحديث: **فِي صِفَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «كَانَ أَقْنَى العِرْنِين» القَنَا فِي الأَنْف: طُوله ورِقَّة أَرْنَبَتِه مَعَ حَدَبٍ فِي وَسَطِه. والعِرْنِين: الأَنْف.**[226]

كامل أذن أدعج

وأشنب مفلّج

وأشكل مبتهج

والوجه ماحي الغمم

---

[220] الشاسي القفال ، **شمائل النبوة** ص189 ط دار التوحيد للنشر.

[221] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** ص 203 ط دار الكتب العلمية

[222] الترمذي ، **الشمائل المحمدية** تحقيق علي عبده كوشك ص146.

[223] سبط القصب: كل عظم مستدير أجوف ، بمعنى أنه لم يكن في ذراعه ولا في ساقيه ولا فخذيه نتوء ولا تعقيد. ينظر: ديوان **سعادات المريدين**.

[224] الطبري محب الدين ، **خلاصة سير سيّد البشر** تحقيق محمد عبد الغفار خان ص57

[225] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** ص 214 ط دار الكتب العلمية.

[226] ابن الأثير ، **النهاية في غريب الحديث والأثر** ص116 ج 4

من بين الصِّفات التي ورد عن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه كاملُ أذن وهذا مظهر من مظاهر كماله الخِلْقِيّة والخُلقِيَّة ، وقد ورد في شمائل النبوة للقفّال الشاسي ما يدلّ على ذلك ، ومنه أنه جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: كان تامّ الأذنين[227] .

وقد جاء في صفته كذلك أنك كان أشنبًا ومفلّجًا ويعضد هذا حديث الحسن بن علي عن خاله في وصف النبي صلى الله عليه وسلم حيث جاء فيه:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسع الجبين...**ضليع الفم أشنب مفلّج الأسنان.**[228]

ومثله حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم **أفلج الثّنيّتين** ، وكان إذا تكلّم رئي كالنور بين ثناياه.

وكان أدعج العينين ويشهد لذلك ما سبق أن ذكر عن علي أنه كان إذا وصف رسول الله عليه وسلّم قال: كان في الوجه تدوير ، أبيض مشرب ، **أدعج العينين** ، أهدب الأشفار.[229]

وأما قوله " وأشكل مبتهج " فشاهده وأصله حديث جابر بن سمرة ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم ضليع الفم ، **أشكل العينين** ، منهوس العقبين[230].

أخلص في الخاتمة إلى فذلكة حاصلها أن نقول إن هذه القصائد موارد ثرة ومصادر غنية للشمائل المحمّدية. وذلك راجع إلى أن الشعراء الذين يكتبون في هذا المجال يكونون في الغالب على اتصالٍ بمراجع يوثّقون بها ما يقولون ويصفون به الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أن تأصيلها من آكد الأشياء عندي ليس لأنها غير موثوقة بها منذ البداية ، ولكن لأن ذلك يرفع من علميّتها ويضيف لها قيمة فوق قيمتها.

---

[227] الشاسي القفال ، **شمائل النبوة** للقفّال ص186 ط دار التوحيد للنشر.

[228] **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** للبيهقي ص214 ط دار الكتب العلمية.

[229] المصدر نفسه.

بَيْنَ إِشْرَاقِ الرُّوحِ وَإِكْرَاهَاتِ الْجَسَدِ... أَدَبُ الرِّحْلَةِ فِي الْكِتَابَاتِ الْخَدِيمِيَّةِ

بقلم الباحث: عبد الله غاي[231]

يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ بِكُلِّ ثِقَةٍ إِنَّ مَا يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ الآنَ بِأَدَبِ الرِّحْلَةِ يُمَثِّلُ رَكِيزَةً قَوِيَّةً مِن رَكَائِزِ التُّرَاثِ الْخَدِيمِي الأَدَبِي. وعلى الرَّغمِ من غزارةِ هذه المادَّةِ فلَمْ أَرَ مَنِ اعْتَنَى بها من الدَّارسين النُّقَّاد ، أو أَشَارَ إليها بِشَكْلٍ مِنَ الْأَشْكَالِ في دراساته ، حيث تُخْتَزَلُ صورةُ نِتَاجِ الشيخ ضمن الأغراضِ الكلاسيكية في الشعر الدِّيني؛ والمديحِ النَّبَوِي. إلاَّ أنَّ الفاحصَ لنصوصِ الشيخِ والمُتَتَبِّعَ لكتاباته يَلْحَظُ أَنَّه حازَ قَصَبَ السَّبْقِ في هذا المِضْمَارِ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَمَدِ الحُسْنِ في صنعةِ الإبداعِ. فقد وظَّفَ السردَ في حكاياتِ رحلته ، باعتباره مُكَوِّنٌ أَسَاسِيٌّ في النَّص الرِّحْلِي ، ذلك أَنَّهُ القناةُ الوحيدةُ التي تُمَكِّنُ من احتواءِ فعلِ السفر ونقله إلى المُتَلَقِّي نقلاً يطابق الواقعَ والحقيقةَ ، بَيْدَ أَنَّه ضَمَّنَ نصوصَه الشعريةَ إشاراتٍ باهتةٍ ترتبطُ بالرحلة. الشيءُ الذي يدفعنا إلى طرحِ التساؤلاتِ الآتية: ما هي حدودُ التأويلِ للنصوص الْخَدِيمِيَّةِ وِفق مقاربة أدب الرحلة؟ وهل يمكن حَصْرُ إنتاجِه الشعري في المديح النبوي فقط؟ هل من حضورٍ لأدب الرحلة في نصوص الأدباء السنغاليين الآخرين؟

لقد أولى النقدُ الحديثُ عنايةً خاصةً للنص الرِّحْلي ، ذلك أنه فضاءٌ شاسعٌ ومجالٌ رَحْبٌ يَصْلُحُ لمختلف المقاربات ، ولهذا "يُمْكِنُ لِلْبَاحِثِ أَنْ يَدْرُسَ الرِّحْلَةَ وِفْقَ مُقَارَبَاتٍ وَزَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ: مِنْ زَاوِيَةِ كَوْنِهَا مَصْدَرَ لِلتَّارِيخِ ، وَأَثَرٍ أَدَبِيًّا وَفِكْرِيًّا وَفَنِّيًّا ، وَوَثِيقَةً سُوسِيُولُوجِيَّةً ، وَمَصْدَرَ لِتَتَبُّعِ الذِّهْنِيَّاتِ وَالْعَقْلِيَّاتِ عَبْرَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ."[232] وقد شجع انتشارُ المناهجِ النقديةِ الحديثةِ الباحثين على الاهتمامِ ببِنْيَاتِ النُّصُوصِ الرِّحْلِيَّةِ ومقوِّماتِ أدبيَّتِها وتجنيسِها ، ومُحَاوَلَةِ حَصْرِ الخصائص التي يتميَّزُ بها خِطَابُ السَّرْدِ الرِّحْلِيِّ عن غيره من خطاباتِ النصوصِ السَّرْدِيَّة. إلاَّ أن التجربةَ في البيئةِ السنغالية تبقى ضئيلةً ، على الرَّغم من مواكبة الأدبِ السنغالي العربي لهذا الفنِّ الأدبي ، مثل الرحلة الحجازيَّة[233] للشيخ عُمَرَ الفُوتِي تَالْ (ت. 1864م) ، وكتابِ الشريف محمد شمس الدين بن الشيخ المحفوظ الكَاسَمَنْسِي "هُدَى الْمُهْتَدِين الْمُسَمَّى بِحَيَاةِ الشَّرِيفِ مُحَمَّدٍ شَمْسِ الدِّينِ" الذي سافر إلى بلاد البرتغاليين سنة 1340هـ/1922م[234] ، وقصيدةِ الشيخ علي فَيْ الغامبي "الرِّحْلَةُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ"[235] في 60 بيتا ، وكتابِ أحمد دمْ السُّوكُونِي (ت. 1973م) "عُنْوَانِ الطِّرَازِ فِي الرِّحْلَةِ إِلَى الْحِجَازِ"[236] ، ورحلاتِ السَّفِيرِ دُودُ سِكّ المشهور بابن المِقْدَادِ[237]

---

231 طالب باحث بمؤسسة دار الحديث الحسنية – الرباط.

(232) محمد العاقل. "الأنا الإسلامي والآخر في الرَّحَلاَت السَّفَارِيَّة–رحلة ابن عثمان المكناسي نموذجا" ضمن **أدب الرحلة: جدلية الأنا والآخر في عالم متغير**، تنسيق خالد التوزاني، ط2. (عمان: دار كنوز المعرفة، 2020)، 218.

(233) إلى وقت كتابة هذه الأسطر ، فإنَّ هذه الرحلة التي دوَّنها أحد الموريتانيين بلسان الشيخ صاحبِ الرحلة ما زالت مخطوطة ، وقد أخبرني أحدُ الإخوة أنه يشتغل في تحقيق المخطوط ، وعسى أن يرى النور قريبا بإذن الله.

(234) عَامِرٌ صَامْب. **الأدب السنغالي العربي**. جزآن. ط.2. (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978)، 1/327-329.

(235) عَامِرٌ صَامْب. **الأدب السنغالي العربي**، 1/354.

(236) عَامِرٌ صَامْب. **الأدب السنغالي العربي**، 1/356.

(237) عَامِرٌ صَامْب. **الأدب السنغالي العربي**، 1/92.

(ت. 1934م) المحفوظة في وثائق انْدَرْ [Ndar] ، وكذا رحلاتِ شيخِ الإسلام إبراهيم نِيَاس[238] (ت. 1975م) ، إضافةً إلى شعرِ الرحلةِ في قَصَائِدِ القاضي مَجَخَتِ كَلَ (ت. 1901م) إذ يَذْكُرُ المحطاتِ التي يراها المسافر بالقطار من دكار إلى اندر[239] ، إلى غيرها من الرحلات المنثورة في الدواوين والمصنفات[240] . ومع ذلك يقتضي المقامُ

(238) للتفصيل يراجع البحثان: (1) انجاي ، محمد إبراهيم. **أدب الرحلة في الشعر السنغالي الشيخ إبراهيم انياس نموذجا**. بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شيخ أنت جوب-دكار ، الموسم الجامعي 2017-2018 ، إشراف الدكتور مَغَيْ انجاي والدكتور عثمان جاه. (2) إدققير ، عبد الله. **الرحلة الحجية ودورها في تمتين العلاقة الروحية والعلمية بين المغرب والسنغال -رحلة الشيخ إبراهيم نياس نموذجا-** ، بحث مقدم لنيل شهادة الماستر في "العلاقات الدينية والثقافية بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء" ، جامعة ابن زُهْر ، أكادير ، إشراف الأستاذ رشيد كناني ، الموسم الجامعي 2022-2023.

(239) عَامِرٌ صَامْب. **الأدب السنغالي العربي** ، 2/80.

(240) مثل رحلة الحج الشهيرة في 1928م التي تَزَعَّمَهَا الشيخُ مَامْ شِيخْ أَنْتَ بُرُومْ غَاوَانْ وَسَرِينْ امْبَاكِّي بُوصُو والشَّيْخ محمد الفاضل امباكي ، وكان الوفدُ يتكون من عشرة أشخاص. وقد وَثَّقَ الرحلةَ الحاجُّ محمد الفاضل ، وحررها الحاجُ محمد المحمود انياغ نقلا من خط يد المؤلف. وخلال مرورهم بفرنسا سيجري مَامْ شِيخْ أَنْتَ مقابلة مع الجريدة الفرنسية المارسيلية Le Petit Marseillais ، التي نشرت المقابلة في عددها الصادر ليوم 18 مارس 1928م ، كما ضَمَّن أحداثَ الرحلةِ سرين موسى كَاهْ في مَرْثِيَّتِهِ لسرين امباكي بوصو. (رضي الله عنهم أجمعين).

المُسَارَعَةَ في التمييزِ بينَ السِّيرةِ الذاتيَّةِ التي تتناول عادةً مُجْمَلَ حياةِ المؤلِّف الراوي ، وبيْنَ النصّ الرِّحْلِيّ الذي لا يتناولُ إلَّا مُدَّةً محدَّدَةً من حياة المؤلِّف ، وهي المُدَّةُ التي قضاها في السفر.

ولكَيْلا نَقَعَ في فَخِّ الإسقاطِ ولَيِّ أعناق النصوص ، نُنَبِّهُ أَنَّ الرحلةَ عند الشيخ الخديم[241] تختلف تماما عن الرحلاتِ المعهودة أو كما تقتضيها معاييرُ أدبِ الرحلةِ من تعريفٍ وخصائصَ. فشخصيةُ الشَّيخ الخديم شخصيةٌ إبداعية في المُتَغَيِّرَاتِ ، ومحافظةٌ في الثَّوَابِتِ ، فهو منفردٌ في أسلوب الدعوة والتعليم والأدب ، وقد شَقَّ لنفسه في ذلك طريقا خاصا. فإنَّ خصائصَ أدبِ الرحلة قد لا تَتَضَافَرُ في نُصُوصه من البِنَاءِ السَّرْدِي ، والْخُطَاطَاتِ والْمَسَارَاتِ ، وغلبةِ الوصف الذي يَتَّفِق الغَرْبِيُّونَ والعَرَبُ على أنَّهُ أَكْثَرُ ما يسود في السَّرْد الرِّحْلِي ، ذلك أنَّ رحلتَه لم تكن تِجَارِيّ ولا سِيَاحِيّا ولا سَفَارِيّ ولا سِيَاسِيّ بل كانت رحلةَ منفىً قسري ،

وكذلك رحلة الحاج الشيخ أحمد امباكي المشهور بغايندي فَاطْمَ (ت. 1989م) والتي حررها سرين عباس بُوصُو ، ينظر: **الأدب السنغالي العربي** ، 2/321.

(241) اقتضى المقام أن لا نشتغل في السرد التاريخي للرحلة ، إذ يهمنا هنا دراسة بنية الرحلة من الناحية الأسلوبية ، ومن أراد التفصيل تاريخيا فليرجع إلى مظانها؛ الكتب المتخصصة في ترجمة الشيخ ، **كجزاء الشكور** للشيخ الخديم ، وكتاب **مِنَنُ الْبَاقِي الْخَدِيمِ فِي سِيرَةِ الشَّيْخِ الْخَدِيم** ، للشيخ محمد البشير امباكي ابن الشيخ الخديم ، **وإِرْوَاءُ النَّدِيمُ مِنْ عَذْبِ حُبِّ الْخَدِيم** لمحمد الأمين جوب الدكاني ، **وكتاب دليل الحائر في غيبة الشيخ بالجزائر** ، للشيخ محمد الأمين بار امباكي ابن الشيخ الخديم ، وكتاب **الشيخ أحمد بامبا امباكي رضي الله عنه عبد الله وخديم رسوله ﷺ: دراسة تشتمل على سيرته الطاهرة وأهم أحداث حياته المباركة**. دائرة روض الرياحين ، سلسلة من ثمرات الروض (10) ، دراسات حول المريدية (ع3). (بيروت: دار الفكر ، 2022). إضافة إلى منظومتي سرين موسى كاه باللغة الولفية؛ **جزاء الشكور البحري والبري**.

ضمنَ بَرْنَامجِه التَّجْدِيدي والدَّعوي وجزء من المشروع؛[242]

سَبَبُ غَيْبَتِي أَنَّ اللَّهَ

أَرَادَ أَنْ أَنَالَ مِنْهُ جَاهَا

وَأَنْ أَكُونَ شَافِعٍ لِقَوْمِي

وَأَنْ أَكُونَ خَادِمٍ فِي الدَّوْمِ

فَغَرَضُ الْحُصُول على مقامٍ أو لقبِ "الخادم" غَيَّب الشيخَ مِنَ الاهتمامِ بوصفِ الأماكن والأشياء (البنايات ، الخيول ، القطار ، السفينة..) بخلاف مَا نَجِدُه في نصوصِ الرَّحلَات قديما وحديثا ، فوصفُه لا يخرج عن المَشَاهد والأحداث في سردٍ مختزلٍ ، ولعلَّ سببَ ذلك اهتمامُه باقتناءِ الأوقات في الذِّكْر والعبادة ومُنَاجَاتِ ربِّ العالمين والكتابة ، ولكن هَلْ كَانَ ذَلِكَ سببا في تَغْيِيبِ فَنِّيَّةِ النص الرِّحْلِي عند الشيخ؟

شعرية الرحلة مدخلا للتجديد الأدبي:

إن قضيةَ القديمِ والحديثِ [مصطلح نقدي عربي قديم] في الأدبِ السنغالي العربي تُدْرَسُ من جانبِ التقليد والتجديد. فالمُقَلِّدُونَ هُمُ الذين يُنْشِدُونَ قصائدَهم على منوالِ الجاهلية معنى وأسلوبا ، فيقفونَ على الأطلال ، ويَبْكُون على الرُّسوم الدَّوارس ، والرُّبوعِ الخَوَالي ، ونلاحظ أغلبَ عَتَبَاتِهم النَّصِّيَّةَ ومَطَالِعَهُم الشعريةَ تَسْتَهِل بمقدمةٍ طَلَلِيَّةٍ ، أو غَزَلِيَّة ، أو الحنينِ والشوق ، بينما يتجاوزُ أهلُ التجديد -وفي مقدمتهم الشيخُ الخديم- تلك العتباتِ النَّصِّيَّة. وقد صَبَغَ الشيخُ شعرَه بملامَح فَنِّيَّةً ، [الملمح التجديدي الأول] كالدخولِ مباشرة في الموضوع دون مُقَدِّمَاتٍ ومُمَهِّدَاتٍ ، ويتجلّى ذلك في أهمِّ نصوصه الرِّحلية في الغيبةِ البَحْرِيَّة ، وهو قصيدةُ ﴿أَسِيرُ﴾؛ حيث يقول:[243]

أَسِيرُ مَعَ الْأَبْرَارِ حِينَ أَسِيرُ

وَظَنَّ الْعِدَى أَنِّي هُنَاكَ أَسِيرُ

مَسِيرِي مَعَ الْأَخْيَارِ لِلهِ بِالنَّبِي

وَمَا لِي لِغَيْرِ اللهِ عَوْضٌ مَسِيرُ

وقد بدأ نظمَ هذه القصيدةَ في أيامه في اندر ، والراجح أنه أَكْمَلَهَا في المَنْفَى ، وهي قصيدةٌ رائية رائعةٌ رائقةٌ تصل إلى ثمانية وأربعين بيتا[244] ، صيغت على البحر الطويل ، بِرَوِيِّ الرَّاء ، مع قافية مُصَرَّعَة ومُرْدَفَة ، فهي مفعمة بالتقنيات الحجاجية التي وظفها الشيخ لتفنيد مزاعم الأعداء "وَظَنُّوا الظُّنُونَا وَالظُّنُونُ غُرُورُ" ثم بيان فشل مكائدهم وحِيَلِهِمْ في قوله:[245]

يَظُنُّونَنِي وَقْتَ اغْتِرَابِي لَدَيْهِمُ

أَسِير لَهُمْ وَالْكُلُّ ثَمَّ يَخُورُ

لذا يعتبرُها الناقدُ عَامِر صَامْب من أجمل قصائد الشيخ وأروعها لفظا ومعنى ، فهي تعتمد على بَساطةَ الأسلوب (بخلاف المدرسة التقليدية) وَرَوْنَقَةَ السبك

(242) الشيخ أحمد بمب امباكي ، المشهور بالشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَطْوفُ فِي جَوَابِ عَبْدِ اللَّطِيف**. دراسة وتحقيق: محمد المرتضى بوصو ومَامْ مُورْ امْبَاكِّي حَمْدِي. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، ط1. (الرباط: دار الأمان ، 2022) ، 40.

(243) الشيخ أحمد بمب امباكي ، المشهور بالشيخ الخديم. قصيدة "أسير مع الأبرار".

(244) ينظر: الشيخ محمد الأمين جُوبْ الدَّغَاني (ت. 1968م). **إِرْوَاءُ النَّدِيمِ مِنْ عَذْبِ حُبِّ الخَدِيم**. دراسة وتحقيق: مجموعة من الباحثين. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة ، 1439هـ/2017م) ، 126.

(245) من قصيدة (أسير مع الأبرار).

وإصابةَ المعنى بصيغة **السرد الشعري والحبك القصصي**، يقول: "فَبَيْنَ مِنْهَاجِهَا الْفَنِّي وَالتَّقْسِيمِ الثُّلَاثِي لِلْقَصِيدَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ بَوْنٌ شَاسِعٌ؛ أَيْنَ مِنْهَا وَالتَّشْبِيبُ وَالْبُكَا عَلَى الْأَطْلَالِ؟ حَتَّى جَرَى بَعْضُ الشُّعَرَاءِ الصُّوفِيِّينَ السِّنْغَالِيِّينَ مَجْرَى الشُّعَرَاءِ [العرب الفحول]، فَبَكَوْا وَأَبْكَوا لَدَى الْمَنَازِلِ بَعْدَ ارْتِحَالِ الظَّعَائِنِ وَالْحَبِيبَاتِ. وَأَنَّ وُسْعَنَا أَنَّ نُقِرَّ لِلْحَاجِّ مَالِكْ سهْ وَالْقَاضِي مَجَخَتَ كَلَ وَغَيْرِهَا بِأَنَّهُمْ قَدِيرُونَ [عَلَى مُجَارَاةِ الْعَرَبِ الْأَوَائِلِ، حَيْثُ وَصَفُوا][246] مَنَازِلَ ودمنَ وَأَطْلَالاً زَمَانَ كَانَتِ السِّنْغَالُ تَعْرِفُ الْحَيَاةَ الْبَدَوِيَّةَ وَالْقَبَائِلَ الْمُتَجَوِّلَةَ، وَقَدْ يَقِفُونَ أَمَامَ دِيَارٍ طُمِسَتْ لِزَبِّ الْأَيْلِ فِيهَا وَيُغَرِّدُ الْهَدِيلُ لِفَقْدِ حَمَامَتِهِ. وَقَدْ يَقِفُونَ فِي مُورِيتَانِيَا مَنَازِلَ هَكَذَا؛ فَبَكَوا ذِكْرَى مِنْ سَلْمَى وَلَيْلَى وَدَعْدَ. لَكِنْ أَظُنُّ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا نَوْعَ رَمْزِيًّا لِوَصْفِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَلِلزُّهْدِ فِيهَا. **وَلَا نَرَى شَيْئَ شَبِيهٍ بِذَلِكَ عِنْدَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بَمْبَ إِذْ هُوَ إِذَا بَدَأَ قَصِيدَةً دَخَلَ فِي صَمِيمِ مَوْضُوعِهِ..**"[247] ولا شك أنَّ هذا تجديد شعري، وقديما قال أبو نواس ساخرا عن النمط القديم:

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسْ

وَاقِفا، مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسْ

فأنكر النسيب، وزعموا أن أول من فتح هذا الباب وفتق هذا المعنى (الاستهلال بالخمريات) هو أبو نواس بقوله:[248]

لا تَبكِ لَيلى وَلا تَطرَب إِلى هِندٍ

وَاشرَب عَلى الوَردِ مِن حَمراءَ كَالوَردِ

أما الملمح الثاني فهو **إضافةُ الخُصُوصِيَّاتِ الإفريقية**: وأعني بذلك إبرازَ المشاعر والأحاسيس النابعة من الحياة الواقعيَّة، المنبثقة عن التجربة والممارسة، وذلك أن المدرسة التقليدية اعتمدت على وصف أحاسيسَ ومشاعرَ لم يعايشها ولم يشاهدها -وهو اتجاه أغلب الشعراء السنغاليين- كما في وصف الأطلال والدِّمَنِ والمنازل الدارسة، أو وصف غزل لأسماءَ لا تعكس الهويةَ والمُسمَّيات الافريقية، كدعد وهند وسلمى، أو الأماكنَ ك "سَلَم" أو كاظمة، فجاء اتجاهُ الشيخِ وهو يعلن مبدأ الاستقلالية في الاستهلال بأن يضفيَ قصائدَها بخصوصياتٍ توافقُ والواقعَ المعيش، وتظهر هذه الخصوصيات كثيرا في أشعار الشيخ؛ كما يقول في إحدى قصائده المطرزة بآية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الإسراء: 65) وهي قصيدة ذكر فيها أهمَّ الأماكن التي مَرَّ بها أو قام فيها في الغيبة البحرية مع ذكر شيء مما قاده الله له في كلِّ مكان تحدثا بالنِّعَمِ:[249]

أَيَّسَ مِنِّي اللّٰهُ عِنْدَ "جِيوَلِ"

إِبْلِيسَ إِذْ نَادَيْتُهُ بِيَا «وَلِي»

نَفَى لِغَيْرِ اللّٰهُ قَبلُ فِي "انْدَرِ"

بِأَهْلِ بَدْرٍ الْأُسُودِ كَدَرِي

نَفَى لِغَيْرِ اللّٰهِ فِي "انْدَكَارُ"

كُلَّ أَذىً لِي جَرَّهُ مَكَّارُ

---

(246) اضطراب في التعبير أو خطأ مطبعي بنقص سطر في الفقرة، وما بين المعقوفتين من وضعنا.

(247) عَامِرْ صَامْب، **الأدب السنغالي العربي**، 257/2.

(248) ينظر: ابن رشيق، أبو على الحسن القيرواني الأزدي (ت. 463هـ). **العمدة في صناعة الشعر ونقده**. جزآن. تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان. ط.1. (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2000)، 368/1.

(249) قصيدة "أَيَّسَ مِنِّي.." ملحقة ضمن **جَزَاءُ الشَّكُورُ الْعَطُوفُ**، ص111.

بَرَّأَنِي اللهُ لَدَى "كُنَاكِرِ"

مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَى الْمَنَاكِرِ

فهذه التِّطْوَافَةُ الجميلة في المحطات تعكس خريطة مطابقة لمسار الشيخ، تكفي لأن ترسم رسومات وصور وخرائط، ولا شك أن هذه لديها أهميتها البالغة في النصِّ الرحلي، ويمكن أن نسميها بعلامات غير لغوية تساهم بشكل كبير في استنطاق النص لاِسْتِخْرَاجِ مَكْنُونَاتِ صُدَفِهِ وَجَوَاهِرِ دُرَرِهِ.

يعكس ما تقدم، كيف استعمل الشيخُ الرحلةَ مدخلاً لاتجاهه الفني[250]، من خلال الاستغناء بالمقدمات ثم وصفه الأماكن الجغرافية، مُوحِيِ إلى استقلاليته الأدبية، وهو استقلال سَيُرَسِّمُه تلاميذه فيما بعد، حتى نجد الشيخ إبراهيم جُوبٌ المَشْعَرِي يصرح مفتخرا في مدحِ شيخه وَمُبْرزا خصوصيته الأدبية:[251]

مَا لِي بِبَغْدَادَ شَوْقٌ لاَ وَلاَ فَاسِ

لَكِنْ بِرُؤْيَا "جُلُفٍ" قَدْ بِعْتُ أَنْفَاسِي

الرحلة والتجربة الشعرية: "ثنائية البحر والبر"[252]

ارتبط البحر والبرُّ "الصحراء" قديما وحديثا بمجموعة من التمثلات في المخيال الشعري، فإذا كان البحر يمثل الحرية والجمال والوجودَ بشكله اللاَّمتناهي عند الرومانسيين، فإنَّه أيضا يرتبط بمعاني الغربة والتيه والضياع والمغامرة، ويعكس في الذاكرة الإنسانية بالخروج والإخراج ومأساة الرحيل، ولعلَّ هذا الاستعمال الأخير هو الرائج في كتابات الشيخ الخديم، فثنائية البحر والبر طاغيةٌ في قصائده، إذ يكفي إجراءُ مسح سريع على قصيدة مثل "مُقَدَّمَاتُ الْأَمْدَاحِ فِي مَزَايَا الْمِفْتَاحِ" للوقوف على معجم البحر بعشرات المرات، وهو بدلالته السيمائية مرتبط بنفيه إلى غابون، فيقول: "وَخَرَجْتُ مِنْهَا [=دكار، يوم السبت 21 سبتمبر 1895م] إِلَى **سَفِينَةِ الْبَحْرِ** التِي كَفَانِي بِهَا الْكَافِي الْمُمِيتُ ذَوِي الدَّحْرِ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ «كَبُكْ» Gabon [في 2 أكتوبر 1895م] الشَّهِيرَةِ، وَشَقَاوَةُ أَهْلِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنْدَ أَحِبَّاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ مَشْهُورَةٌ، وَمَكَثْتُ فِيهَا مُدَّةً غَيْرَ طَوِيلَةً [=نحو 6 أشهر] وَلَمْ أَرَ فِيهَا مَنْ يَطْلُبُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا مَنْ يَطْلُبُ سَبِيلَهُ."[253] وبعده ارتحل منها إلى جزيرة « مَايُنْبَا» ومكث فيها خمس سنوات، ثم ذهب إلى جزيرة «لَمْبَرِينَا» حيث بقي لمدة ثلاث سنين إلا قليلا، قبل أن يرجع إلى «السنغال» يوم الثلاثاء 11 نوفمبر 1902م. هذا التغريب لمدة ثماني حِجَجٍ إلا قليلا بين الجُزر المتوحشة ما كان أن يَمُرَّ خافتا على إنتاجاته الشعرية، وهو ما يفسر طغيان معجم البحر في قصائده.

أما البرُّ، فيعني في هذا السياق الغيبة الثانية أو الغيبة البرية، وهي المدة التي قضاها الشيخ الخديم أيام تغريب المستعمرين له في أرض البَيَاضِين

---

(250) لقد فصلت أكثر في اتجاه التقليد والتجديد في الأدب السنغالي العربي في بحثي الإجازة الموسوم ب"**الدرس النقدي العربي في السنغال، دراسة تحليلية لكتاب عامر صامب؛ الأدب السنغالي العربي.**"

(251) الشيخ إبراهيم جُوبٌ المَشْعَرِي. **الديوان**. تحقيق: عبد القادر امْبَاكِي وشعيب تِيَاوْ. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. ط. 2. (الرباط: دار الأمان، 2021)، 211-212.

(252) من الأمانة التنبيه إلى أَنِّي التقطتُ هذه الفكرةَ أول وهلة من خلال قراءتي لبحث سَيِّدِنَا عيسى صَامْب الذي حلل فيه قصيدة "مقدمات الأمداح"، وذلك في إشارة سريعة، وقد حاولتُ بلورة الفكرة وربطها أكثر بتجربة الرحلة. فللباحث فضل السبق، وقد لا يدركُ الظَّالِعُ شَأْوَ الضَّلِيعِ.

(253) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَطْوُفِ**، ص62.

[موريتانيا] له من 1903 إلى 1907م ، وهذه الرحلة لم يُوَثِّقْهَا الشيخُ -في حدود عِلْمِنَا- كما فعل مع الغيبة البرية في "جزاء الشكور" ، لكن هناك لمساتٌ واضحةٌ لهذه المرحلة في أشعاره[254] كما يقول: [من البسيط][255]

حَمْدِي وَشُكْرِي لِمَنْ كُلِّي بِهِ صَارَا

لَهُ رِضىً دُونَ سُخْطٍ عِنْدَ «صَرْصَارَا»

****

إِنَّ الذِينَ إِلَى «صَرْصَارَ» قَدْ قَصَدُوا

زِيَارَتِي فَارَقُوا الدَّارَيْنِ أَوْزَارَا

إذن فإن ثنائية البحر والبر في كتابات الشيخ أيقونة لهذا التغريب ، وفضاء واسع يمتزج بنفسية الشاعر ، ويتماهى مع القصيدة وصفحة الكتابة ، فهما يعيدان الانسجام المفقود بين العلامات المكانية المتناقضة عند ما يجتمع البحر والبر ، ليُفْرِزَا تَوَحُّشَهُمَا على الذات ، فهما يرمزان إلى التيه والضياع ، حتى سَمَّتِ العربُ الصحراءَ [وأرض موريتانيا كلها صحراء] بالمَفَازَةِ تفاؤلا بفوز صاحبها والخروج منها سالما معافىً ، لكنَّ هذه الذات بدَلَ أن تنكسرَ وتستسلم لمخالب الطبيعة تَقَوَّت مُقَاوِمةً بِقُوَّةٍ كقوة التحديات ، سلاحها الفكر والعلم؛ يقول: [من الكامل][256]

وَمَقَالُكُمْ إِنِّي أُجَاهِدُ صَادِقٌ

إِنِّي لِوَجْهِ اللهِ جَلَّ أُجَاهِدُ

إِنِّي أُجَاهِدُ بِالْعُلُومِ وَبِالتُّقَى

عَبْد خَدِيم وَالْمُهَيْمِنُ شَاهِدُ

وهكذا خَذَلَ الْعَدُوَّ ، وَهَزَمَ جُمُوعَهُم ، وفَلَّ حِدَّتَهُمْ ، وهذا كان السبب الرئيسي في توثيق الغيبة البحرية ، وهو التحدث بالنعم من باب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11] ، فبالرحلة اكتسبت الغنائم ، واقْتَنَى المَزَايَا؛[257]

عَطَايَاهُ فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ تَقُودُنِي

إِلَى شُكْرِهِ[258] مُذْ طَيَّبَ النَّفْسَ وَالْمَرْعَى

عَجَائِبُهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لِي بَدَتْ

بِكَوْنِكَ مَخْدُومِي وَلِي أَوْصَلَ النَّفْعَا

إنَّ الحقلَيْن الدلاليين للعطايا والعجائب يُخَبِّئَان دلالاتٍ كثيرةً ، فلا يكفي تحرير مائة صفحة أو يزيد من

(254) للتفصيل يراجع: **الغيبة البرية للشيخ الخديم: أسباب وآثار** (1321-1325هـ/1903-1907م). أعمال محاضرة المَكَلْ 1440هـ/2018م ، الإعداد: عيسى عافية غَي. (طوبى ، روض الرياحين ، 2018م).

(255) صرصارا: موضع معروف ، يبعد عن الطريق الرابط بين نواكشوط وبوتلميت بنحو 30 كلم. ينظر النص الكامل في **إرواء النديم** ، ص165.

(256) ينظر مقدمة تحقيق ديوان "سعادات المريدين" ، ص25.

(257) الشيخ الخديم. "مُقَدَّمَاتُ الْأَمْدَاحِ فِي مَزَايَا الْمِفْتَاحِ". ضمن ديوان "**سَعَادَاتُ الْمُرِيدِينَ فِي أَمْدَاحِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ**" ، منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدراسين ، ط1. (الرباط: دار الأمان ، 2021) ، 88.

(258) يقول الشيخ في ختام هذه القصيدة (اللهم يا هادي يا كريم يا سلام يا شكور صل وسلم..) ويرمز بأوائل الأسماء الأربعة إلى سنة هكسش ، أي 1325هـ/1907م ، وفيها رجع من غيبته البرية.

استيعاب حمولاتها تفصيلا وتحليلا ، ويكفي من القول بأن البعد الكراماتي باهتٌ في هذه الرحلات ، وعلى قول المؤرخين فإن الشيخ خَضَعَ لأكثر من 285 ابتلاء واختبار ، (عدد آي سورة البقرة) نجح فيها جميعا ، ولو ازْدِيدَ لَزَادَ. ثم إنَّ التأويل الرمزي لهذه الكرامات من أقوالٍ وأفعالٍ وتَنَبُّؤاتٍ يكفي لإبراز القيمة الحكائيَّة لهذه الرِّحلات من جانبها العِرْفَاني.

يعيد الشاعر صياغة البحر من منظور إنساني ، فيخاطبه مرتجلا وهو في جزيرة «مَايُنْبَا»[259]

لِيَ اشْهَدْ بِكَوْنِي عَبْدَ مَنْ يَغْفِرُ الذَّنْبَا

وَكَوْنِي خَدِيمَ الْمُصْطَفَى بَحْرَ «مَايُنْبَا»

ويقول في البيت التاسع ، ما قبل الأخير؛

أَيَا بَـحْرُ وَحِّدْ لاَ تُثَلِّثْ فَرَبُّنَا

تَعَالَى عَنِ التَّثْلِيثِ أَكْرِمْ بِهِ رَبَّا

ويتخذ الشاعر البحرَ أنيسا في ظل غربته ووحدته ، وكأنَّ النداء[260] نفسه الذي وظفه الشاعر العربي القديم حينما وقف واستوقف وبكى واستبكى وقوفا على الأطلال ، ومستذكرا برحال الأحباب ، "فَكَأَنَّهُ فِكْتُورْ هِيغُو الْمَنْفِيُّ ، وَهَذِهِ الْأَلْحَانُ وَحِيدَةٌ فِي الْوَثَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ مِنَ الْأَدَبِ السِّنِغَالِي الْعَرَبِيِّ ، فَالشَّاعِرُ يُخَاطِبُ الْأُوقِيَانُوسَ وَأَمْوَاجَهُ ، فَشَكَاهُ مِنْ آلَامِهِ ، وَجَعَلَ الْيَمَّ شَرِيكَ لَهُ فِي أَنْ يَشْهَدَ أَنَّهُ صَادِقُ الشُّعُورِ بِغَيْرِ شِرْكٍ وَلَا نِفَاقٍ. [...] فَالشَّاعِرُ جَرَى مَجْرَى أَبِي فِرَاسٍ الْحَمْدَانِي فِي سِجْنِ الرُّومِ ، أَوْ فِكْتُورْ هِيغُو فِي صَخْرَةٍ بِجَزِيرَةِ كَرْنَسِيْ [Guernsey] أو هويد الشَّاعِرِ اللاَّتِينِي الْمَسْجُونِ فِي كُنْسْتَنْزَا."[261] وهنا يُكسبه الشيخ بُعدا إنسانيا ، متجاوزا المساحةَ الجغرافية ، بل أكثر من ذلك يتخذه شهيد على الوحدانية ما يعني أنَّ رؤية الشيخ للكون كلِّها تنحصر في العبودية لله تعالى سبحانه ، وبتعبير آخر «نفي الذات وإثبات الذات» ، كما يَصُوغُهُ الفيلسوفُ الباكستاني محمد إقبال (1877-1938م) ، فنفي الذات يكون أمام الخالق ، وإثباته أمام الخلق.

وتطبيقا لهذا المبدأ الثاني ، يوظف الشاعرُ ثُنَائيةَ البر والبحر دعوةً جَفْلَى للناس للانخراط في دعوته التجديدية ، يقول: [شبيه مشطور مُخَلَّعُ البسيط] [262]

يَـــــا أَهْـــلَ بَـــرٍّ

يَـــا أَهْـــلَ بَـــحْرِ

عُـــــوجُوا لـــــبَرِّ

بَـــــحْرِ السّـــــخَـــــاءِ

فهذه الذات المُخلِّصة منفتحةٌ على العالم ، مُسَالِمَةٌ مَعَ الْجَمِيعِ ، رحبةُ الذراع ، صافية الندى ، فعالمية دعوته تقتضي توسيع الدائرة كما ارتضاه الشيخُ ، وعدم صِبْغِ الطَّريقة بالصبغة المحلية البَوَلِيَّة ، كما يسميه

(259) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشُّكُورُ الْمَعْطُوفُ** ، ص64. و«**مَايُنْبَا**» [Mayumba] مدينة ساحلية تقع في جنوب دولة غابون من مُحافَظَةِ «انيانغا» [Nyanga] تبعد عن العاصمة «ليبرفيل» [Libre Ville] بنحو 446 كلم ، ويسكنها قبائل «فيلي» [Vili] ، وقد مكث فيها الشيخ المؤلف الخمس سنوات الأولى من غيبة البحرية.

(260) ولقدْ وَثَّقَ لَنا سَرِينْ مُوسَى كَاهْ حوارات الشيخ الشَّيِّقَة مع البحر ، في "**جزاء الشكور البحري**" (ينظر الأبيات 329-336).

(261) عامر صَامْب. **الأدب السنغالي العربي** ، 2/261.

(262) الشيخ الخديم ، "مَوَاهِبُ النَّافِعِ فِي مَدَائِحِ الشَّافِعِ" ، ضمن ديوان **سَعَادَاتُ الْمُرِيدِين** ، ص293.

الباحث عُمَرُ بَاهْ[263] بـ(*La Baolisation du Mouridisme*) حَتَّى يَـمِيزَ الثَّابِتُ مِنَ الْمُتَحَوِّلِ والغَثُّ مِن السَّمِين.

الرحلة والاغتراب: صورة الأنا والآخر

لطالما تساءَلَ النُّقَّادُ قديم وحديثا عن سِرِّ خُلُودِ الْأَعْمَالِ الأدبية ضمن الأنشطة الإنسانية، هل بالتطرق إلى الموضوع الإنساني والتجربة الشاملة؟ وهل بشرف المعنى وجلاله؟ أو بحسن اللفظ وبديعه؟ وتهِ التساؤلات أَفْرَزَتْ نتيجةً مفادُها أنَّ تَضَمُّنَ الشعر للجوانب الإنسانية مع "النظم" [تناسب اللفظ والمعنى في التركيب] هو سِرُّ خُلُودِهِ بحيث يجعل أثرا في الملتقي، وتتجدد قِراءَتُه في كل زمان، ويتعاقب تداولُه في كل عصر، كما يُنَظِّرُهَا إيزر Iser وياوس Jauss في "نظرية التلقي والقراءة"[264] [Théories de la réception et de la lecture] وهذا سِرُّ إعجابنا بالْمُعَلَّقَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ والروائعِ الأدبية العالميَّة إلى الآن. ومن أكثر المواضيع اللصيقة بالشعور الإنساني وبتجربته قضايا الغربة والحنين، التي يجعلها الناقد حازم القرطاجني (ت. 684هـ) دافع قول الشعر الأساسية، والذي يتلخص في إحداث التأثير في المتلقي بواسطة التخييل والمحاكاة[265]. وبالرجوع إلى كتابات الشيخ الخديم نلحظ ورودَ معجم "الغربة" أو "الاغتراب" بشكل باهت، وهو قضية لصيقة بما قدمناهُ في تجربة ثنائية البر والبحر المرتبطة بالرحلة فقط، أمَّا الاغتراب فلازمه لمدة 33 عاما وهو في أيدي المستعمر، ولم يهنأ بسلام منهم إلى أن ارتقى بالرفيق الأعلى.

إن مصطلحَ الغربة والاغتراب مصطلح ضاربٌ جذورُه في الثقافة الإسلامية، فقد جاء في الحديث ﴿بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ﴾ [صحيح مسلم: 145]، ويُنَظِّرُه أهلُ التصوف بالبُعد عن الناس للعبادة، باعتباره ظاهرةً صحية، أما عند المجتمعات الصناعية الغربية فيعني البعدَ عن الذات عملا وفكرا وسلوكا[266]، في حين تعكس فلسفة الاغتراب [Aliénation] عند الشيخ بالمعاناة والضيق الذي عايشه في سبيل بناء مشروعه الإصلاحي، وهو بذلك يقرب من الدلالة المعجمية للكلمة، وهو **غربة مكانية** يترجمهما بُعْدُه عن الوطن والأهل والأحباب، بخلاف ما كان يعيشه في قريته "طُوبَى" بين مئات من مريديه يخدمون لجنابه ويسهرون على رغباته، ويُوَقِّرُونَه غايةَ التوقير والتبجيل.

فهذه الرحلة الشاقة التي يُصَوِّرُهُ المستعمرُ على أنه الخلاص الوحيد لتفريق جمعه واستئصال شأفةَ

(263) في مداخلة حضرتُها، على هامش ندوة "عالمية دعوة الشيخ الخديم وضرورة صونها"، التي نظمها **ديوان المعارف ومجالس**، في الفترة من 9 إلى 11 سبتمبر 2022م في الساحة الشرقية لجامع طوبى الكبير.

(264) ينظر: روبرت هانس ياوس. **جمالية التلقي: من أجل تأويل جديد للنص الأدبي**. ترجمة رشيد بنحدو. ط1. (بيروت، منشورات ضفاف، 2016). وفولفغانغ إيزر. **فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في (الأدب)**. ترجمة حميد لحميداني & الجلالي الكدية. (فاس: منشورات مكتبة مناهل، د.ن).

(265) ينظر: فاطمة طحطح. **الغربة والحنين في الشعر الأندلسي**. ط. 1. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1993)، 22، نقلا عن "مِنْهَاجُ الْبُلَغَاء وَسِرَاجُ الْأُدَبَاء" لحازم القرطاجني.

(266) ينظر: فاطمة طحطح. **الغربة والحنين في الشعر الأندلسي**، 33-35.

تأثيره ما كانَت أنْ تُثمِرَ وتأتِيَ أُكُلَهَا في ظلِّ صمود الشيخ وتوكله على الله؛[267]

يَظُنُّونَنِي وَقْتَ اغْتِرَابِي لَدَيْهِمُ

أَسِيرٍ لَهُمْ وَالْكُلُّ ثَمَّ يَخُورُ

فقد باءوا بالخسران المُبين ، في حين أنَّ الشيخ حصل ما أراد ونجحَ في مشروعه ونجا من كيد الأعداء. فمَنْ غَمَسَهُ بَحْرُ الْبَلْوَى ، طَرَحَهُ إلى سَاحِلِ المَدى؛[268]

نَجَاتِي مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْبَحْرِ وَالْبَلَا

غَرِيبٍ وَحِيدٍ مِنْ حَفِيظٍ مَلَا الْجَرْبَا

****

بِمَدْحِي رَسُولَ اللَّهِ فَارَقْتُ غُرْبَةً

وَلِي سَاقَ رِزْقٍ مَا لَهُ الدَّهْرُ مِنْ نَفَدْ

[269]

وهذه التجربةُ الفريدة والرحلةُ المُضْنِيَةُ لا يستطيع تَحَمُّلَها كلُّ من هبَّ ودبَّ ، فلا بُدَّ من العنايةِ الإلهيَّة والرغبةِ الدَّؤُوبةِ في مواصلة السير مع وُعُورَة الطريق وفقد الأنيس ، فهل يمكن إعادة التجربة؟[270]

مَنْ شَكَّ فِي ذَلِكَ فَلْيُجَرِّبِ

وَمَنْ يُجَرِّبْ بَاءَ بِالتَّغَرُّبِ

هذه العَيِّنات تعكس صورة الذات المنتصرة ، التي فَضَّلت التحدث بمآل ذلك الاغتراب من مُكتسبات وغنائمَ بدلَ الاغتراب نفسه ، من شَجْوٍ وَتَشَكٍّ وَتَظَلُّمٍ ، فقد باعت الشكايةَ بالشكر؛[271]

نَسَخْتُ بِالشُّكْرِ الشِّكَايَةَ فَلَمْ

يَشُكْ لَهُ الْعَامَ المِدَادُ وَالْقَلَمْ

إلاَّ أنَّ تَحْلِيلَ معجم "الاغتراب" انطلاقا من البيانات التاريخية المتوفرة تكشف بجلاء عن حجم المعاناة النفسية والجسدية وثقل حمل المشروع.

فهذا الاغترابُ أَذْكَى في نفسية الشيخِ جَذْوَةَ الشوقِ والحنينِ ، وحرَّكَ فيه مشاعرَ الانتماءِ إلى الوطن ، ما يؤكد أنَّ شعرَ الاغتراب مرتبط بدوافعَ فطرية إنسانية أصيلة ضاربة في لاَوَعْيِ الشعوب ، فقد حَنَّ إلى "طوبى" وتَمَنَّى تَعَجُّلَ الإياب. ويُحْكَى أنه "مَكَثَ [في غَابُونَ] مُدَّةً طَوِيلَةً لَمْ يَتَكَلَّمْ مَعَ أَحَدٍ بِلُغَتِه ، وَلَمْ يَسْمَعْ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِهَا؛ [...] وَذَاتَ يَوْمٍ سَمِعَ رَجُلَيْنِ يَتَكَلَّمَانِ بِاللُّغَةِ الْوُلُفِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ فَصِيحَةٍ ، وَأَخَذَتْهُ شِدَّةُ الاشْتِيَاقِ ، ثُمَّ تَذَكَّرَ الْأَهْلَ وَالْأَحْبَابَ وَالدِّيَارَ؛ فَأَلَّفَ قَصِيدَةً دَعَا فِيهَا رَبَّهُ أَنْ يُعَجِّلَ أَوْبَتَهُ إِلَى وَطَنِه ،"[272] يَقُولُ فيها: ﴿وَأَرْجُو رُجُوعِي عَاجِلاً خَيْرَ مُنْعَمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَرُدَّنِي ، سَرِيعٍ إِلَى طُوبَى وَحُطْنِي وَعَلِّمِ﴾[273] . وهذا الحنينُ المَكَاني قد يتجاوزُ موطنَه ويحترقُ حدودَه الجغرافية ليتعلق بالحِجَاز؛ المكان الذي طالما أَسَالَ -ولا يزال- مِدَادَ الشُّعَرَاءِ والكُتَّاب شرقا وغربا ، فَإِنَّ اشْتِيَاقَهُ لزيارة الحبيب ﷺ والفوز بالقرب منهُ جِسْمٌ كانَ أَشَدَّ ، فلاَ شيءَ يستطيعُ أن يُطْفِئَ نارَ شوقِه إلا بالرحلة إليه؛ إلاَّ أنَّ هاجسَ إكراهِ

(267) قصيدة (أسير مع الأبرار).

(268) من قصيدة (رضيتُ) المطرزة بـ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ، مطلعُها: (رَضِيتُ عَنْ الْمَوْلَى تَعَالَى الذِي رَبَّا = =فُؤَادِي وَأَغْنَانِي وَأَكْرِمْ بِهِ رَبَّا).

(269) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ** ، ص80.

(270) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ**ص68.

(271) من قصيدة مقيدة بـ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ، مَطلعها: (حَمْدِي لِرَبِّ الْعَالَمِينَ سَرْمَدَا= =مَنْ لاَ يُرِينِي ضَرَرَ أَوْ كَمَدَا).

(272) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ** ، ص45.

(273) من قصيدة (ألا إنني أثني) مطلعها: (أَلاَ إِنَّنِي أُثْنِي عَلَى خَيْرِ مُنْعَمٍ= =وَلاَ أَشْتَكِي لِلْخَلْقِ مِنْ فَقْدِ أَنْعُمِ).

الذَّات وكثرة المُعوِّقات حالت دون تحقيق حلمه ، فكان الحلُّ القيامَ **بِرِحْلَةٍ رُوحِيَّةٍ** ، التي أكثر ما تكون أنجعَ وأثمرَ من الرحلة الجسدية ، يقول الشَّيْخُ في رائيَته الرَّائعة؛[274]

وَهْوَ الذي عيقَ جِسْمِي عَنْ زِيَارَتِهِ

لَكِنْ لِسَانِي لَهُ كَالْقَلْبِ زَوَّارُ

وبعد موته بسَنَةٍ -رضي الله عنه- ستَحَقَّقُ الرحلةُ الحجازيَّة بقيام ابن خَاله سرين امباكي بُوصُو (1864-1945م) بالْحَجِّ نيابة عنه ، بسبب: "أنَّ الشَّيْخَ الْخَدِيمَ لَمْ يَبْقَ لَهُ حِينَ وَفَاتِهِ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا - فِيمَا نَعْلَمُ - إلاَّ ثَلاَثٌ: أَدَاءُ فَرِيضَةِ الْحَجِّ ، وَبِنَاءُ مَسْجِدٍ جَامِعٍ فِي طُوبَى ، وَبِنَاءُ مَدْرَسَةٍ تَكُونُ رِحْلَةَ السِّنْغَالِ إِلَيْهَا فِي الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ شَرْعِيَّتِهَا وَآلاَتِهَا."[275]

إنَّ الرحلةَ عندَ الشَّيْخِ الخديم لم تخلُ من حديثٍ عن الثقافة وقضاياها في إشاراتٍ مُقْتَضَبَةٍ ، ذلك أنَّ للرحلة أبعاد أنثروبولوجيةً ، وتدخل ضمن مرويات السرد الثقافي ، الذي يُجلِّي صورةَ الآخر ذهنيّ واجتماعيا ودينيّ ، كما يُؤَكِّدُه الدكتورُ عبدُ الله إبراهيم مؤلف **موسوعة السرد العربي** (9 أجزاء): "فأدبُ الرحلة [...] إطَارٌ ناظِمٌ لجملةٍ من التنوُّعَات الأسلوبية ، والرُّؤَى الذاتيَّة ، والمواقف الثقافية ، والأحكام القيَميَّة ، والاكتشافات الجديدة ، ومغالبة الشعور بالاغتراب ، والانقطاع عن مَنَابِتِ الطُّفُولَة ، والغَوْصِ في مناطقَ نَائِيَةٍ ، ثمَّ العودة المظفَّرة بذخيرة عجائبَ حقيقيَّةٍ."[276] فالآخر هنا مُتَعَدِّد ، ولكل صورتُه الخاصة نتيجةَ تَوَرُّطِه في القضية إن إيجابا أو سلبا ، فنجد المستعمرَ يُصوَّر على أنَّه *المُغرِّبُ*[277] ، *ذو السُّوءِ والضَّرر ولا يفارق الشَّرّ ، وذو طَلاَحٍ وقِلَّةٍ ومَكْرٍ*[278] . ثم يحكي واصفا أهل غابون قائلا: "تِلْكَ الْأَرْضُ التِي لَيْسَ فِيهَا مَنْ يَعْرِفُ بِالسُّنَّةِ وَلاَ بِالْفَرْضِ."[279] ويضيف: "وَلَمْ أَرَ فِيهَا مَنْ يَطْلُبُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا مَنْ يَطْلُبُ سَبِيلَهُ."[280] تقتضي هذه الأوصاف دراسة الحالة الدينية لدى سكان تلك الجزُر كبافل [Vili]؛ قبيلة في «مَايُنْبَا» وكَلْوَى [Galwa]؛ قبيلةٌ في «لَمْبَرِينَا». ولا شكَّ أنَّ كتابات الشيخ مصدرٌ غَنِيٌّ لِمَعْرِفَة تَطَوُّرِ الْحَالَةِ الدِّينية لأهل تلك الناحية. وتتغير صورة السرد لدى وصفه لأهل موريتانيا في غيبته البَرِّيَّة ، فيصفهم ب«أَهْل الصُّوف» و«البَرَرَة» و«الْأَبْرَار» و«الصَّالِحُون» أو «أَرْضُ شِنْقِيط» أو «أَرْضُ الصَّالِحِين»[281] وهذا التَّبْئِيرُ [Focalisation] السَّرْدِي يكشف بجلاء عن إسباغ الشيخ كل قيم الخير والصلاح لأهل موريتانيا ، وبذلك يخلق الجسر التواصلي العلمي الناجح بين البلدين.

---

(274) "قصيدة "الرائية" التي مطلعها: (قَلْبِي لَهُ في عِتَاب الجِسْمِ تَكْرَارُ=لِأَنَّه لِلْهُدَى والنُّورِ جَرَّارُ) ضمن **ديوان سعادات المريدين** ، ص59.

(275) **من رسَائل الشيخ محمد البُصُوبي المشهور بالحَاج امباكي بوسُو** ، جمع الدكتور خديم محمد سعيد امباكي ، (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية: 1996) ، 177- 178. وقد تحدثنا باقتضاب عن هذه الرحلة في الإحالة رقم 9.

(276) إبراهيم ، عبد الله. "الرحلة بوصفه سردا ثقافيا". مقال منشور في **جريدة الرياض** ، 6 يناير 2011 ، الرابط: https://www.alriyadh.com/592205 (اطلع عليه بتاريخ 21 يوليوز 2023).

(277) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ** ، ص60.

(278) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ** ، ص77.

(279) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ** ، ص70.

(280) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ** ، ص62.

(281) الشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورِ الْمَعْطُوفُ** ، ص77.

فقارن بين الصورتين؛ أجواء الفجور والفسق ، وأجواء الصفاء والوُدَّ.[282]

في ضوء ما سبق ، نخلص إلى أن سُرُودَ الارتحال قامت بتمثيل الذَّات والآخر استنادا إلى آليةٍ مُزْدَوَجَةٍ تَخِذَتْ أشكالا متعارضة ، تتأسس على جدلية الخير والشر ، والصلاح والطَّلاح ، والاغتراب والانشراح ، والذهاب والإياب ، ساهمت في تَشْكِيلِهَا وتَشَكُّلِها قِوَى فاعليَّةٌ متعددةٌ ، بدءً بذات الشيخ ، مرورا بالوسائط؛ الاستعمار وعملائه ، وانتهاءً بالأراضي المُسْتَقْبِلَة في ناحية البر أو البحر.

تركيب: ما يشبه الخاتمة

تَبَيَّن للقارئ من خلال هذه الورقة هَاجسُ إشراق الروح وإكراه الذَّات في رَحَلَات الشيخ أحمد بمب البَكِيِّ ، فإشراقُ الرُّوح تَمثَّل في الرحلة الرُّوحيَّة نحو الحِجَاز وإشراك سَاكِنها عليه أفضل الصلاة والسلام في عمليَّة الرحلة في كل مساراتها ومسالكها ، ما خَفَّفَ من وُعُورَة الطريق وذَلَّل العَقَبَات ووَقَى المَهَالك ، أمَّا إكراهُ الذات فتمثَّل في السُّلُطَاتِ الاستعماريَّةِ وعُمَلَائِها التي وَقَفَتْ حَجَرَ عَثْرَةٍ على مشروعه الإصلاحي والتجديدي ، فقد عبَّر الشيخُ عن هذه التجربةِ من خلال توظيفه الحقولَ الدلالية «للبحر» و«البر» و«الاغتراب». وهذا جعل الرحلة تحقق جماليةً في الإمتاع ومَتَانةً في الإقناع ، فكتابة السفر مع تضمين الذات الموضوعية ثم ربطه بالسَّرْدِيَّات عناصرُ تستدعي مزيدا من الدراسة والتحليل بزوايا مختلفة ، وهذا يَتَطَلَّبُ قارئَ الرحلة أن يمتلكَ عينَ يقظةً وثقافةً موسوعيةً وذكاءً اجتماعيّ وحسّ تواصليا حتى يسبُرَ أغوارَهَا ويُمِيطَ لِثَامَهَا ويَكْشِفَ خَبَايَاهَا وخَفَايَاها ، ولَعَلَّ دارسِ آخر يأتي ليُكْمِلَ النَّاقِصَاتِ ويَسُدَّ الثَّغَرَاتِ.

---

(282) ويوضح هذه المفارقةَ قولُ الشيخ في البيتين: ينظر:

الغيبة البرية ، ص10.

بَايَعْتُهُ فِي الْبَحْرِ تَحْتَ الشَّجَرَة==وَالْبَحْرُ مُزْبِدٌ وَحَوْلِي الْفَجَرَة

*****

بَايَعْتُهُ فِي الْبَرِّ تَحْتَ الشَّجَرَة==وَالْجَوُّ طِيبٌ وَحَوْلِي الْبَرَرَة

لائحة بأهم المصادر والمراجع

أبو على الحسن القيرواني الأزدي ابن رشيق (ت. 463هـ). **العمدة في صناعة الشعر ونقده**. جزآن. تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان. ط.1. (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2000).

سرين امباكي بُوصُو. **من رسَائل الشيخ محمد البُصُوبي المشهور بالحَاج امباكي بوسُو**، جمع الدكتور خديم محمد سعيد امباكي، (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية: 1996).

الشيخ إبراهيم جُوبْ الْمَشْعَرِي. **الديوان**. تحقيق: عبد القادر امْبَاكِي وشعيب تِيَاوْ. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. ط. 2. (الرباط: دار الأمان، 2021).

الشيخ أحمد بمب امباكي، المشهور بالشيخ الخديم. "مُقَدَّمَاتُ الْأَمْدَاح فِي مَزَايَا الْمِفْتَاح". ضمن ديوان "**سَعَادَاتُ الْمُرِيدِينَ فِي أَمْدَاحِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ**"، منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدراسين، ط1. (الرباط: دار الأمان، 2021).

الشيخ أحمد بمب امباكي، المشهور بالشيخ الخديم. **جَزَاءُ الشَّكُورُ الْعَطُوفُ فِي جَوَابِ عَبْدِ اللَّطِيف**. دراسة وتحقيق: محمد المرتضى بُوصُو وَمَامْ مُورْ امْبَاكِّي حَمْدِي. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين، ط1. (الرباط: دار الأمان، 2022).

الشيخ محمد الأمين جوب الدَّغَاني (ت. 1968م). **إِرْوَاءُ النَّدِيم مِنْ عَذْبِ حُبِّ الخَدِيم**. دراسة وتحقيق: مجموعة من الباحثين. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1439هـ/2017م).

عامِر صَامب. **الأدب السنغالي العربي**. جزآن. ط.2. (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978).

فاطمة طحطح. **الغربة والحنين في الشعر الأندلسي**. ط. 1. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1993).

محمد العاقل. "الأنا الإسلامي والآخر في الرحلات السَّفَارية-رحلة ابن عثمان المكناسي نموذجا" ضمن **أدب الرحلة: جدلية الأنا والآخر في عالم متغير**، تنسيق خالد التوزاني، ط2. (عمان: دار كنوز المعرفة، 2020).

بَيْنَ إِشْرَاقِ الرُّوحِ وَإِكْرَاهَاتِ الْجَسَدِ... أَدَبُ الرِّحْلَةِ فِي الْكِتَابَاتِ الْخَدِيمِيَّةِ

بقلم الباحث: عبد الله غاي

البعد اللساني التربوي في المنظومات الخديمية

"سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب" نموذجا

اسم صاحب المقال محذوف ، روما للموضوعية في التحكيم

مقدمة

يُعدّ تأليف المتون والمنظومات النحوية من قِبل النحاة واللغويين من الأعمال التي اهتمت بقضية تعليم النحو وتيسيره على المتعلمين؛ مما يدل على وعي الدارسين بضرورة وجود مستوى من المؤلفات النحوية المختصرة والميسرة تناسب النشء من الطلاب ، وقد أثبتت بعض الدراسات التحليلية النقدية لكثير من هذه المتون والمختصرات أنها تحتوي على مجموعة من المبادئ اللسانية التربوية التي يمكن الإفادة منها في بناء مناهج التعليم العام والجامعي ، ومن هذه المبادئ: انتقاء الموضوعات ، والتدرج في عرضها ، وترتيبها ، والوضوح في عناصرها ، وتهذيب قضاياها. هذا ، ومن أهم الأفكار التي اهتمت بجانب أو جوانب من اللسانيات التربوية ، تلك الأفكار المُثْبَتة في الفكر اللساني من التراث السنغالي ، وتتعلق بتعليمية اللغة العربية عامة ، وتعليمية النحو خاصة.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأبعاد اللسانية والتربوية التي تأسست عليها منظومة سعادة الطلاب ، وإبراز قيمتها المعرفية والمنهجية والتربوية ، بالإشارة إلى كيفية الإفادة منها في بناء المناهج الدراسية؛ من أجل ذلك نقدم في هذه الورقة البحثية قراءة تحليلية في منظومة سعادة الطلاب للمؤلف الشيخ أحمد الخديم من خلال إبراز إشكالية البحث بطرح الأسئلة الآتية:

- ما الهدف من تأليف المنظومة؟
- ما هي الأبعاد اللسانية التربوية الموجودة في منظومة سعادة الطلاب؟
- ما هي المناهج اللسانية التربوية التي اعتمدها المؤلف في منظومته؟

واتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي هو المنهج الأنسب لعرض إشكالية البحث.

1- الهدف من تأليف المنظومة

لقد بيّن الشيخ في مقدمة المنظومة الهدف من تأليف هذا المختصر بقوله:

وَبَعْدُ فَالْمَقْصُودُ نَظْمٌ قَدْ بَهَرْ

فِي عَقْدِ مَا الْفَتَى ابْنُ دَاوُدَ نَثَرْ

نَظَمْتُهُ ثَانِيَةً مُخْتَصِرا

لِكَيْ يَكُونَ نَافِعًا كُلَّ الْوَرَى

سَمَّيْتُهُ سَعَادَةَ الطُّلَّابِ

وَرَاحَةً لِطَالِبِ الإِعْرَابِ

ويبدو من خلال الأبيات السابقة أن سعادة الطلاب منظومة عقد بها الشيخ ما نثره ابن آجروم في كتابه المعروف المسمى بـ "المقدمة الأجرومية". فعلى هذا ، فإن سعادة الطلاب مختصرٌ منظومٌ للمبتدئين ، رام المؤلف من خلاله إيضاح القضايا والظواهر النحوية الأساسية دون الغوص في معضلاتها وتفاصيلها؛ مما يجعل هذا المختصر إلى جانب الإيجاز في حجمه يتميز بالبساطة والوضوح والدقة في عرض القواعد

النحوية ، فهو قائم على طريقة الإجمال ثم التفصيل التي اعتمدها المؤلف في جميع أبواب الكتاب لبيان وتوضيح المسائل النحوية في ذهن المتعلّم. فالكتاب يتجاوز دائرة المتعلّمين إلى المتخصصين ، ولكنه كما هو واضح من عنوانه ، و مضمونه – كما سيأتي بيانه – يفيد المتعلِّم المبتدئ أكثر من المتخصّص في استيعاب علم النحو العربي. وفي قول الشيخ عن مختصره: "وراحة لطالب الإعراب" دليل على ما ذكرنا.

2- قراءة في الأبعاد اللسانية التربوية لمنظومة سعادة الطلاب

تُعدّ منظومة سعادة الطلاب من أبرز المنظومات النحوية الرامية لتسهيل القواعد النحوية ، نظمها الشيخ أحمد الخديم وهو منفي في موريتانيا ، ويبلغ عدد أبياتها حوالي ثلاثمائة وثمانية (308) أبيات ، وهي من بحر الرجز(انظر تياو ، 2009 ، 18). والكتاب كما هو واضح من عنوانه يندرج ضمن كتب النحو التعليمي التي تُعنى ببيان النحو الوظيفي النافع لتقويم اللسان والكتابة.

حَظِيت منظومة سعادة الطلاب بشرح وافٍ كافٍ للدكتور أبي مدين شعيب تياو الأزهري الطوبوي يُسمى: "فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب". يعتبر هذا الكتاب القيم مرجعا مهما للطلبة والباحثين في الحقل اللغوي وخصوصا في مجال النحو العربي في بلادنا.

ومما يبين أهمية سعادة الطلاب ، أنها لاقت رواجا كبيرا منذ تأليفها إلى عصرنا الحاضر ، أقبل عليها طلاب علم النحو في بيئة المريدين السنغاليين ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كونها منظومة موضوعة للمبتدئين ، اكتفى الشيخ فيها بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين ، لذلك أهمل العديد من الأبواب التي يرى المؤلف عدم حاجة للمبتدئين إليها مثل: باب الاختصاص وباب الحكاية والاشتغال...إضافة إلى ذلك ، فإن الشيخ قد ابتعد في منظومته عن ذكر التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تُشتِّت ذهن المتعلم بذكر المسائل النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية. ويضاف إلى ما سبق من الأسباب التي أدّت إلى رواج سعادة الطلاب أن صاحبها قد ألبسها رداء أدبيا جميلا فجاءت كلمات المنظومة واضحة ، وعباراتها سهلة بفضل حسن النظم وجودته؛ والغرض من ذلك تسهيل النحو وتعليمه وتقريبه من المتعلمين في طابع مخفف. ولعل من أسباب رواج سعادة الطلاب أنها نُظمت على بحر واحد من الرجز؛ مما يجعل نغمها الموسيقي منسجما ووزنها منقادا في نسق واحد ، فتكون خفيفة على السمع سهلة الحفظ ، "ولا شك أن الأبيات التي ليست من بحر واحد تضطرب فيها الأنغام الموسيقية وتكون ثقيلة على السمع يصعب حفظها ولا ينقاد وزنها في نسق واحد عكس الأبيات التي من بحر واحد" (انظر ممدوح ، 2000 ، 269).

وقد اخترت منظومة سعادة الطلاب لدراستها وتحليلها وفق مقاربة لسانية تربوية؛ لتكون نموذجا لتحقيق الغرض من النحو المتمثل في القدرة على القراءة والمخاطبة؛ لأن الغاية من النحو هي مخاطبة الناس وقراءة كتبهم المؤلفة حسب رأي ابن حزم (1987 ، 66) ، وهي الغاية نفسها التي توخاها الشيخ في منظومته سعادة الطلاب؛ فقد قصد إلى السهولة والوضوح واليسر في عرض أبواب النحو ومسائله على المتعلم ، ويظهر ذلك في الطريقة التعليمية التي صبغ بها منظومته ، والتي سنأتي على ذكر أبرز ملامحها لاحقا.

وقد رام الشيخ من خلال مختصره سعاة الطلاب وضع كتاب في النحو التربوي التعليمي ، يتسم

بالوضوح بعيدا عن الغموض والتعقيد ، يتناسب مع المتعلمين المبتدئين. وبالتالي ، يمكننا اعتبار سعادة الطلاب نموذجا للنحو التربوي التعليمي كفيلا بتحقيق الأهداف التعليمية المتمثلة في الوصول بالمتعلم إلى القدرة على التعبير الشفوي والكتابي. وهذا يدل على أن الشيخ يتمتّع بقدرة كبيرة على النظم ، مكنته من النظم في فني النحو والصرف[283] وغيرهما من فنون شتى من المعارف.

3- القيمة اللسانية التربوية للمنظومة

إن القيمة اللسانية التربوية لهذه المنظومة تكمن في المنهج العلمي الذي تبناه الناظم في معالجة قضايا النحو لغايات تعليمية من أجل تيسيره وتسهيل قواعده ، وجعلها سائغة أمام المتعلم ، عن طريق عرض مادة نحوية تتناسب مع مستوى المتعلمين المبتدئين ، تقوم أساسا على مبدإ الانتقاء من النحو الوظيفي الموضوعات التي تتسم بالفائدة العملية للمتعلم.

يمكننا أن نقول إن تأليف هذه المنظومة في هذه الفترة الزمنية يحمل دلالة واضحة على أن قضية تقريب النحو من النشء والمتعلمين تشكل قضية جوهرية منذ القديم ، هذا من جهة ، ومن زاوية أخرى فإن قضية عرض النحو عرضا جديدا مبنيا على اختيار الموضوعات الأساسية الوظيفية النافعة لتقويم اللسان والكتابة ، قضية تجاوزت اهتمام المتخصصين من النحاة إلى غيرهم من العلماء كالشيخ الخديم؛ مما يؤكد على وعي الكُتَّاب السنغاليين القدماء بهذه القضية.

4- منهجه في المنظومة

قسم الشيخ منظومته"سعادة الطلاب" إلى تسعة وعشرين بابا ، تضمنت أبواب النحو فقط ، وبهذا التقسيم لم يتبع الشيخ المنهج السائد عند عامة النحاة القدماء من تقسيم علم النحو إلى الأبواب النحوية والصرفية وتأخير أبواب الصرف على أبواب النحو ، يقول ابن جني (1954 ، 4) معلّلا ذلك: "لا تكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره" ، ولكن الشيخ تناول الجانب النحوي فقط في منظومته؛ لأن هذا المنهج ينطبق على مرحلة تكوين علم الصرف واكتماله وانفصاله مع علم النحو وانتقال تسميته في كثير من المصنفات إلى علم التصريف.وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج أي عدم عرض المؤلف لموضوعات الصرف في سعادة الطلاب؛ حتى يكون الارتياض على موضوعات النحو سهلا للمتعلم المبتدئ وممهدا له للدخول في فن علم الصرف. وقد بدأ الشيخ منظومته بمقدمة عددها تسعة أبيات ، وختمها بخاتمة عددها ثلاثة أبيات وبين المقدمة والخاتمة عرض أبواب النحو ، وينقسم الأبواب النحوية بدورها إلى قسمين:

القسم الأول: المقدمات النحوية ، وهي عبارة عن أحكام تتناول اللفظ قبل وروده في التركيب ، أتى بها الشيخ تمهيدا للحديث عن الأحكام التركيبية ، وتتكون المقدمات النحوية من أربعة أبوب ، وهي الكلام وما يتألف منه ، الإعراب ، علامات الإعراب ، المعربات.

القسم الثاني: الأحكام النحوية التفصيلية ، وهي التي تخص الكلمة حال تركيبها في السلسة الكلامية ، وينقسم هذا الجزء إلى خمسة أقسام:

1- أحكام الجملة الفعلية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تكلم عن الأبواب التي تتعلق بالمسند إليه في

([283]) فيما يتعلق بعلم الصرف ، قام الشيخ بوضع تعليقات على كتاب "نزهة الظريف وبغية المولع بالتصريف" للعلامة أدييج بن عبد الله الكمليلي الشنقيطي.
[غير سديد عندي أن يُستدل بالشرح على التمكن من النظم ، يرجى إعادة النظر في هذا].

الجملة الفعلية ، مثل باب الفاعل وباب نائب الفاعل ، ثم ذكر أبواب المفعول به والمفعول المطلق والمفعول فيه (ظرفي الزمان والمكان) والمفعول من أجله والمفعول معه وباب الحال والتمييز والمستثنى.

2- أحكام الجملة الاسمية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تحدث عن باب المبتدإ والخبر وأبواب العوامل الداخلة على المبتدإ والخبر وتسمى نواسخ الابتداء ، وهي كان وأخواتها ، وإن وأخواتها ، وظن وأخواتها.

3- التوابع في الجملتين الاسمية والفعلية: بعد فراغ الشيخ من الحديث عن الجملة الفعلية والجملة الاسمية ، ذكر ما يكون تابعا لهما في الإعراب ، وهو باب النعت والعطف والتوكيد والبدل.

4- أحكام خاصة بالفعل: وفي هذا الجزء تحدث الشيخ عن باب الأفعال ، حيث ذكر أنواع الفعل وإعرابه والأحكام المتعلقة به وعوامل النصب والجزم.

5- أساليب نحوية متنوعة: ذكر في هذا القسم باب المنادى دون الخوض في الحديث عن الأساليب الأخرى ، مثل الاستغاثة والندبة والترخيم والاختصاص والتحذير والإغراء... لكون أسلوب النداء يتسم بالسهولة لدى المتعلّم ويبتعد عن التعقيد.

نوّع الشيخ في كيفية عرض المادة النحوية على المتعلم في منظومته؛ فاستخدم عدة طرق ومن ذلك استخدامه **للطريقة الاستنباطية (الاستقرائية)** طريقة "الأمثلة ثم القاعدة" التي تُعد من جملة المبادئ اللسانية التربوية. وهي طريقة قائمة على جهد المعلم في عرض الأمثلة ونشاط المتعلم وفاعليته في المشاركة في استنباط القاعدة من الأمثلة ، فينتقل التلميذ من الجزئيات إلى الكليات ومن القضايا الخاصة إلى القضايا العامة ، وتظهر الفائدة التربوية لهذه الطريقة بكونها تسهم في تكوين إدراك المتعلم؛ لأنه يسلك طريقة تمكنه من الوصول إلى القانون العام بنفسه.

ومعنى ذلك أن الشيخ بنى منظومته على الجزئيات سعيا للوصول إلى الكليات؛ فلم يدرس الجملة الاسمية في إطارها الكلي ، وإنما درس جزئياتها كباب المبتدإ والخبر ، والأمر نفسه بالنسبة إلى الجملة الفعلية ، حيث سعى في دراسة جزئياتها أيضا مثل باب الفاعل ونائب الفاعل وباب المفعول وأنواعه وباب الحال والتمييز...؛ لغرض الوصول بالمتعلم إلى إدراك الكليات النحوية انطلاقا من الجزئيات؛ لأن هذه الطريقة تساعد المتعلم على الترتيب الذهني لكونها طريقة قائمة على الترابط بين الأبواب النحوية.

إضافة إلى الطريقة الاستقرائية اعتمد الشيخ في سعادة الطلاب على **الطريقة القياسية** بنسبة كبيرة ، وهي طريقة تقوم على إعطاء القاعدة ثم الأمثلة ، إنها مبنية على الاستنتاج بحيث ينتقل فيها الفكر من الحقائق العامة (القاعدة) إلى الحقائق الجزئية (الأمثلة) أو بتعبير آخر من الكل إلى الجزء ، والجدير بالذكر أن هذه الطريقة تنسجم مع طبيعة التفكير الإنساني القائمة على التدرج من الكيات إلى الجزئيات ومن الإجمال إلى التفصيل ، ومن أمثلة هذه الطريقة قول الشيخ في باب المبتدإ والخبر:

المُبْتَدَا الاِسْمُ الذِي عَرِيَ عَنْ
عَوَامِلٍ لفْظِيَّةٍ حيث يَعِنْ
مُرْتَفِعًا كَاللّهُ رَبُّنَا السَّمِيعْ
مُحَمَّدٌ نبيُّنَا وهُوَ الشَّفِيعْ

فالبيت الأول يمثل القاعدة ، والبيت الثاني عبارة عن أمثلة توضح القاعدة. وهذه الطريقة هي الشائعة في أكثر المنظومات النحوية ، ومنها سعادة الطلاب وألفية ابن مالك وملحة الإعراب ومقدمة الكُوكِيّ وغيرها؛

لأن كتب النحو التقليدية تتسم غالبا بتقديم القاعدة العامة ثم تتبعها الأمثلة التي تسهم في توضيح القاعدة. وقوله أيضا في باب الكلام وما يتألف منه:

كَلامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدْ

بِالْقَصْدِ نَحوُ إِنَّ هَذَا لَسَعِيدْ

فالشطر الأول من البيت يحيل على القاعدة ، والشطر الثاني يشير إلى المثال الذي يوضح ويثبت القاعدة ، ومعنى ذلك أن الناظم يُقدّم للمتعلّم الدلالة الاصطلاحية لمفهوم "الكلام" ثم يُعطيه نموذجا تطبيقيا محدّدا يؤكد ملاحظاته.

عند فحصنا لمنظومة سعادة الطلاب لا حظنا أن الشيخ سلك في ترتيب موضوعاته منهجين:

المنهج الأول: منهج الانطلاق من تقديم البسيط على المعقد والسهل على الصعب ، وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج في أن المؤلف اعتمد في عرض أبواب منظومته مبدأ التدرج فذكر بعض الموضوعات التي تبدو سهلة نوعا ما على المتعلم المبتدئ قبل الموضوعات الصعبة مثل ذكره لموضوعي"المفعول المطلق" و"الظروف" قبل موضوعات الحال والتمييز والمستثنى والمنادى؛ "لأن ترتيب الموضوعات النحوية لا يخضع لمبدإ السهولة والصعوبة فقط ، بل إن ترتيب الموضوعات النحوية يتأثر بعوامل كثيرة منها: الأهداف ومستوى المتعلمين والوقت المخصص للتعليم..." (الراجحي ، 1995 ، 61). والأهم من ذلك كله هو مقياس الأهمية والإفادة فليس كل الموضوعات المهمة الأساسية سهلة ، وكذلك ليس كل الموضوعات السهلة ضرورية ومفيدة في التعليم.

المنهج الثاني: راعى الشيخ في ترتيب موضوعات منظومته مبدأ الترابط و يظهر ذلك أنه ذكر الفعل والفاعل ، أي الجملة الفعلية ، قبل أن يتناول المبتدأ والخبر ، لأنه في حديثه عن الخبر سيعرض لأنواعه ، وهي المفرد ، الجملة الفعلية ، الجملة الاسمية ، شبه جملة ، كما يتضح ذلك أيضا في ترتيبه للتوابع بذكر النعت ثم العطف قبل حديثه عن التوكيد والبدل ، كما رتب الأبواب التي تتعلق بالأحكام النحوية ، ويوضح ذلك أنه بدأ بباب مرفوعات الأسماء ثم باب منصوبات الأسماء وأخّر باب مخفوضات الأسماء. ومن هنا يتضح لنا مدى الترابط بين موضوعات النحو في منظومة سعادة الطلاب ، هذا الترابط الذي من شأنه أن يجعل "المتعلِّم لا يحس بأي غرابة عندما ينتقل من درس إلى درس آخر ، بل أن يشعر بوجود تسلسل متماسك بين الدروس المتتالية ، ولا يتم ذلك إلا إذا كان الدرس الواحد يرتبط بما قبله لما فيه من التدعيم والتثبيت للمكتسبات السابقة وبالذي يليه لما فيه من التمهيد له" (ينظر صالح ، 1974 ، 63). ولعل هذا الصنيع من الشيخ (كون موضوعات كتابه تتسم بالترابط) له فائدة تعليمية مهمة ، وهي أن المتعلم يتصور المسائل النحوية تصورا كاملا.

يتضح **الأسلوب التربوي التعليمي** في منهج المؤلف من خلال عرضه للأبواب النحوية في المنظومة ، والتي تتعلق بالهدف من النظم والمنهج في الاستشهاد وطبيعة بناء المنظومة اللغوية وأسلوب التسهيل والتيسير في النقاط الآتية:

- يسهل على المتعلم وخصوصا المبتدئ أن يستفيد استفادة مباشرة من هذه المنظومة النحوية دون الحاجة في اللجوء إلى الشرح الذي أُلِّف حوله ، وهذه هي الغاية في المنظومات النحوية أي أن تكون وسيلة تعليمية يستفيد منها المتعلم استفادة مباشرة.

- تركيز منظومة سعادة الطلاب على الحفظ والاستظهار[284] ، كما كانت ترمي أيضا إلى تدريب المتعلمين على الاستنباط والقدرة على التفكير[285].

- الإجمال ثم التفصيل؛فقد اعتمد الشيخ على هذا المبدأ في عرض مختلف القضايا النحوية التي ضمنتها منظومته ، ومن الأبواب التي تبين هذا المنهج الذي سلكه الناظم باب الكلام ، وهو الباب الأول من منظومته ، حيث قال:

كَلامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدْ

بِالْقَصْدِ نَحوُ إِنَّ هَذَا لَسَعِيدْ

أقسامُه جيمٌ قلِ اسمٌ عنَّا

ثُمَّتَ فعلٌ ثُمّ حرفُ المَعْنَى

فهذا الذي ذكره الناظم عند تعريف الكلام وأقسامه الثلاثة: اسم وفعل وحرف معنى إجماليٌّ ، عمد إلى تفصيله في الأبيات اللاحقة؛ فذكر علامات الاسم وعلامات الفعل وتعريف الحرف وعلاماته. كما ذكر تعريف الإعراب في الباب الثاني بالمعنى الإجمالي ثم قصد إلى تفصيله بالحديث عن علاماته في الباب الثالث.

كما يظهر منهج الإجمال ثم التفصيل بوضوح في علاج القضايا النحوية؛ فنرى الشيخ في باب معرفة علامات الإعراب مثلا يجمل ذكر علامات الرفع في الضم والواو والألف والنون ، ثم يفصل في توضيح كل علامة على حدة ، كما في قوله:

لِلرَّفعِ دالٌ من علاماتٍ وفَتْ

ضمٌّ وَوَاوٌ أَلِفٌ نُونٌ ثَبَتْ

- اعتمد الناظم مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة ، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

وعكس ما كانَ لِكان من عملْ

نُمِي لإنّ ولِما لها حصَلْ

فقد أحال الناظم في هذا البيت معرفة عمل إِنَّ إلى عمل كان الذي ذكره من قبل ، وهذه الإحالة منه تفيد المتعلم في عدم نسيان المادة العلميّة السابقة ، التي قام بالتذكير بها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نلاحظ اعتماد مبدأ الضدية في تقرير القاعدة النحوية؛ لأن المتعلم في هذه الحال لا يحتاج إلى معرفة عمل كان وأخواتها وعمل إنَّ وأخواتها كلاًّ على حدة ، بل يكفيه معرفة عمل كان وأخواتها فقط لمعرفة عمل إِنَّ وأخواتها.

. القصد إلى السهولة والوضوح في عرض الموضوعات النحوية؛ فإن من يقرأ منظومة سعادة الطلاب يجد نفسه أمام معلّم متمكن ، يحسن عرض موضوعاته

([284]) يعد الحفظ والاستظهار من أهم الملامح التعليمية التي اعتمد عليها في تعليم اللغات قديما وحديثا سواء عند العرب أو غيرهم كاليونان والرومان... وتظهر فائدة الحفظ والاستظهار في تنمية مهارة القراءة لدى المتعلم ، ولكنه في المقابل يؤدي إلى إهمال بقية المهارات اللغوية الأخرى التي يجب على المتعلم أن يتمكن منها (مهارة الاستماع والحديث والكتابة) ، إهمال مهارات ذهنية كالاستنباط والتفكير والفهم...

([285]) وقد بين الجاحظ الطريقة التي يراها أمثل في التعليم ، وهي التي تجمع بين الاستنباط والتفكير مع عدم إهمال الحفظ ، فيقول: "وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز... ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدا ، والاستنباط هو الذي يفضي إلى يفضي إلى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود ، أي أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه ، ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني ، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه وقبل مكثها في صدره" انظر: الجاحظ ، **رسائل الجاحظ** ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج3 ، ط1 ، 1979 مكتبة الخانجي ، مصر ، ص: 29-30).

على المتعلم ، متخذا في سبيل ذلك الأسلوب الواضح والألفاظ السهلة والعبارات المتماسكة التي تبتعد عن التعقيد وتنأى عن جفاف القواعد المنطقية ، ومن أمثلة السهولة والوضوح التي نجدها في هذه المنظومة قوله في باب النعت:

النّعتُ للمنعوتِ في رَفْعٍ وفي

نَصْبٍ وخَفْضٍ تابِعٌ حيثُ يَفِي

كذاك في تعريفٍ أو تنكيرٍ أو

تأنيثٍ إفرادٍ وجمْعٍ قدْ حَكَوْا

كذاك في تثنيةٍ تقولُ

جاءَ شفيعُنا النّبي الرّسولُ

أُلازمُ الرِّضَى الكبيرَ أبدَا

بخدمةِ الحبِّ الخليلِ أحمدَا

فنلاحظ من خلال الأبيات السابقة الوضوح والسهولة في تقرير هذا الباب ، إضافة إلى المسحة الأدبية وبراعة الصياغة واجتناب الحشو الذي لا فائدة من ورائه.

. الاعتماد على التركيز والإيجاز؛ فقد راعى الشيخ في عرض القواعد المبتدئ والمنتهي ، فسردها مُيسّرة مُوضّحة ، مُبسطة مُنقّحة ، مع تبني أصحّ الآراء وأقواها ، والتغاضي عن الآراء المُتشَعِّبة التي تُعقّد ، وتغرس في المتعلّم يأسا وقنوطا (انظر تياو ، 2009 ، 20).انطلاقا من هذا المنظور يتبين لنا أن المؤلف قد التزم في منظومته مبدأ التركيز والإيجاز في عرض الموضوعات النحوية ، دون أن يخوض في ذكر الخلافات النحوية ولا التطرق إلى المسائل الصرفية؛ لأن سعادة الطلاب إنما صُنِفت أصلا للمبتدئين ، ومن أمثلة التركيز والإيجاز كلامه على الفعل حيث قال:

والفعلُ يُعرَفُ بقَدْ والسِّينِ

سوْفَ وتا التأنيث بالتَّسْكينِ

كدخلتْ وخرجتْ وركعتْ

وسجدتْ وكبَّرتْ وسلَّمتْ

فهذه الأبيات التي ذكرناها تبدو مركزة وموجزة وواضحة بعيدة عن الحشو؛ لأن هناك علامات أخرى تقبلها الفعل ، ولكنه لم يذكرها؛ لأن هذا المنهج يتناسب مستوى المتعلمين المبتدئين. ومن فائدة أسلوب الحصر أن يساعد المتعلم على فهم وتصور المسألة النحوية جيدا. ويبدو لنا من ناحية تربوية أن الاختصار في عرض القضايا النحوية والقواعد والأمثلة مع الإيجاز في حجم المنظومة النحوية ، يُعد الوسيلة المثلى في سبيل نجاح العمليّة التعليمية.

– الاعتماد على الأسلوب التعليمي والتقسيم المنهجي؛ فالقارئ لسعادة الطلاب يلاحظ أن الناظم اعتمد أسلوبا تعليميا مفيدا قوامه التقسيم المنهجي؛ مما يسهل على المبتدئين استيعاب المسائل النحوية في يسر وسهولة ومن أمثلة ذلك قوله في باب المعربات:

المُعْرَباتُ قد أتتْ قسمين

بالشَّكلِ أو بالحرْفِ دون مَيْنِ

فنلاحظ في هذا البيت أن الناظم اعتمد التقسيم المنطقي؛ فقد قسم المعربات إلى قسمين: الإعراب بالحركات ، والإعراب بالحروف ، حيث أورد تعريفهما بذكر أنواع كل منها مع ذكر أمثلة لكل قسم في الأبيات المتتالية للبيت السابق[286].

([286]) يعني أن الناظم بين في الأبيات اللاحقة أن المعربات بالحركات ترتكز على أربعة أنواع ، وهي: مفرد ، جمع تكسير ، جمع مؤنث سالم ، الفعل المضارع الصحيح الآخر.

– التمثيل في سعادة الطلاب:يغلب فيها الطابع الأدبي وكثرة التمثيل ، وإن القارئ لهذه المنظومة يدرك تماما أن قدرة الناظم الأدبية قد أعطته ذوقا فنيا عند صياغته لها ، فهي سهلة العبارة ، جيدة الأسلوب ، متناسقة الترتيب ، عذبة الألفاظ ، واضحة المعاني ، متداولة الأمثلة ، بينة الشواهد ، بلا تكلف ، ولا تعقيد ، ولا إلغاز. وفيما يلي أمثلة تبين مزج صاحب المنظومة بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية.

قوله في باب المبتدإ والخبر:

وعَنْهُمُ الخبرُ جَا قِسْمَيْنِ

أيْ مفردًا والعكسَ دون مَيْنِ

مفردُه نحوُ أَبِي فقيهُ

ونحن غُرٌّ وأَخِي نَبيهُ

وغيرُه أربعةُ الأشياء

مجرُورُه كالخَيْرُ في القَضاءِ

والظّرْفُ نحوُ الخيرُ عند المصطفى

والفعل معْ فاعله كُنْ ذا اقْتِفآ

تقولُ أختي جاء زوجُها عُمرْ

رابعُها مبتدأٌ مع الخبرْ

نحوُ أبي روضتُه مُنوَّرَهْ

ونحوُ أمِّي حالُها مشتهِرَهْ

نلاحظ من خلال ما سبق ذكره أن المؤلف أورد تعريف الخبر بتقسيمه إلى قسمين: مفرد وغير مفرد ، دون أن يأتي بالتعريف المنطقي الفلسفي ، وقسم غير مفرد إلى أربعة أنواع: جملة فعلية ، جملة اسمية ، ظرف ، جار ومجرور (شبه جملة) ، ثم دعمها بذكر الأمثلة بأسلوب بديع حتى تتضح القاعدة في ذهن المتعلم ، وتمتاز الأمثلة التي يسوقها المؤلف بالابتعاد عن الجافة المصطنعة ، والتي لا تخرج عن: ضرب زيدٌ عمرا ، وإنما نجده يكثر من الأمثلة الحيّة الهادفة ، والأبيات السابقة توضح طبيعة الأمثلة التي اعتمدها المؤلف.

نلاحظ من خلال الأمثلة في سعادة الطلاب أن مؤلفها الشيخ أحمد الخديم عمد إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا ، رام من خلالها تثبيت بعض القيم الطيبة والصفات الحميدة في نفوس المتعلمين والطلاب ، فنجد فيها توجيهات وإرشادات خُلُقيَّة منبثقة من التوجيه الديني الإسلامي ، "معتمدا في اختياره الأمثلة منهج الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والناصح للأمة ، فانتقى بذلك أمثلة واقعية مرتبطة بماضي أمة النبي محمد ﷺ وآثار السلف الصالح؛ لما تحتوي من حقائق وقيم سامية...(اتياو ، نفس السابق). والأمثلة في هذا النمط كثيرة ، منها قوله:

كَنَقِّ فاكَ[287] مرِّ أباكَ وأخاكَ

إن كُنْتَ ذا مالٍ كثيرٍ وحماكَ

وقوله:

ولن تنالا رُشدًا أو تَفْطِما

نفسَيْكما عن اللّغَى فالْتَفْطِما

ولن تنالي الدينَ حتى تستري

جسمكِ يا زينبُ بالتَّخمُّرِ

وكذلك توزع المعربات بالحروف إلى أربعة أنواع ، وهي: مثنى ، جمع مذكر سالم ، الأسماء الخمسة ، الأفعال الخمسة.

([287]) يعني أن تنظف فاك أيها الطالب بالسواك أو أن تنظفه من آفات اللسان ، كالكذب والغيبة والنميمة...

وقوله:

تقولُ إنْ تَرْحَمْ وتَعْفُ وتَجُدْ

تكنْ مُقَدَّمًا وقومَكَ تَسُدْ

ومحصول القول فيما يتعلق بالشيخ ومنظومته أنه كان ذا ثقافة واسعة وأسلوب عربي أدبي سليم وملكة لسانية كفيلة ، مكنه ذلك على استيعاب النحو العربي بظواهره وقضاياه التركيبية إلى جانب الأمثلة والشواهد المتنوعة الحيّة وصوغها في هيكلة منظومة دون أن يفلت من الوزن أو القافية.

يؤكّد ابن حزم (1987،66) في رسالته "مراتب العلوم" العلاقة الرابطة بين النحو واللغة ، ويرى أن النحو يرتبط ارتباط كليا بالمعاني ، وهذا ما نراه واضحا في منظومة سعادة الطلاب للشيخ؛ إذ نظر إلى اللغة باعتبارها وحدة متكاملة لا يمكن أن تفصل عن النحو؛ لذلك ربط الشيخ النحو بالمعنى ، ومما يبين ذلك حديثه عن تقسيم الأفعال من حيث الزمن إلى ثلاثة أنواع ، فيقول:

ينقسم الفعل إلى أفعالِ

ثلاثةٍ بقول كلِّ تالِ

ماضٍ مضارعٍ وأمرٍ كاتّقِ

ربَّ الورَى فقد نجا من يتّقي

يعني أن الناظم انقسم الأفعال إلى ثلاثة أضرب: ضرب منها أفعال ماضية قد ذهبت وتقضّت ، كقولك: كتَب وعلِم. والضرب الثاني: أفعال مستقبلة ، منتظرة لم تقع بعد أو واقعة في الوقت الذي أنت فيه لم تمض ولمَّا تمض بعد ، كقولك: يصلي ويأكل. والضرب الثالث أفعال أمر: الدالة على طلب وقوع الفعل من الفاعل المخاطب ، كقولك: تعلّمْ واجتهدْ. وهذا التقسيم يبين طبيعة الناظم من حيث ربط المصطلحات النحوية بدلالاتها في المعنى.

ما يميز كتاب سعادة الطلاب هو ابتعاده عن التعريفات المنطقية التي تشتت ذهن المتعلم المبتدئ ، فهو يهتم بذكر الأمثلة التي تسهم في تكوين المعرفة للمتعلم عن طريق توضيح القاعدة النحوية. وقد سلك هذا المنهج في معظم أبواب الكتاب كما سبق ذكره في باب الأفعال ، حيث مَثّل أنماط الفعل الثلاثة بجملة: **(اتق رب الورى فقد نجا من يتقي)** فاتّقِ: فعل أمر ونجا: فعل ماض ويتقي: فعل مضارع. كما نرى نفس ذلك في تمثيله لأحرف المضارعة ، أجمله في فعل "نأيتُ" بقوله:

أربعةٌ يجمعُها في القيد

نَأَيْتُ عن إبليسَ جَمٍّ الكَيْدِ

فحرص على عدم الفصل بين النحو واللغة ، ونظر إلى قواعد اللغة من حيث ارتباطها بالمعنى. ولذلك فقد عني بإيراد الأمثلة الكثيرة السهلة الاستعمال محاولا تقويم التراكيب اللغوية. وهكذا فنحن نستطيع أن نقول إن الشيخ في منظومته سعادة الطلاب كان ينتهج منهجا عمليا تطبيقيا غرضه تقويم اللغة المستعملة ، سواء في التعبير الكتابي أو الشفوي ، دون أن يثقل ذهن المتعلم بكثير من القواعد النحوية.

وقد رام الناظم من خلال منظومته توضيح النحو في ذهن المتعلّم؛ لذا عنون كتابه باسم ينطبق على مسماه ، فاتسم أسلوبه بالوضوح في المعنى ، وعدم التعقيد في المبنى؛ مما أدّى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين. كما أنه يمكننا أن نُبدي قراءة في المحتوى النحوي وترتيبه لسعادة الطلاب ، أما بخصوص ما يتعلق بالمحتوى النحوي فإن منظومة سعادة الطلاب تتميز بالشمول والاختصار؛ إذ شملت معظم الأبواب النحوية التي

يحتاجها المتعلّم غير المتخصص، مع اختصارها للقواعد النحوية، وذلك بخلوها من التعريفات غالبا، وبعض الأبواب المعروفة في النحو التعليمي مثل (ما، لات، إنّ المشبهات بليس، الاختصاص، التحذير، الإغراء، أسماء الأفعال...). ويبدو أن المؤلف كان على إدراك وعلى وعي بإهمال هذه الموضوعات؛ فربما رأى أن عرضها في المنظومة لا يتناسب مع المستوى الذي أُلّف الكتاب من أجله. وهذا الاقتصار على الموضوعات الأساسية له فائدة تعليمية تتمثل في عدم تشتيت ذهن المتعلم بكثرة القضايا النحوية التي يتعلمها.

وأما فيما يتعلق بترتيب المحتوى، فقد بنى الشيخ منظومته على نمط المعمولات التي هي أثر للعامل، فقام بجمع الأشياء المتشابهة تحت موضوع واحد، ويبدو أن هذا الترتيب الذي سلكه الناظم في منظومته، يُعد من قبيل التعليم المناسب لفكر المتعلم؛ لما يتسم به هذا الترتيب من جمع للمسائل المتشابهة في أبواب "وهذه النظرة القائمة على محور المعمولات كانت نظرة تعليمية مناسبة للفكر، لما فيها من ترابط بين المسائل في الأبواب، وذلك يساعد المتعلم على الترتيب الذهني وعلى التذكر أيضا" (انظر ممدوح، 2000، 265).

على ضوء ما سبق ذكره من ملاحظات على مستوى المبنى والمعنى لهذه المنظومة النحوية؛ فإن أقصى ما يمكن أن توصف به منظومة سعادة الطلاب هو أنها نحو يلائم المتعلمين والمتخصصين أيضا، كما أنها تعد -عموما- وسيلة ناجحة في ميدان التعليم، فهي تعبر عن مدى تمكُّنِ صاحبها من النظم وقدرته على جودة الأداء وإثبات كفاءته في مجال تعليم النحو.

5- المصطلحات النحوية المستعملة

نجد المؤلف يطلق على بعض المسائل المعروفة مصطلحات أخرى، ومن ذلك :إطلاقه على المفعول المطلق مصطلح "المصدر"، وإطلاقه على المفعول فيه مصطلح "ظرفي الزمان والمكان" وإطلاق قضية (لا) فقط، دون أن يضيف "النافية للجنس". إضافة إلى ما سبق ذكره، فإن مفهوم حروف الجر عنده واسع فيشمل إضافة إلى حروف الجر الظروفَ والأسماءَ التي ليست بحروف ولا ظروف.

هذا وقد اتبع المؤلف المنهج الوصفي في تقعيده فنظر إلى الوظيفة النحوية، ولم ينظر إلى العمل النحوي فقط، حيث اعتبر كثيرا من الظروف والأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف من جملة عوامل الجر. فقد ذكر من الظروف مصطلحات (أمام، خلف، مع، وراء، قُدَّام، فوق، تحت، تلقاء، عند، إزاء، حذاء، ثَمَّ). ومما ذكره من الأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف: (غير، سِوى، سُوى). فالمؤلف ذكر هذه الظروف والأسماء التي ليست بظروف ولا حروف "لأن هذه المصطلحات تؤدّي نفس الوظيفة التي تؤديها حروف الخفض (الجر) مثل قولنا: الكتاب على الطاولة أو الكتاب فوق الطاولة" (انظر حلمى، 1995، 53).

لا نجد في منظومة سعادة الطلاب بعض المصطلحات النحوية الشائعة عند المحدثين مثل: العلامات الأصلية والعلامات الفرعية فعدم ذكر الناظم لهذه المصطلحات كان بسبب النظم الذي اضطره إلى ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله في باب علامات الإعراب:

لِلرَّفعِ دالٌ من علاماتٍ وفَتْ

ضمٌّ وَوَاوٌ ألِفٌ نُونٌ ثَبَتْ

لِلنَّصْبِ هَاءٌ من العلاماتِ انْمِيَا

أي فتحَةً وألِفًا كَسْرًا ويَا

خَمّسْ بحذفِ النُّونِ أمّا الْفَتْحُ

فَبَانَ في جِيمٍ أتَاكَ فَتْحُ

واعْدُدْ عَلامَاتٍ ثَلاثًا يا فَتَى

لِلْخَفْضِ وَهْيَ كَسْرَةٌ ياءٌ أَتَى

وفَتْحَةٌ والكُلُّ منها خُصِّصَتْ

بموضعٍ عن غيرها وانفَرَدتْ

أمَا السّكُونُ فعَلامَةً يكونْ

لِلجَزْمِ في فِعْلٍ مُضارِعًا يبينْ

والحَذْفُ في الْمُعْتَلِّ ءاخِرًا يكُونْ

علامةً للجزْمِ عند المُفْلِقينْ

فقد استعمل الشيخ في هذه الأبيات مصطلح "علامات" ويقصد بها العلامات الإعرابية التي تخص بالرفع والنصب والخفض والجزم. ويمكننا تقسيمها إلى العلامات الأصلية وهي: الضمة ، الفتحة ، الكسرة ، السكون والعلامات الفرعية وهي: الألف ، الواو ، النون ، الكسرة الياء ، الحذف[288].

فتلاحظ من خلال البيت الرابع غياب المصطلح المألوف في كتب النحو وهو "الجر" وقد ذكر الناظم مصطلح "الخفض" وهو مصطلح شائع استعمله كثير من النحاة القدماء والسبب في غيابه؛ هو عدم سماح النظم بظهوره. مما نستنتجه أيضا من خلال الأبيات السابقة حضور التعريف البنيوي الشكلي في التعريفات ، وقد لجأ الناظم إلى هذا النوع من التعريف كثيرا في منظومته.

الخاتمة

لقد أسفرت القراءة التحليلية لمنظومة سعادة الطلاب للمؤلف الشيخ أحمد الخديم عن أبرز الأبعاد اللسانية التربوية لها؛ فقد امتازت بالوضوح في المعنى وعدم التعقيد في المبنى ، والسهولة في عرض المادة النحوية على المتعلِّم؛ مما أدّى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين في طابع مخفف ، ويمكن إبراز أهم نتائج هذه الدراسة والتي تتعلق بالمنهج اللساني التربوي الذي سلكه المؤلف في منظومته ما يلي:

- تبنيه للطريقة الاستقرائية في عرض المادة النحوية على المتعلم.

- تبنيه للمنهج الوصفي في عرض أبواب النحو وابتعاده عن التعليل والتفسير.

- طريقته في التحليل والإعراب حيث ابتعد عن الإعراب الصناعي وركز على العرض الوظيفي للعناصر النحوية.

([288])ومما سلكه المؤلف في منظومته تيسيرا على المتعلمين ، أنه لايفصل في ذكر علامات الإعراب ، كما اتضح ذلك في الأبيات أعلاه ، حيث يكتفي المؤلف بذكر العلامات الأصلية للإعراب ، فلا تو جد في منظوره علامات فرعية أصلا ، فالعلامات كلها أصول؛ فيجعل **الواو** علامة للرفع في الأسماء الخمسة ، وجمع المذكر السالم ، **والألف** علامة للرفع في المثنى ، **والنون** علامة للرفع في الأفعال الخمسة ، **والياء** علامة للجر في الأسماء الخمسة ، وجمع المذكر السالم ، **والألف** علامة للنصب في الأسماء الخمسة ، **والياء** علامة للنصب في المثنى وجمع المذكر السالم ، **والكسرة** علامة للنصب نيابة عن الفتحة في جمع المؤنث السالم ، **وحذف النون**علامة للنصب أو الجزم في الأفعال الخمسة إذا دخلت عليها عوامل النصب أوالجزم. وقد أعطى الناظم أمثلة في ذلك بقوله:

ولم يزالوا يطلبون رُشدا ★★★ فلا تزالوا تطلبون مَجْدَا

ولن تنالي الدينَ حتى تستري ★★★ جسمكِ يازينبُ بالتَّخمُّرِ

وحذف عرف العلة علامة للجزم في الفعل المضارع المعتل الآخر ،وقد مثل ذلك الناظم في البيت التالي:

تقولُ لمْ أَسُهْ ولمْ أنَسَ ولمْ ★★★ أَعْصِ إلاَهِيَ تعالى باللَّمَمْ

. طبيعة حدوده وتعريفاته؛ فقد لجأ إلى التعريف بالمثال الوظيفي والبنيوي الذي يعتمد على الوصف وكثرة التمثيل ، وابتعد عن التعريف المنطقي.

إضافة إلى ذلك ، فقد امتازت المنظومة بكثير من المبادئ اللسانية التربوية؛ منها اكتفاء الشيخ بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين ، وابتعاده عن التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تُشتِّت ذهن المتعلم بذكر القضايا النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية ، إضافة إلى ترتيبه لمحتوى منظومته على نمط المعلومات التي هي أثر للعامل ، واتباعه لمنهج الإجمال ثم التفصيل في عرض القواعد النحوية ، وإهماله لبعض أبواب النحو مراعاة لمستوى المتعلمين ، واعتماده مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة. وإكثاره من الأمثلة التي توضح القاعدة للمتعلم. ومن منهج الناظم في منظومته الاعتماد على الاختصار والإيجاز ، وأيضا مزجه بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية ، وقد عمد الشيخ في منظومته إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا... والحاصل أن منظومة سعادة الطلاب تحتوي على جملة من الأبعاد اللسانية التربوية ، وهي مفيدة في العملية التعليمية ، إذا ما أحسن القائمون على مناهج النحو استثمارها في بناء المناهج النحوية.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جني ، أبو الفتح عثمان (1954) المنصف شرح تصريف المازني. ج1 ، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، وزارة المعارف ، ط1 ، مصر.
- ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد (1987) رسائل ابن حزم الأندلسي ، رسالة مراتب العلوم. ج4 ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت.
- امباكي ، الشيخ أحمد بمبا ، سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب. مكتبة الشيخ أحمد بمبا ، طوبى دار القدوس ، سنغال.
- تياو ، أبو مدين شعيب (2009) فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب. مطبعة المعارف الجديدة ، الطبعة الأولى ، الرباط.
- الجاحظ ، عمروبن بحر (1964) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج3 ، ط1 ، مكتبة الخانجي ، مصر.
- حلمى ، خليل (1995) العربية وعلم اللغة البنيوي ، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث. دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر.
- الراجحي ، عبده (1995) علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية. دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية.
- صالح ، عبد الرحمان الحاج (1974) أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة

العربية ، مجلة اللسانيات ، العدد الرابع ، معهد العلوم اللسانية والصوتية ، الجزائر.

- ممدوح ، عبد الرحمان (2000) المنظومة النحوية دراسة تحليلية. درا المعرفة الجامعية ، القاهرة ، مصر.

البعد اللساني التربوي في المنظومات الخديمية – "سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب" نموذجا

بقلم الباحث: باي سرين انجاي[289]

مقدمة

يُعدّ تأليف المتون والمنظومات النحوية من قِبل النحاة واللغويين من الأعمال التي اهتمت بقضية تعليم النحو وتيسيره على المتعلمين؛ مما يدل على وعي الدارسين بضرورة وجود مستوى من المؤلفات النحوية المختصرة والميسرة تناسب النشء من الطلاب، وقد أثبتت بعض الدراسات التحليلية النقدية لكثير من هذه المتون والمختصرات أنها تحتوي على مجموعة من المبادئ اللسانية التربوية التي يمكن الإفادة منها في بناء مناهج التعليم العام والجامعي، ومن هذه المبادئ: انتقاء الموضوعات، والتدرج في عرضها، وترتيبها، والوضوح في عناصرها، وتهذيب قضاياها. هذا، ومن أهم الأفكار التي اهتمت بجانب أو جوانب من اللسانيات التربوية، تلك الأفكار المُثْبَتة في الفكر اللساني من التراث السنغالي، وتتعلق بتعليمية اللغة العربية عامة، وتعليمية النحو خاصة.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأبعاد اللسانية والتربوية التي تأسست عليها منظومة سعادة الطلاب، وإبراز قيمتها المعرفية والمنهجية والتربوية، بالإشارة إلى كيفية الإفادة منها في بناء المناهج الدراسية؛ من أجل ذلك نقدم في هذه الورقة البحثية قراءة تحليلية في منظومة سعادة الطلاب للمؤلف الشيخ أحمد الخديم من خلال إبراز إشكالية البحث بطرح الأسئلة الآتية:

- ما الهدف من تأليف المنظومة؟
- ما هي الأبعاد اللسانية التربوية الموجودة في منظومة سعادة الطلاب؟
- ما هي المناهج اللسانية التربوية التي اعتمدها المؤلف في منظومته؟

واتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي هو المنهج الأنسب لعرض إشكالية البحث.

1- الهدف من تأليف المنظومة

لقد بيّن الشيخ في مقدمة المنظومة الهدف من تأليف هذا المختصر بقوله:

وَبَعْدُ فَالْمَقْصُودُ نَظْمٌ قَدْ بَهَرْ
فِي عَقْدِ مَا الْفَتَى ابْنُ دَاوُدَ نَثَرْ
نَظَمْتُهُ ثَانِيَةً مُخْتَصِرا
لِكَيْ يَكُونَ نَافِعًا كُلَّ الْوَرَى
سَمَّيْتُهُ سَعَادَةَ الطُّلَّابِ
وَرَاحَةً لِطَالِبِ الإِعْرَابِ

ويبدو من خلال الأبيات السابقة أن سعادة الطلاب منظومة عقد بها الشيخ ما نثره ابن آجروم في كتابه المعروف المسمى بـ "المقدمة الأجرومية". فعلى هذا، فإن سعادة الطلاب مختصرٌ منظومٌ للمبتدئين، رام المؤلف من خلاله إيضاح القضايا والظواهر النحوية الأساسية دون الغوص في معضلاتها وتفاصيلها؛ مما يجعل هذا المختصر إلى جانب الإيجاز في حجمه يتميز بالبساطة والوضوح والدقة في عرض القواعد النحوية، فهو قائم على طريقة الإجمال ثم التفصيل التي اعتمدها المؤلف في جميع أبواب الكتاب لبيان وتوضيح المسائل النحوية في ذهن المتعلّم. فالكتاب يتجاوز دائرة المتعلّمين إلى المتخصصين، ولكنه كما

289 حاصل على الماجستير من جامعة محمد الخامس – الرباط.

هو واضح من عنوانه ، و مضمونه – كما سيأتي بيانه – يفيد المتعلِّم المبتدئ أكثر من المتخصّص في استيعاب علم النحو العربي. وفي قول الشيخ عن مختصره: "وراحة لطالب الإعراب" دليل على ما ذكرنا.

2- قراءة في الأبعاد اللسانية التربوية لمنظومة سعادة الطلاب

تُعدّ منظومة سعادة الطلاب من أبرز المنظومات النحوية الرامية لتسهيل القواعد النحوية ، نظمها الشيخ أحمد الخديم وهو منفي في موريتانيا ، ويبلغ عدد أبياتها حوالي ثلاثمائة وثمانية (308) أبيات ، وهي من بحر الرجز(انظر تياو ، 2009 ، 18). والكتاب كما هو واضح من عنوانه يندرج ضمن كتب النحو التعليمي التي تُعنى ببيان النحو الوظيفي النافع لتقويم اللسان والكتابة.

حَظِيت منظومة سعادة الطلاب بشرح وافٍ كافٍ للدكتور أبي مدين شعيب تياو الأزهري الطوبوي يُسمى: "فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب". يعتبر هذا الكتاب القيم مرجعا مهما للطلبة والباحثين في الحقل اللغوي وخصوصا في مجال النحو العربي في بلادنا.

ومما يبين أهمية سعادة الطلاب ، أنها لاقت رواجا كبيرا منذ تأليفها إلى عصرنا الحاضر ، أقبل عليها طلاب علم النحو في بيئة المريدين السنغاليين ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كونها منظومة موضوعة للمبتدئين ، اكتفى الشيخ فيها بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين ، لذلك أهمل العديد من الأبواب التي يرى المؤلف عدم حاجة للمبتدئين إليها مثل: باب الاختصاص وباب الحكاية والاشتغال...إضافة إلى ذلك ، فإن الشيخ قد ابتعد في منظومته عن ذكر التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تُشتِّت ذهن المتعلم بذكر المسائل النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية. ويضاف إلى ما سبق من الأسباب التي أدّت إلى رواج سعادة الطلاب أن صاحبها قد ألبسها رداء أدبيا جميلا فجاءت كلمات المنظومة واضحة ، وعباراتها سهلة بفضل حسن النظم وجودته؛ والغرض من ذلك تسهيل النحو وتعليمه وتقريبه من المتعلمين في طابع مخفف. ولعل من أسباب رواج سعادة الطلاب أنها نُظمت على بحر واحد من الرجز؛ مما يجعل نغمها الموسيقي منسجما ووزنها منقادا في نسق واحد ، فتكون خفيفة على السمع سهلة الحفظ ، "ولا شك أن الأبيات التي ليست من بحر واحد تضطرب فيها الأنغام الموسيقية وتكون ثقيلة على السمع يصعب حفظها ولا ينقاد وزنها في نسق واحد عكس الأبيات التي من بحر واحد" (انظر ممدوح ، 2000 ، 269).

وقد اخترت منظومة سعادة الطلاب لدراستها وتحليلها وفق مقاربة لسانية تربوية؛ لتكون نموذجا لتحقيق الغرض من النحو المتمثل في القدرة على القراءة والمخاطبة؛ لأن الغاية من النحو هي مخاطبة الناس وقراءة كتبهم المؤلفة حسب رأي ابن حزم (1987 ، 66) ، وهي الغاية نفسها التي توخاها الشيخ في منظومته سعادة الطلاب؛ فقد قصد إلى السهولة والوضوح واليسر في عرض أبواب النحو ومسائله على المتعلم ، ويظهر ذلك في الطريقة التعليمية التي صبغ بها منظومته ، والتي سنأتي على ذكر أبرز ملامحها لاحقا.

وقد رام الشيخ من خلال مختصره سعاة الطلاب وضع كتاب في النحو التربوي التعليمي ، يتسم بالوضوح بعيدا عن الغموض والتعقيد ، يتناسب مع المتعلمين المبتدئين. وبالتالي ، يمكننا اعتبار سعادة الطلاب نموذجا للنحو التربوي التعليمي كفيلا بتحقيق الأهداف التعليمية المتمثلة في الوصول بالمتعلم إلى

القدرة على التعبير الشفوي والكتابي. وهذا يدل على أن الشيخ يتمتّع بقدرة كبيرة على النظم ، مكنته من النظم في فني النحو والصرف[290] وغيرهما من فنون شتى من المعارف.

3- القيمة اللسانية التربوية للمنظومة

إن القيمة اللسانية التربوية لهذه المنظومة تكمن في المنهج العلمي الذي تبناه الناظم في معالجة قضايا النحو لغايات تعليمية من أجل تيسيره وتسهيل قواعده ، وجعلها سائغة أمام المتعلم ، عن طريق عرض مادة نحوية تتناسب مع مستوى المتعلمين المبتدئين ، تقوم أساسا على مبدإ الانتقاء من النحو الوظيفي الموضوعات التي تتسم بالفائدة العملية للمتعلم.

يمكننا أن نقول إن تأليف هذه المنظومة في هذه الفترة الزمنية يحمل دلالة واضحة على أن قضية تقريب النحو من النشء والمتعلمين تشكل قضية جوهرية منذ القديم ، هذا من جهة ، ومن زاوية أخرى فإن قضية عرض النحو عرضا جديدا مبنيا على اختيار الموضوعات الأساسية الوظيفية النافعة لتقويم اللسان والكتابة ، قضية تجاوزت اهتمام المتخصصين من النحاة إلى غيرهم من العلماء كالشيخ الخديم؛ مما يؤكد على وعي الكُتَّاب السنغاليين القدماء بهذه القضية.

4- منهجه في المنظومة

قسم الشيخ منظومته"سعادة الطلاب" إلى تسعة وعشرين بابا ، تضمنت أبواب النحو فقط ، وبهذا التقسيم لم يتبع الشيخ المنهج السائد عند عامة النحاة القدماء من تقسيم علم النحو إلى الأبواب النحوية والصرفية وتأخير أبواب الصرف على أبواب النحو ، يقول ابن جني (1954 ، 4) معلّلا ذلك: "لا تكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره" ، ولكن الشيخ تناول الجانب النحوي فقط في منظومته؛ لأن هذا المنهج ينطبق على مرحلة تكوين علم الصرف واكتماله وانفصاله مع علم النحو وانتقال تسميته في كثير من المصنفات إلى علم التصريف.وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج أي عدم عرض المؤلف لموضوعات الصرف في سعادة الطلاب؛ حتى يكون الارتياض على موضوعات النحو سهلا للمتعلم المبتدئ وممهدا له للدخول في فن علم الصرف. وقد بدأ الشيخ منظومته بمقدمة عددها تسعة أبيات ، وختمها بخاتمة عددها ثلاثة أبيات وبين المقدمة والخاتمة عرض أبواب النحو ، وينقسم الأبواب النحوية بدورها إلى قسمين:

القسم الأول: المقدمات النحوية ، وهي عبارة عن أحكام تتناول اللفظ قبل وروده في التركيب ، أتى بها الشيخ تمهيدا للحديث عن الأحكام التركيبية ، وتتكون المقدمات النحوية من أربعة أبوب ، وهي الكلام وما يتألف منه ، الإعراب ، علامات الإعراب ، المعربات.

القسم الثاني: الأحكام النحوية التفصيلية ، وهي التي تخص الكلمة حال تركيبها في السلسة الكلامية ، وينقسم هذا الجزء إلى خمسة أقسام:

1- أحكام الجملة الفعلية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تكلم عن الأبواب التي تتعلق بالمسند إليه في الجملة الفعلية ، مثل باب الفاعل وباب نائب الفاعل ، ثم ذكر أبواب المفعول به والمفعول المطلق والمفعول فيه

([290]) فيما يتعلق بعلم الصرف ، قام الشيخ بوضع تعليقات على كتاب "نزهة الظريف وبغية المولع بالتصريف" للعلامة أدييج بن عبد الله الكمليلي الشنقيطي.
[غير سديد عندي أن يُستدل بالشرح على التمكن من النظم ، يرجى إعادة النظر في هذا].

(ظرفي الزمان والمكان) والمفعول من أجله والمفعول معه وباب الحال والتمييز والمستثنى.

2- أحكام الجملة الاسمية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تحدث عن باب المبتدإ والخبر وأبواب العوامل الداخلة على المبتدإ والخبر وتسمى نواسخ الابتداء، وهي كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها.

3- التوابع في الجملتين الاسمية والفعلية: بعد فراغ الشيخ من الحديث عن الجملة الفعلية والجملة الاسمية، ذكر ما يكون تابعا لهما في الإعراب، وهو باب النعت والعطف والتوكيد والبدل.

4- أحكام خاصة بالفعل: وفي هذا الجزء تحدث الشيخ عن باب الأفعال، حيث ذكر أنواع الفعل وإعرابه والأحكام المتعلقة به وعوامل النصب والجزم.

5- أساليب نحوية متنوعة: ذكر في هذا القسم باب المنادى دون الخوض في الحديث عن الأساليب الأخرى، مثل الاستغاثة والندبة والترخيم والاختصاص والتحذير والإغراء... لكون أسلوب النداء يتسم بالسهولة لدى المتعلّم ويبتعد عن التعقيد.

نوّع الشيخ في كيفية عرض المادة النحوية على المتعلم في منظومته؛ فاستخدم عدة طرق ومن ذلك استخدامه **للطريقة الاستنباطية (الاستقرائية)** طريقة "الأمثلة ثم القاعدة" التي تُعد من جملة المبادئ اللسانية التربوية. وهي طريقة قائمة على جهد المعلم في عرض الأمثلة ونشاط المتعلم وفاعليته في المشاركة في استنباط القاعدة من الأمثلة، فينتقل التلميذ من الجزئيات إلى الكليات ومن القضايا الخاصة إلى القضايا العامة، وتظهر الفائدة التربوية لهذه الطريقة بكونها تسهم في تكوين إدراك المتعلم؛ لأنه يسلك طريقة تمكنه من الوصول إلى القانون العام بنفسه.

ومعنى ذلك أن الشيخ بنى منظومته على الجزئيات سعيا للوصول إلى الكليات؛ فلم يدرس الجملة الاسمية في إطارها الكلي، وإنما درس جزئياتها كباب المبتدإ والخبر، والأمر نفسه بالنسبة إلى الجملة الفعلية، حيث سعى في دراسة جزئياتها أيضا مثل باب الفاعل ونائب الفاعل وباب المفعول وأنواعه وباب الحال والتمييز...؛ لغرض الوصول بالمتعلم إلى إدراك الكليات النحوية انطلاقا من الجزئيات؛ لأن هذه الطريقة تساعد المتعلم على الترتيب الذهني لكونها طريقة قائمة على الترابط بين الأبواب النحوية.

إضافة إلى الطريقة الاستقرائية اعتمد الشيخ في سعادة الطلاب على **الطريقة القياسية** بنسبة كبيرة، وهي طريقة تقوم على إعطاء القاعدة ثم الأمثلة، إنها مبنية على الاستنتاج بحيث ينتقل فيها الفكر من الحقائق العامة (القاعدة) إلى الحقائق الجزئية (الأمثلة) أو بتعبير آخر من الكل إلى الجزء، والجدير بالذكر أن هذه الطريقة تنسجم مع طبيعة التفكير الإنساني القائمة على التدرج من الكيات إلى الجزئيات ومن الإجمال إلى التفصيل، ومن أمثلة هذه الطريقة قول الشيخ في باب المبتدإ والخبر:

المُبْتَدَا الاِسْمُ الذِي عَرِيَ عَنْ
عَوَامِلٍ لفْظِيَّةٍ حيث يَعِنْ
مُرْتَفِعًا كَاللّهُ رَبُّنَا السَّمِيعْ
مُحَمّدٌ نبيُّنَا وهُوَ الشّفِيعْ

فالبيت الأول يمثل القاعدة، والبيت الثاني عبارة عن أمثلة توضح القاعدة. وهذه الطريقة هي الشائعة في أكثر المنظومات النحوية، ومنها سعادة الطلاب وألفية ابن مالك وملحة الإعراب ومقدمة الكُوكِيّ وغيرها؛ لأن كتب النحو التقليدية تتسم غالبا بتقديم القاعدة

العامة ثم تتبعها الأمثلة التي تسهم في توضيح القاعدة. وقوله أيضا في باب الكلام وما يتألف منه:

كَلامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدْ

بِالْقَصْدِ نَحوُ إِنَّ هَذَا لَسَعِيدْ

فالشطر الأول من البيت يحيل على القاعدة ، والشطر الثاني يشير إلى المثال الذي يوضح ويثبت القاعدة ، ومعنى ذلك أن الناظم يُقدّم للمتعلّم الدلالة الاصطلاحية لمفهوم "الكلام" ثم يُعطيه نموذجا تطبيقيا محدّدا يؤكد ملاحظاته.

عند فحصنا لمنظومة سعادة الطلاب لا حظنا أن الشيخ سلك في ترتيب موضوعاته منهجين:

المنهج الأول: منهج الانطلاق من تقديم البسيط على المعقد والسهل على الصعب ، وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج في أن المؤلف اعتمد في عرض أبواب منظومته مبدأ التدرج فذكر بعض الموضوعات التي تبدو سهلة نوعا ما على المتعلم المبتدئ قبل الموضوعات الصعبة مثل ذكره لموضوعي"المفعول المطلق" و"الظروف" قبل موضوعات الحال والتمييز والمستثنى والمنادى؛ "لأن ترتيب الموضوعات النحوية لا يخضع لمبدإ السهولة والصعوبة فقط ، بل إن ترتيب الموضوعات النحوية يتأثر بعوامل كثيرة منها: الأهداف ومستوى المتعلمين والوقت المخصص للتعليم..." (الراجحي ، 1995 ، 61). والأهم من ذلك كله هو مقياس الأهمية والإفادة فليس كل الموضوعات المهمة الأساسية سهلة ، وكذلك ليس كل الموضوعات السهلة ضرورية ومفيدة في التعليم.

المنهج الثاني: راعى الشيخ في ترتيب موضوعات منظومته مبدأ الترابط و يظهر ذلك أنه ذكر الفعل والفاعل ، أي الجملة الفعلية ، قبل أن يتناول المبتدأ والخبر ، لأنه في حديثه عن الخبر سيعرض لأنواعه ، وهي المفرد ، الجملة الفعلية ، الجملة الاسمية ، شبه جملة ، كما يتضح ذلك أيضا في ترتيبه للتوابع بذكر النعت ثم العطف قبل حديثه عن التوكيد والبدل ، كما رتب الأبواب التي تتعلق بالأحكام النحوية ، ويوضح ذلك أنه بدأ بباب مرفوعات الأسماء ثم باب منصوبات الأسماء وأخّر باب مخفوضات الأسماء. ومن هنا يتضح لنا مدى الترابط بين موضوعات النحو في منظومة سعادة الطلاب ، هذا الترابط الذي من شأنه أن يجعل "المتعلِّم لا يحس بأي غرابة عندما ينتقل من درس إلى درس آخر ، بل أن يشعر بوجود تسلسل متماسك بين الدروس المتتالية ، ولا يتم ذلك إلا إذا كان الدرس الواحد يرتبط بما قبله لما فيه من التدعيم والتثبيت للمكتسبات السابقة وبالذي يليه لما فيه من التمهيد له" (ينظر صالح ، 1974 ، 63). ولعل هذا الصنيع من الشيخ (كون موضوعات كتابه تتسم بالترابط) له فائدة تعليمية مهمة ، وهي أن المتعلم يتصور المسائل النحوية تصورا كاملا.

يتضح **الأسلوب التربوي التعليمي** في منهج المؤلف من خلال عرضه للأبواب النحوية في المنظومة ، والتي تتعلق بالهدف من النظم والمنهج في الاستشهاد وطبيعة بناء المنظومة اللغوية وأسلوب التسهيل والتيسير في النقاط الآتية:

- يسهل على المتعلم وخصوصا المبتدئ أن يستفيد استفادة مباشرة من هذه المنظومة النحوية دون الحاجة في اللجوء إلى الشرح الذي أُلِّف حوله ، وهذه هي الغاية في المنظومات النحوية أي أن تكون وسيلة تعليمية يستفيد منها المتعلم استفادة مباشرة.

- تركيز منظومة سعادة الطلاب على الحفظ والاستظهار[291] ، كما كانت ترمي أيضا إلى تدريب المتعلمين على الاستنباط والقدرة على التفكير[292].

- الإجمال ثم التفصيل؛فقد اعتمد الشيخ على هذا المبدأ في عرض مختلف القضايا النحوية التي ضمنتها منظومته ، ومن الأبواب التي تبين هذا المنهج الذي سلكه الناظم باب الكلام ، وهو الباب الأول من منظومته ، حيث قال:

كَلامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدْ

بِالْقَصْدِ نَحوُ إِنَّ هَذَا لَسَعِيدْ

أقسامُه جيمٌ قلِ اسمٌ عنَّا

ثُمَّتَ فعلٌ ثُمّ حرفُ المَعْنَى

فهذا الذي ذكره الناظم عند تعريف الكلام وأقسامه الثلاثة: اسم وفعل وحرف معنى إجماليٌّ ، عمد إلى تفصيله في الأبيات اللاحقة؛ فذكر علامات الاسم وعلامات الفعل وتعريف الحرف وعلاماته. كما ذكر تعريف الإعراب في الباب الثاني بالمعنى الإجمالي ثم قصد إلى تفصيله بالحديث عن علاماته في الباب الثالث.

كما يظهر منهج الإجمال ثم التفصيل بوضوح في علاج القضايا النحوية؛ فنرى الشيخ في باب معرفة علامات الإعراب مثلا يجمل ذكر علامات الرفع في الضم والواو والألف والنون ، ثم يفصل في توضيح كل علامة على حدة ، كما في قوله:

لِلرَّفعِ دالٌ من علاماتٍ وفَتْ

ضمٌّ وَوَاوٌ ألِفٌ نُونٌ ثَبَتْ

- اعتمد الناظم مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة ، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

وعكس ما كانَ لِكان من عملْ

نُمِي لإنّ ولِما لها حصَلْ

فقد أحال الناظم في هذا البيت معرفة عمل إنَّ إلى عمل كان الذي ذكره من قبل ، وهذه الإحالة منه تفيد المتعلم في عدم نسيان المادة العلميّة السابقة ، التي قام بالتذكير بها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نلاحظ اعتماد مبدأ الضدية في تقرير القاعدة النحوية؛ لأن المتعلم في هذه الحال لا يحتاج إلى معرفة عمل كان وأخواتها وعمل إنَّ وأخواتها كلاً على حدة ، بل يكفيه معرفة عمل كان وأخواتها فقط لمعرفة عمل إنَّ وأخواتها.

. القصد إلى السهولة والوضوح في عرض الموضوعات النحوية؛ فإن من يقرأ منظومة سعادة الطلاب يجد نفسه أمام معلّم متمكن ، يحسن عرض موضوعاته على المتعلم ، متخذا في سبيل ذلك الأسلوب الواضح

([291]) يعد الحفظ والاستظهار من أهم الملامح التعليمية التي اعتمد عليها في تعليم اللغات قديما وحديثا سواء عند العرب أو غيرهم كاليونان والرومان... وتظهر فائدة الحفظ والاستظهار في تنمية مهارة القراءة لدى المتعلم ، ولكنه في المقابل يؤدي إلى إهمال بقية المهارات اللغوية الأخرى التي يجب على المتعلم أن يتمكن منها (مهارة الاستماع والحديث والكتابة) ، إهمال مهارات ذهنية كالاستنباط والتفكير والفهم...

([292]) وقد بين الجاحظ الطريقة التي يراها أمثل في التعليم ، وهي التي تجمع بين الاستنباط والتفكير مع عدم إهمال الحفظ ، فيقول: "وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز... ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدا ، والاستنباط هو الذي يفضي إلى يفضي إلى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود ، أي أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه ، ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني ، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه وقبل مكثها في صدره" انظر: الجاحظ ، **رسائل الجاحظ** ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج3 ، ط1 ، 1979 مكتبة الخانجي ، مصر ، ص: 29-30).

والألفاظ السهلة والعبارات المتماسكة التي تبتعد عن التعقيد وتنأى عن جفاف القواعد المنطقية، ومن أمثلة السهولة والوضوح التي نجدها في هذه المنظومة قوله في باب النعت:

النّعتُ للمنعوتِ في رَفْعٍ وفي

نَصْبٍ وخَفْضٍ تابِعٌ حيثُ يَفِي

كذاك في تعريفٍ أو تنكيرٍ أو

تأنيثٍ إفرادٍ وجمْعٍ قدْ حَكَوْا

كذاك في تثنيةٍ تقولُ

جاءَ شفيعُنا النّبي الرّسولُ

أُلازمُ الرِّضَى الكبيرَ أبدَا

بخدمةِ الحبِّ الخليلِ أحمدَا

فنلاحظ من خلال الأبيات السابقة الوضوح والسهولة في تقرير هذا الباب، إضافة إلى المسحة الأدبية وبراعة الصياغة واجتناب الحشو الذي لا فائدة من ورائه.

- الاعتماد على التركيز والإيجاز؛ فقد راعى الشيخ في عرض القواعد المبتدئ والمنتهي، فسردها مُيسّرة مُوضّحة، مُبسطة مُنقّحة، مع تبني أصحّ الآراء وأقواها، والتغاضي عن الآراء المُتشَعِّبة التي تُعقّد، وتغرس في المتعلّم يأسا وقنوطا (انظر تياو، 2009، 20). انطلاقا من هذا المنظور يتبين لنا أن المؤلف قد التزم في منظومته مبدأ التركيز والإيجاز في عرض الموضوعات النحوية، دون أن يخوض في ذكر الخلافات النحوية ولا التطرق إلى المسائل الصرفية؛ لأن سعادة الطلاب إنما صُنفت أصلا للمبتدئين، ومن أمثلة التركيز والإيجاز كلامه على الفعل حيث قال:

والفعلُ يُعرَفُ بقَدْ والسِّينِ

سوْفَ وتا التأنيث بالتَّسْكِينِ

كدخلتْ وخرجتْ وركعتْ

وسجدتْ وكبَّرتْ وسلَّمتْ

فهذه الأبيات التي ذكرناها تبدو مركزة وموجزة وواضحة بعيدة عن الحشو؛ لأن هناك علامات أخرى تقبلها الفعل، ولكنه لم يذكرها؛ لأن هذا المنهج يتناسب مستوى المتعلمين المبتدئين. ومن فائدة أسلوب الحصر أن يساعد المتعلم على فهم وتصور المسألة النحوية جيدا. ويبدو لنا من ناحية تربوية أن الاختصار في عرض القضايا النحوية والقواعد والأمثلة مع الإيجاز في حجم المنظومة النحوية، يُعد الوسيلة المثلى في سبيل نجاح العمليّة التعليمية.

- الاعتماد على الأسلوب التعليمي والتقسيم المنهجي؛ فالقارئ لسعادة الطلاب يلاحظ أن الناظم اعتمد أسلوبا تعليميا مفيدا قوامه التقسيم المنهجي؛ مما يسهل على المبتدئين استيعاب المسائل النحوية في يسر وسهولة ومن أمثلة ذلك قوله في باب المعربات:

المُعْرَباتُ قد أتتْ قسمين

بالشَّكلِ أو بالحرْفِ دون مَيْنِ

فنلاحظ في هذا البيت أن الناظم اعتمد التقسيم المنطقي؛ فقد قسم المعربات إلى قسمين: الإعراب بالحركات، والإعراب بالحروف، حيث أورد تعريفهما بذكر أنواع كل منها مع ذكر أمثلة لكل قسم في الأبيات المتتالية للبيت السابق[293].

- التمثيل في سعادة الطلاب:يغلب فيها الطابع الأدبي وكثرة التمثيل، وإن القارئ لهذه المنظومة يدرك تماما أن قدرة الناظم الأدبية قد أعطته ذوقا فنيا عند

([293]) يعني أن الناظم بين في الأبيات اللاحقة أن المعربات بالحركات ترتكز على أربعة أنواع، وهي: مفرد، جمع تكسير، جمع مؤنث سالم، الفعل المضارع الصحيح الآخر. وكذلك توزع المعربات بالحروف إلى أربعة أنواع، وهي: مثنى، جمع مذكر سالم، الأسماء الخمسة، الأفعال الخمسة.

صياغته لها ، فهي سهلة العبارة ، جيدة الأسلوب ، متناسقة الترتيب ، عذبة الألفاظ ، واضحة المعاني ، متداولة الأمثلة ، بينة الشواهد ، بلا تكلف ، ولا تعقيد ، ولا إلغاز. وفيما يلي أمثلة تبين مزج صاحب المنظومة بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية.

قوله في باب المبتدإ والخبر:

وعَنْهُمُ الخبرُ جَا قِسْمَيْنِ

أيْ مفردًا والعكسَ دون مَيْنِ

مفردُه نحوُ أَبِي فقيهُ

ونحن غُرٌّ وأَخِي نَبيهُ

وغيرُه أربعةُ الأشياء

مجرُورُه كالخَيْرُ في القَضاءِ

والظّرْفُ نحوُ الخيرُ عند المصطفى

والفعل معْ فاعله كُنْ ذا اقْتِفآ

تقولُ أختي جاء زوجُها عُمرْ

رابعُها مبتدأٌ مع الخبرْ

نحوُ أبي روضتُه مُنوَّرَهْ

ونحوُ أمِّي حالُها مشتهِرَهْ

نلاحظ من خلال ما سبق ذكره أن المؤلف أورد تعريف الخبر بتقسيمه إلى قسمين: مفرد وغير مفرد ، دون أن يأتي بالتعريف المنطقي الفلسفي ، وقسم غير مفرد إلى أربعة أنواع: جملة فعلية ، جملة اسمية ، ظرف ، جار ومجرور (شبه جملة) ، ثم دعمها بذكر الأمثلة بأسلوب بديع حتى تتضح القاعدة في ذهن المتعلم ، وتمتاز الأمثلة التي يسوقها المؤلف بالابتعاد عن الجافة المصطنعة ، والتي لا تخرج عن: ضرب زيدُ عمرا ، وإنما نجده يكثر من الأمثلة الحيّة الهادفة ، والأبيات السابقة توضح طبيعة الأمثلة التي اعتمدها المؤلف.

نلاحظ من خلال الأمثلة في سعادة الطلاب أن مؤلفها الشيخ أحمد الخديم عمد إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا ، رام من خلالها تثبيت بعض القيم الطيبة والصفات الحميدة في نفوس المتعلمين والطلاب ، فنجد فيها توجيهات وإرشادات خُلُقيَّة منبثقة من التوجيه الديني الإسلامي ، "معتمدا في اختياره الأمثلة منهج الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والناصح للأمة ، فانتقى بذلك أمثلة واقعية مرتبطة بماضي أمة النبي محمد ﷺ وآثار السلف الصالح؛ لما تحتوي من حقائق وقيم سامية...(اتياو ، نفس السابق). والأمثلة في هذا النمط كثيرة ، منها قوله:

كَنَقِّ فاكَ[294] مرِّ أباكَ وأخاكْ

إن كُنْتَ ذا مالٍ كثيرٍ وحماكَ

وقوله:

ولن تنالا رُشدًا أو تَفْطِما

نفسَيْكما عن اللّغَى فالْتَفْطِما

ولن تنالي الدينَ حتى تستري

جسمكِ يا زينبُ بالتَّخمُّرِ

وقوله:

تقولُ إنْ تَرْحَمْ وتَعْفُ وتَجُدْ

تكنْ مُقَدَّمًا وقومَكَ تَسُدْ

ومحصول القول فيما يتعلق بالشيخ ومنظومته أنه كان ذا ثقافة واسعة وأسلوب عربي أدبي سليم وملكة

(294) يعني أن تنظف فاك أيها الطالب بالسواك أو أن تنظفه من آفات اللسان ، كالكذب والغيبة والنميمة...

لسانية كفيلة ، مكنه ذلك على استيعاب النحو العربي بظواهره وقضاياه التركيبية إلى جانب الأمثلة والشواهد المتنوعة الحيّة وصوغها في هيكلة منظومة دون أن يفلت من الوزن أو القافية.

يؤكّد ابن حزم (1987،66) في رسالته "مراتب العلوم" العلاقة الرابطة بين النحو واللغة ، ويرى أن النحو يرتبط ارتباط كليا بالمعاني ، وهذا ما نراه واضحا في منظومة سعادة الطلاب للشيخ؛ إذ نظر إلى اللغة باعتبارها وحدة متكاملة لا يمكن أن تفصل عن النحو؛ لذلك ربط الشيخ النحو بالمعنى ، ومما يبين ذلك حديثه عن تقسيم الأفعال من حيث الزمن إلى ثلاثة أنواع ، فيقول:

ينقسم الفعل إلى أفعالِ

ثلاثةٍ بقول كلِّ تالِ

ماضٍ مضارعٍ وأمرٍ كاتّقِ

ربَّ الوَرَى فقد نجا من يتّقي

يعني أن الناظم انقسم الأفعال إلى ثلاثة أضرب: ضرب منها أفعال ماضية قد ذهبت وتقضّت ، كقولك: كتَب وعلِم. والضرب الثاني: أفعال مستقبلة ، منتظرة لم تقع بعد أو واقعة في الوقت الذي أنت فيه لم تمض ولمّا تمض بعد ، كقولك: يصلي ويأكل. والضرب الثالث أفعال أمر: الدالة على طلب وقوع الفعل من الفاعل المخاطب ، كقولك: تعلّمْ واجتهدْ. وهذا التقسيم يبين طبيعة الناظم من حيث ربط المصطلحات النحوية بدلالاتها في المعنى.

ما يميز كتاب سعادة الطلاب هو ابتعاده عن التعريفات المنطقية التي تشتت ذهن المتعلم المبتدئ ، فهو يهتم بذكر الأمثلة التي تسهم في تكوين المعرفة للمتعلم عن طريق توضيح القاعدة النحوية. وقد سلك هذا المنهج في معظم أبواب الكتاب كما سبق ذكره في باب الأفعال ، حيث مثّل أنماط الفعل الثلاثة بجملة: **(اتق رب الورى فقد نجا من يتقي)** فاتّقِ: فعل أمر ونجا: فعل ماض ويتقي: فعل مضارع. كما نرى نفس ذلك في تمثيله لأحرف المضارعة ، أجمله في فعل "نأيتُ" بقوله:

أربعةٌ يجمعُها في القيد

نَأَيْتُ عن إبليسَ جَمٍّ الكَيْدِ

فحرص على عدم الفصل بين النحو واللغة ، ونظر إلى قواعد اللغة من حيث ارتباطها بالمعنى. ولذلك فقد عني بإيراد الأمثلة الكثيرة السهلة الاستعمال محاولا تقويم التراكيب اللغوية. وهكذا فنحن نستطيع أن نقول إن الشيخ في منظومته سعادة الطلاب كان ينتهج منهجا عمليا تطبيقيا غرضه تقويم اللغة المستعملة ، سواء في التعبير الكتابي أو الشفوي ، دون أن يثقل ذهن المتعلم بكثير من القواعد النحوية.

وقد رام الناظم من خلال منظومته توضيح النحو في ذهن المتعلّم؛ لذا عنون كتابه باسم ينطبق على مسماه ، فاتسم أسلوبه بالوضوح في المعنى ، وعدم التعقيد في المبنى؛ مما أدّى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين. كما أنه يمكننا أن نُبدي قراءة في المحتوى النحوي وترتيبه لسعادة الطلاب ، أما بخصوص ما يتعلق بالمحتوى النحوي فإن منظومة سعادة الطلاب تتميز بالشمول والاختصار؛ إذ شملت معظم الأبواب النحوية التي يحتاجها المتعلّم غير المتخصص ، مع اختصارها للقواعد النحوية ، وذلك بخلوها من التعريفات غالبا ، وبعض الأبواب المعروفة في النحو التعليمي مثل (ما ، لات ، إنّ المشبهات بليس ، الاختصاص ، التحذير ، الإغراء ، أسماء الأفعال...). ويبدو أن المؤلف كان على إدراك وعلى وعي بإهمال هذه الموضوعات؛ فربما رأى أن عرضها في المنظومة لا يتناسب مع المستوى

الذي أُلّف الكتاب من أجله. وهذا الاقتصار على الموضوعات الأساسية له فائدة تعليمية تتمثل في عدم تشتيت ذهن المتعلم بكثرة القضايا النحوية التي يتعلمها.

وأما فيما يتعلق بترتيب المحتوى، فقد بنى الشيخ منظومته على نمط المعمولات التي هي أثر للعامل، فقام بجمع الأشياء المتشابهة تحت موضوع واحد، ويبدو أن هذا الترتيب الذي سلكه الناظم في منظومته، يُعد من قبيل التعليم المناسب لفكر المتعلم؛ لما يتسم به هذا الترتيب من جمع للمسائل المتشابهة في أبواب "وهذه النظرة القائمة على محور المعمولات كانت نظرة تعليمية مناسبة للفكر، لما فيها من ترابط بين المسائل في الأبواب، وذلك يساعد المتعلم على الترتيب الذهني وعلى التذكر أيضا" (انظر ممدوح، 2000، 265).

على ضوء ما سبق ذكره من ملاحظات على مستوى المبنى والمعنى لهذه المنظومة النحوية؛ فإن أقصى ما يمكن أن توصف به منظومة سعادة الطلاب هو أنها نحو يلائم المتعلمين والمتخصصين أيضا، كما أنها تعد -عموما- وسيلة ناجحة في ميدان التعليم، فهي تعبر عن مدى تمكُّنِ صاحبها من النظم وقدرته على جودة الأداء وإثبات كفاءته في مجال تعليم النحو.

5- المصطلحات النحوية المستعملة

نجد المؤلف يطلق على بعض المسائل المعروفة مصطلحات أخرى، ومن ذلك :إطلاقه على المفعول المطلق مصطلح "المصدر"، وإطلاقه على المفعول فيه مصطلح "ظرفي الزمان والمكان" وإطلاق قضية (لا) فقط، دون أن يضيف "النافية للجنس". إضافة إلى ما سبق ذكره، فإن مفهوم حروف الجر عنده واسع فيشمل إضافة إلى حروف الجر الظروفَ والأسماءَ التي ليست بحروف ولا ظروف.

هذا وقد اتبع المؤلف المنهج الوصفي في تقعيده فنظر إلى الوظيفة النحوية، ولم ينظر إلى العمل النحوي فقط، حيث اعتبر كثيرا من الظروف والأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف من جملة عوامل الجر. فقد ذكر من الظروف مصطلحات (أمام، خلف، مع، وراء، قُدَّام، فوق، تحت، تلقاء، عند، إزاء، حذاء، ثَمَّ). ومما ذكره من الأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف: (غير، سِوى، سُوى). فالمؤلف ذكر هذه الظروف والأسماء التي ليست بظروف ولا حروف "لأن هذه المصطلحات تؤدّي نفس الوظيفة التي تؤديها حروف الخفض (الجر) مثل قولنا: الكتاب على الطاولة أو الكتاب فوق الطاولة" (انظر حلمى، 1995، 53).

لا نجد في منظومة سعادة الطلاب بعض المصطلحات النحوية الشائعة عند المحدثين مثل: العلامات الأصلية والعلامات الفرعية فعدم ذكر الناظم لهذه المصطلحات كان بسبب النظم الذي اضطره إلى ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله في باب علامات الإعراب:

لِلرَّفعِ دالٌ من علاماتٍ وفَتْ
ضمٌّ وَوَاوٌ ألِفٌ نُونٌ ثَبَتْ
لِلنَّصْبِ هَاءٌ من العلاماتِ انْمِيَا
أي فتحَةً وألِفًا كَسْرًا ويَا
خَمّسْ بحذفِ النُّونِ أمّا الْفَتْحُ
فَبَانَ في جِيمٍ أتَاكَ فَتْحُ
واعْدُدْ عَلامَاتٍ ثَلاثًا يا فَتَى
لِلْخَفْضِ وَهْيَ كَسْرَةٌ ياءٌ أَتَى
وفَتْحَةٌ والكُلُّ منها خُصِّصَتْ
بموضعٍ عن غيرها وانفَرَدتْ

أمَا السّكُونُ فعَلاَمَةً يكونْ

لِلجَزْمِ في فِعْلٍ مُضارِعًا يبينْ

والحَذْفُ في الْمُعْتَلِّ ءاخِرًا يكُونْ

علامةً للجزْمِ عند المُفْلِقينْ

فقد استعمل الشيخ في هذه الأبيات مصطلح "علامات" ويقصد بها العلامات الإعرابية التي تخص بالرفع والنصب والخفض والجزم. ويمكننا تقسيمها إلى العلامات الأصلية وهي: الضمة ، الفتحة ، الكسرة ، السكون والعلامات الفرعية وهي: الألف ، الواو ، النون ، الكسرة الياء ، الحذف[295].

فنلاحظ من خلال البيت الرابع غياب المصطلح المألوف في كتب النحو وهو "الجر" وقد ذكر الناظم مصطلح "الخفض" وهو مصطلح شائع استعمله كثير من النحاة القدماء والسبب في غيابه؛ هو عدم سماح النظم بظهوره. مما نستنتجه أيضا من خلال الأبيات السابقة حضور التعريف البنيوي الشكلي في التعريفات ، وقد لجأ الناظم إلى هذا النوع من التعريف كثيرا في منظومته.

الخاتمة

لقد أسفرت القراءة التحليلية لمنظومة سعادة الطلاب للمؤلف الشيخ أحمد الخديم عن أبرز الأبعاد اللسانية التربوية لها؛ فقد امتازت بالوضوح في المعنى وعدم التعقيد في المبنى ، والسهولة في عرض المادة النحوية على المتعلِّم؛ مما أدّى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين في طابع مخفف ، ويمكن إبراز أهم نتائج هذه الدراسة والتي تتعلق بالمنهج اللساني التربوي الذي سلكه المؤلف في منظومته ما يلي:

- تبنيه للطريقة الاستقرائية في عرض المادة النحوية على المتعلم.

- تبنيه للمنهج الوصفي في عرض أبواب النحو وابتعاده عن التعليل والتفسير.

- طريقته في التحليل والإعراب حيث ابتعد عن الإعراب الصناعي وركز على العرض الوظيفي للعناصر النحوية.

- طبيعة حدوده وتعريفاته؛ فقد لجأ إلى التعريف بالمثال الوظيفي والبنيوي الذي يعتمد على الوصف وكثرة التمثيل ، وابتعد عن التعريف المنطقي.

إضافة إلى ذلك ، فقد امتازت المنظومة بكثير من المبادئ اللسانية التربوية؛ منها اكتفاء الشيخ بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين ، وابتعاده عن التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تُشتِّت ذهن المتعلم بذكر القضايا النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية ، إضافة إلى ترتيبه

([295])ومما سلكه المؤلف في منظومته تيسيرا على المتعلمين ، أنه لايفصل في ذكر علامات الإعراب ، كما اتضح ذلك في الأبيات أعلاه ، حيث يكتفي المؤلف بذكر العلامات الأصلية للإعراب ، فلا تو جد في منظوره علامات فرعية أصلا ، فالعلامات كلها أصول؛ فيجعل **الواو** علامة للرفع في الأسماء الخمسة ، وجمع المذكر السالم ، **والألف** علامة للرفع في المثنى ، **والنون** علامة للرفع في الأفعال الخمسة ، **والياء** علامة للجر في الأسماء الخمسة ، وجمع المذكر السالم ، **والألف** علامة للنصب في الأسماء الخمسة ، **والياء** علامة للنصب في المثنى وجمع المذكر السالم ، **والكسرة** علامة للنصب نيابة عن الفتحة في جمع المؤنث السالم ، **وحذف النون**علامة للنصب أو الجزم في الأفعال الخمسة إذا دخلت عليها عوامل النصب أوالجزم. وقد أعطى الناظم أمثلة في ذلك بقوله:

ولم يزالوا يطلبون رُشدا ★★★ فلا تزالوا تطلبون مَجْدَا

ولن تنالي الدينَ حتى تستري ★★★ جسمكِ يازينبُ بالتَّخمُّرِ

وحذف عرف العلة علامة للجزم في الفعل المضارع المعتل الآخر ،وقد مثل ذلك الناظم في البيت التالي:

تقولُ لمْ أَسْهُ ولمْ أَنْسَ ولمْ ★★★ أَعْصِ إلاَهِيَ تعالى باللَّمَمْ

لمحتوى منظومته على نمط المعلومات التي هي أثر للعامل ، واتباعه لمنهج الإجمال ثم التفصيل في عرض القواعد النحوية ، وإهماله لبعض أبواب النحو مراعاة لمستوى المتعلمين ، واعتماده مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة. وإكثاره من الأمثلة التي توضح القاعدة للمتعلم. ومن منهج الناظم في منظومته الاعتماد على الاختصار والإيجاز ، وأيضا مزجه بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية ، وقد عمد الشيخ في منظومته إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا... والحاصل أن منظومة سعادة الطلاب تحتوي على جملة من الأبعاد اللسانية التربوية ، وهي مفيدة في العملية التعليمية ، إذا ما أحسن القائمون على مناهج النحو استثمارها في بناء المناهج النحوية.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جني ، أبو الفتح عثمان (1954) المنصف شرح تصريف المازني. ج1 ، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، وزارة المعارف ، ط1 ، مصر.
- ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد (1987) رسائل ابن حزم الأندلسي ، رسالة مراتب العلوم. ج4 ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت.
- امباكي ، الشيخ أحمد بمبا ، سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب. مكتبة الشيخ أحمد بمبا ، طوبى دار القدوس ، سنغال.
- تياو ، أبو مدين شعيب (2009) فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب. مطبعة المعارف الجديدة ، الطبعة الأولى ، الرباط.
- الجاحظ ، عمروبن بحر (1964) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج3 ، ط1 ، مكتبة الخانجي ، مصر.
- حلمى ، خليل (1995) العربية وعلم اللغة البنيوي ، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث. دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر.
- الراجحي ، عبده (1995) علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية. دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية.
- صالح ، عبد الرحمان الحاج (1974) أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية ، مجلة اللسانيات ، العدد الرابع ، معهد العلوم اللسانية والصوتية ، الجزائر.
- ممدوح ، عبد الرحمان (2000) المنظومة النحوية دراسة تحليلية. درا المعرفة الجامعية ، القاهرة ، مصر.

جمالية التناص الشعري في الأدب السنغالي: ديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري نموذجا

بقلم الباحثة: مام بوسو جوب[296]

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يعد الشاعر إبراهيم جوب المشعري واحدا من أهم الشعراء الصوفيين في عالمنا المعاصر الذين آثروا الكتابة باللغة العربية. وقد ترك بصمة شعرية قوية لا يستطيع المتمعن في قصائده التغافل عنها ، لما خلف وراءه من تراث شعري ثمين مليء بالدرر والأصداف ، بحيث لن يستطيع قارئ أيا كان قراءة مجمل منجزه الشعري دون أن يقتنع بمدى جزالة أسلوبه وعرامة ألفاظه وملكته الأدبيّة الفذّة وسلطته اللغوية القاهرة. فالشاعر عند القراءة المتأنية نجده من طراز البحتري في صوره الفنيّة البديعيّة التي يبثها في ثنايا نصوصه الراقية ، ومن طراز أبي الطيب المتنبي لما يتميز به من فطانة وذكاء غير معهود وحسن الصناعة. ولعل أكبر ما يميز هذا الشاعر المريدي على غيره من الشعراء السنغاليين يتجلى في مخزونه اللغوي الذاخر المتنوّع وأمواج بلاغته وكناياته المتلاطمة. فهو بقدر ما يحسن التعامل مع اللغة الشعريّة في كتاباته يحسن التصرف في أساليب البيان ، مما جعله يتفنن في المحسنات البديعية ، ويُجيد تسخير البحور الشعرية الخليلية وفق موسيقى أفكاره وهواجس مكنونات صدره على إيقاع مدارج إسرائه ومعراجه الجمالي إلى شيخه الشيخ أحمد بمب رضي الله عنه في مدائحه إياه بما يناهز أربعمائة قصيدة تتراوح بين الطويلة والمتوسطة والقصيرة. وهنا تكمن عبقريته ، حيث يتعجب المرء سائلا مع نفسه كيف يقدر شاعر ما من الشعراء كتابة هذه الكمية الهائلة من الأبيات والقصائد مادحًا شخصية واحدة محتفظًا في كل الأبيات المستوى الفني الراقي المطلوب دون الوقوع في فخ التكرار أو الضعف أو النظميّة الممقوتة في الشعر.

ونحن عند قراءتنا لديوانه ، نلاحظ أن شعره يتّسم بسماتٍ ميَّزته عن سواه من حيث المعاني والألفاظ ، ونستطيع إجماله على الشكل التالي:

1) وضوح المعاني وبساطتها وبعدها عن التَّكلف والخيال: فقصائد الشاعر الموجودة حاليا رغم أنها تدخل في خانة المدح ولم يعرف عنها الغلو والمبالغة المذمومة.

2) البساطة والوضوح في التركيب والصور: يعود هذا الوضوح والبساطة إلى رغبة الشَّاعر في نقل أحاسيسه ووصفه للأشياء نقلاً واقعيًا ، مما جعل شعره وثيقةً تاريخيَّةً لمعرفة حالة الحركة الأدبية في القطر الأفريقي السنغالي.

3) تقديم المعاني الذِّهنيَّة في قالبٍ محسوس: حتى يغدو المعنويُّ ماديًا ملموسًا للمتلقّي لا غموض فيه ولا وجود للخيال إلَّا قليلاً ، مما جعله بعيدًا عن التَّحليل ، فهو يغذّي خياله بالعالم الحسّي الَّذي يحيط به ، مما يجعله دقيقًا في وصفه وكأنَّه نحَّاتٌ يشرف على تمثاله بكلِّ عناية.

4) السُّرعة في تناول المعنى: مما جعله لا يقف على معنىً واحدٍ طويلاً ، وهو ما جعل الأبيات الشِّعريَّة المشعرية المديحية الخديمية تتَّسم باستقلاليَّة كلٍّ منها ، فنجد البيت الشِّعري وحدةً معنويَّةً مستقلَّةً بذاتها ، فاتَّسعت القصيدة الطَّويلة إلى عدَّة

[296] طالبة باحثة من جامعة عبد الملك العدي – مدينة تطوان.

موضوعات مختلفةٍ مما ألبس أشعاره طابعًا قصصيًّا في أماكن شتى.

إن شعر إبراهيم جوب المشعري شديد الارتباط بالعصر الجاهلي و العباسي و الأموي و العصر المملوكي أو العصر الذي عاش فيه عصر الحديث. فعندما نتأمل ديوانه على سبيل المثال نجد تناصات جلية حينا وخافتة أحايين أخرى مع الشعراء الذين كانوا قبله أو كانوا معه على قيد الحياة ، فنجد معلقة النابغة الذبياني الجاهلي شديدة الحضور في ديوانه وكذلك معلقة امرئ القيس وغيرهما ، كما نلمح فيه حضور الأدب العباسي و الأدب الأموي و الأدب المملوكي ولا سيما شعر محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي وصولاً إلى شيخه الشاعر شيخ أحمد الخديم. وتتضافر تلكم الإشارات اللغوية والبلاغية مع غيرها من الأدوات التعبيرية الأخرى في بناء القصيدة المشعرية ، ومنحها هويتها الشعرية وأبعادها الجمالية.

بناءً على ذلك يمكن القول بأن شاعرنا المشعري تأثر أيما تأثر بكل هذه العصور الثجّاجة بالعطاء الشعري الباذخ ككلّ الشعراء الذين سبقوه. وسنحاول في هذه الورقة العلمية تقديم دراسة نقدية تحمل عنوان " التناص في الأدب السنغالي العربي القصيدة المشعريّة أنموذجا". والغاية من هذا البحث بيان الخلفية الثقافية التي اتكأ عليها شعر إبراهيم جوب وذلك في محاولة مني دراسة روافده ومراجعه الفكرية والجمالية المتجلية في مُنجزه الأدبي.

المطلب الأول: التعريف بالشاعر حياته ووفاته:

CHEIKH IBRAHIMA DIOP AL MASHARI

هو إبراهيم بن محمد بن حسن بن مصطفى بن إبراهيم ، وهذا الاخير هو الجد الأكبر لأهل مشعر ، وهو من سلالة عربية شريفة ، وأصله من قرية مشعر التي تقع قرب تيكُماطينTigoumatine* بجمهورية موريتانيا الشقيقة. ولد الشيخ ابراهيم جوب سنة 1867م ، في قرية تسمى مشعر؛ وتقع في مقاطعة كبميرKebemer بإقليم لوغا*Louga* ، وسميت بذلك تيمنا بقرية مشعر بموريتانيا التي نزح منها أصول هذه الاسرة الشريفة والدوحة المنيفة. نشأ في أسرة يتضوع بين أرجائها أريج العلم والدين ، فوالده هو الشيخ محمد جوب المشهور ب"مور حبس جوب" وكان من جلة العلماء. أما والدته فهي "سخْنَ كُومبا سيلَا جَهْ" كانت ذات دين وعفة ولما بلغ الشاعر إبراهيم جوب سن التمييز والنضج علمه والده مور حبس جوب القرآن الكريم على يديه حتى حفظه وأتقنه رسما وتجويدا ، ولما حفظ القرآن تابع دراسته من والده فتعلم منه العلوم الشرعية واللغوية ، وبعده رحل إلى موريتانيا لمتابعة دراسته على يد صديق والده "محمود" فمكث عنده حتى نبغ من جميع العلوم الشرعية ولا سيما اللغوية من نحو وصرف وعروض ، وبعده عاد إلى بلاده مشعر وأخذ يدرس جنب والده في مدرسته المشهورة التي كانت محط رحال طلبة العلم ، وقبلة يرتادها الظامئون إلى معارف الإسلامية[297].

مما يضاف من ذلك مكوثه في البيت البكي بين يدي حبيبه أبي المحامد الشيخ أحمد بمب خادم الرسول رضي الله عنه ، فرباه بالدين والعلم والعمل ، والشريعة المطهرة والحقيقة المنورة باتباع أوامر الله تعالى ، ونهج الرسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان زاهدا في الدنيا ورعا صادقا لله سبحانه وتعالى ، عادلا ، مخلصا ، تقيا ، نقيا ، طيبا ، جوادا ، معينا للمؤمنين المحتاجين والسائلين جميعا.

وبما أن الشاعر نذر حياته بمدح شيخه شيخ أحمد الخديم رضي الله عنه وأرضاه ، –ولقد مدحه بأجلّ القصائد وأعظمها رؤية وشكلا– ، فلابد أن نسرد

[297] ابراهيم جوب المشعري: الديوان ص13

قصة علاقته مع مؤسس الطريقة المريدية ، بدءًا من سبب لجوئه وتعرفه إليه وصولا إلى مبايعته واستقراره في البيت المريدي.

تعتبرُ قضية الدين مما جمعه مع الشيخ الخديم رضي الله عنه حتى بايعه ، وذلك بعد وصول الشيخ من دكار بعد منفاه إلى غابون ومضى منه إلى اندر ، فانقلب منه إلى لوغا ، ونزل عندَ أخيه الشيخ اتيورو امباكي ، ثم مر بدار شيخ تيلّ سيس ، ثم إلى دار مريده سرين سر لوح صحوة يوم الأحد قي [سنوسِ *Sanousi*[298]] ومكث عنده رمضان كله يستريح ويصوم.

من هنا يحكي لنا الشيخ محمد الأمين جوب الدغاني قصة دينه العجيب مع الشيخ أحمد بمب يقول:" بعد رجوع الشيخ من المنفى تزاحم عليه الناس فوق العادة ، ما بين متعلق آخذ منه طريقته ، وبين مسترفد يستقضيه حوائجه ، وبين أجلاء يزورونه ويهنئونه ، ومن جملتهم أعجوبة الزمان وشاعر الأوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري. ولقد ركب للشيخ إبراهيم جوب المشعري دين عظيم في زمن عسر قضاؤه فيه فأعجزه ، وجال بين الأجلاء من المشايخ فلم يأخذوا بيده ، وبقي مبهوتا مهموما إلى أن وصل الشيخ إلى سنوس قدم عليه ومعه أبيات ذكر فيها أمر الدين وكيف قسمه على النبي وعلى خلفائه الأربعة حين يئس من إغاثة الأجلاء إياه ولما استأذن على الشيخ أذن له فأتى وسلم قبل أن يذكر حاله ودينه وكيف قسمه في الأبيات قال له الشيخ: ائتني بذلك العفاص[299]. فأتى له به. ثم بالثاني ، فأتى به ، فقال له الشيخ: احسب ما في الكل على حدة ، ففعل وكان في كل واحد ثلاثمائة ، والمجموع ستمائة ، فقال له الشيخ: اعزل منها مائة وائتني بها ، ففعل ثم قال له: اجمع القسمين ، ففعل. فقال له: استعن بهذا على مصالحك وكان دينه خمسمائة فأخذه الحال من كشف الشيخ ، وصاح صيحة عظيمة. فقال له الشيخ: ما بالك؟ فحكى عليه قصته وسرد له الأبيات وها هي: [من الكامل] [300]:

فعليّ أدين إخوة قسمتها بين الكرام لعل أن

فعليك يا مختار أول وعليك يا صديقنا

وعليك يا فاروق ثالث وعليك يا عثماننا

وعليك يا ليث الكتائب الحسنين نوري ديننا

أنتم كرام لا يلوذ شاكي النوائب فانثنى

فعليكم أزكى صلاة الله بكم الحوائج قد قضى

فتعجب الشيخ كثيرا ، وحمد الله."[301]

وكان له مكانة عظيمة عند الشيخ أحمد بمب فقد كان يرد بعض رسائل الشيخ الخديم ويقرأ قصائده ومدائحه النبوية بإذن منه ، حتى بدأ يكتب قصائد يمدح به شيخه الجيل لتبجيله وتعظيمه مادحا إياه فيما بقي من عمره .

انتقل الشاعر إبراهيم إلى جوار ربه سنة 1933م ، في قرية "كلسان" *Kalsane* ، ودفن بمدينة "طوبى"المحروسة ، وكان عمره نحو 66 سنة ، رحمه الله وصب على روضته شآبيب العفو والمغفرة والرضوان. سوف نأتي بذكر شيء عن شعره فغالبه متوجه إلى مدح الشيخ الخديم رضي الله عنه الذي في

---

298 قرية في اقليم لوغا

299 الغفاص: نوع من الوعاء توضع فيه النفقة

300 لم ترد هذه الأبيات في ديوان الشاعر

301 الشيخ محمد الأمين جوب الدغاني: إرواء النديم من عذب حب الخديم

الديوان، لأنه كان من أكبر مريدي المترجم له، شاعرا مفلقا. وله قصائد بهية في مدح مشايخ الطريقة المريدية الذين سلكوا على يدي هذا الشيخ الجليل، كالشيخ محمد المصطفى امباكي، والشيخ محمد الفاضل امباكي، والشيخ إبراهيم فاط امباكي وغيرهم.

ولقد شهد النقاد للشاعر المشعري بالسبق والتميز في المضمار الشعري، مما جعل القاصي والداني يحتفي به ويُشيد بتجربته الشعرية، ولعل أبرز دليل على ذلك قول الناقد الغيني د.كبا عمران بعد أن أتم قراءة ديوانه قال في حقه: "هذا الديوان بقصائده الحسنة رفع مكانة الشّاعر في السنغال كلِّها وفِي خارجها مكانا عليا وعظيما، الذي خلع على شيخه ووسيلته إلى ربه من حلل المدح والثناء مالا يخلقه كرّ الملومين ولا يبلى جدته مر الجديدين، وجعله مريدا صادقا مرضيا"، ويقول مرة أخرى تعليقا عليه:" وبهذا يتوج بلواء المديح لا بين الشعراء في السنغال فحسب بل في المنطقة بأسرها إذ لم يدون مثل هذا الانتاج في ممدوح غير الرسول والشيخ أحمد التيجاني."[302]

المطلب الثاني: التناص عند باختين وجوليا كريستيفا

أولا: ارهاصات التناص عند ميخائيل باختين.

يكاد يجمع الدارسون على أن باختين هو المطور لمفهوم التناص، وإن كان قد طرحه في صيغة مفهوم "الحوارية" فهذا المفهوم استعمل من طرفه لوصف العلاقة القائمة بين الخطابات خاصة وأنه يعتبر الحوارية تنتمي إلى عالم الخطاب لا إلى عالم اللسان.

وفي دراسته لروايات (دوستويفسكي) ضمن كتاب (شعرية دوستويفسكي) أشار إلى الجانب الحواري الذي اعتمده (دوستويفسكي) حيث جعل من شخصياته "أناسا أحرار مؤهلين للوقوف جنبا إلى جنب مع مبدعيهم"[((303))].

فلا وجود لخطاب لا يفترض الآخر ويتأثر به، وكل هذه الآراء كانت إيماء متخفٍّ لظاهرة التناص التي اكتشفها ولم يسمها التناص[304].

ثانيا: التناص عند جوليا كريستيفا:

إذا كان هذا المفهوم قد ارتبط في مراحله الأولى بميخائيل باختين

فإنّ جوليا كريستيفا استعادت هذا المفهوم وطورته انطلاقا من الكم المفاهيمي المعاصر لها ووفق مشروعها السيميائي ونظرتها للنص الأدبي بشكل عام، حيث "استبدلت مصطلح الحوارية بالتناصية، ولا يعتبر عملها استنساخا للمفهوم الباختيني نظرًا لاختلاف المرحلة المعرفية التي تفصل بينهما، فلقد استفادت من المنطلق النظري الذي وظفه باختين، وأضافت إليه حوارا مع المعرفة الحديثة ممثلة في

---

[302] كبا عمران: الشعر العربي في الغرب الافريقي ج2، ص-461

[((303))]) ميخائيل باختين- شعرية دوستويفيسكي- ترجمة جميل ناصف التكريتي- مراجعة حياة شرارة- دار توبقال للنشر- د/ط- د/ت- ص10

[((304))]) ميخائيل باختين- الخطاب الحواري- ترجمة محمد برادة- دار الفكر للدراسات والنشر- القاهرة- ط1- 1987-ص53

الماركسية في آخر مستجداتها ، وعلم النفس في أحدث مراجعاته"((305))

وهكذا طورت كريستيفا مفهوم "الحوارية" إلى مفهوم التناص إيذانا برؤية جديدة لاغية لفكرة النص الأصل ، مغيِّرةً لمبدأ المقارنين الفرنسيين في التأثير والتأثر[306]. وكل نص يعمد إلى إعادة ترتيب الألفاظ وتجميعها وداخل كل نص تتوزع اللغة مشكلة فضاءً من التداخلات منتجة نصا قابلا للاستهلاك عبر مقولاته المنطقية.

ولقد ميزت كرستيفا بين نوعين من التناص هما:

1_ "التناص الشكلي: مرتبط بالتقاليد الشكلية للكتابة التي يكتسبها المؤلف ويستعملها كالتراكيب والدلالات المعجمية والعبارات

والتناص الشكلي في شعر إبراهيم جوب المشعري أمثلته كثيرة وسنورد بعضها في مكانه في هذه المقالة.

2_التناص المضموني: الذي هو استحضار للاستشهادات من أمثال وحكم ومقولات فلسفية((307))".

وهذا النوع من التناص أيضا حاضر بقوة في شعره سيتجلى الأمر عند التطبيق في المحاور القادمة.

ثالثا: التناص في النقد الأدب العربي.

لقد تنبه النقاد العرب القدماء إلى ظاهرة تداخل النصوص أو التفاعل النصّي ، وبخاصة في الخطاب الشعري ، واتخذ هذا التنبه طابعا تحليليا نقديا ، تعددت فيه مجموعة من المصطلحات التي تدقق في جزئيات التداخل ، وتضعها داخل إطار اصطلاحي تمييزا لها عما سواها ، ورصدوا طرائق ممارستها ، من منظور بلاغي ، على اعتبار أن البلاغة كانت هي العلم الأحدث الذي يغني جماليات الشعر. فهي علم تقييمي قبل أن يكون تعليميا.

ومن هنا يمكن القول إن النقد العربي القديم أشار إلى (التفاعل النصّي) ، وإن لم يحدده باسمه المعاصر ، ولكن تحت تسميات اصطلاحية من مثل: التضمين ، والاستشهاد ، والاقتباس وغيرها. كما ظهرت مصطلحات عديدة في الحقل البلاغي تشير إلى التّناصّ وتومئ إليه: من ذلك: الاستيحاء ، والإشارة ، والتلميح ، والتضمين ، والاقتباس... الخ[308].

ويشير الدكتور شكري عزيز ماضي في كتابه (من إشكاليات النقد العربي الجديد) في دراسته للتناص ، إلى وظيفة أخرى للنص الذي لا يكتفي بالأخذ من نصوص سابقة عليه ، وهي منح النصوص القديمة تفسيرات جديدة ، وهذا يذكّرنا بمفهوم الإنتاجية الذي تشترط كريستيفا تحققه في النص الجديد"[309].

ولقد تفطن الدارسون القدامى إلى ظاهرة التداخل بين النصوص وتناولوها في أبسط صورها المتمثلة في السرقات الأدبية والبحث في ظواهر التشابه والتأثير والتأثر بين الكتاب ، ولهذا فإن كلَّ نصٍّ هو

4– أنور المرتجي– سيميائية النص الأدبي– إفريقيا الشرق– ط1– 1987 – ص52

5– جوليا كريستيفا– علم النص– ترجمة فريد الزاهي– دار توبقال –الدار البيضاء–ط2–1997–ص 21

((307)) سلمان كاند: عالم النص_ دار الكندي_ الأردن_ سنة 2003_ د ط6_ ص246

308 http://adab1392atu.blogfa.com/post/50

309 شكري عزيز ماضي: إشكالية النقد الحديث ، 44

تناص ، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة ، وبأشكال عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى ، إذ نتعرّف فيه نصوص الثّقافة السّالفة والحالية: فكلُّ نصٍّ نسيجٌ من استشهادات سابقة. كما قد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى التناص واشترط للتمييز بينه وبين الانتحال والسرقة والنسخ ، تحقيق الإضافة والتجديد فـ"(متى أجهد أحدنا نفسه ، وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا ونظم بيتا ، يحسبه فردا مخترعا ، ثم يتصفح الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ، أو يجد له مثالا يغض من حسنه ، ولهذا السبب أحضر على نفسي ، ولا أرى لغيري بثَّ الحكم على شاعر بالسرقة.[310] "

المطلب الثالث: تجليات التناص في الشعر السنغالي العربي المديح النبوي أنموذجا:

إن اختيارنا للمديح النبوي الشريف في الشعر السنغالي له مبررات كثيرة ، ومن بينها إشارة الباحث محمد الأمين جوب أن شعراء هذا البلد يكونون في أوج عطائهم الفني حين يبدعون في هذا الغرض قائلا في هذا السياق " ومن الملحوظ أنه في الزمن الذي ضعف فيه الأدب العربي بسبب ضعف المستوى الفني لدى الشعراء حتى سماه النقاد بعصر الانحطاط؛ كان الأدب الأفريقي في أوج فتوته وازدهاره ، وكانت أفريقيا تعج بأصوات شعرية رفيعة المستوى ، فكان لكل دولة شعراؤها ، وهؤلاء الشعراء لم يظهروا مقدرتهم الشعرية إلا في مدح النبي ﷺ لكونهم صوفيين[311]".

وعندما نحاول تطبيق آلية التناص في شعر هؤلاء نجد نماذج كثيرة ، وسنختار منها الأبيات التي تقاطعت مع بردة الإمام البوصيري وهي كثيرة أيضا لكن سنكتفي فيها بالإشارة للبعض.

ولابد أن نشير هنا أن التناص لا يأتي إلا نتيجة إعجاب شديد من اللاحق للسابق ، مما يسهل عملية التأثر منه ، حتى يحدث التفاعل والتداخل بين النصوص سواء من الناحية الشكلية أو الناحية المضمونية أو هما معا في آن واحد.

ولا يخفى على أحد أن الشعراء السنغاليين لم يتأثروا بأية قصيدة أيا كانت مكانتها وجمالياتها مقدار تأثرهم ببردة الإمام البوصيري في مدح النبي صلى الله عليه ، فبعض منهم قاموا بمعارضتها وبعض منهم قاموا بتشطيرها ، كما أن بعضهم اقتبسوا منها ، ومن هؤلاء شيخنا شيخ أحمد بمب في بعض قصائده ، ولا سيما قصيدته الرائية الشهيرة

قلبي له في عتاب الجسم تكرار

لأنه للهُدَى والنُّور جَرَّارُ

ففي هذه القصيدة مثلا يقتبس الشاعر من البردة قائلا:

فَمبلغُ العِلمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشرٌ

وأنهُ دُونهُ عقلٌ وأسرَارُ

فلا تَقِيسُوا ابنَ عَبد اللهِ بالفُضَلاَ

إنَّ الكَوَاكِبَ تُخفِيهَا سِنِمَّارُ

فهو هُنا يشير إلى بيت البوصيري الشهير:

فمبلغُ العِلْمِ فيهِ أَنه بشَرٌ

وأنَّهُ خيْرُ خَلقِ اللهِ كُلِّهِمِ

وإذا أمعنا النّظر في تراث الشيخ أحمد بمب الشعري نجد ميمية البوصيري حاضرة بنسبة معقولة في عدّة

---

[310] مجلة الآداب اللبنانية- العدد 1-2 كانون الثاني وشباط - السنة 46- 1998 ص50

[311] محمد الأمين جوب: تأثير بردة البوصيري في الشعر السنغالي العربي ، دراسة نقدية تحليلية ، ص 131.

قصائد مديحيّة ، ومن بينها قصيدته في وداع رمضان العظيم ، وهي رائية رائعة السّبك ، وقد اقتبس فيها دونما مرَّة ، ومن ذلك قوله:

وَهُوَ الحبيبُ الذِي تُرجَى شفَاعتُهُ

بِه توسّلتُ فِي ليلٍ وفِي سحَرِ

فهذا البيت مثلا يتناص مع بيت في بردة البوصيري وهو قوله:

هُو الحَبِيبُ الذِي تُرجَى شَفَاعَتُهُ

لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوالِ مُقْتَحَمِ

وقول الشيخ أحمد الخديم:

وَمن تكُن لِرسُولِ اللّهِ نُصرَتُهُ

إن تلقهُ الأسدُ فِي آجامها تَحرُ

يتناص مع قول البوصيري في بردته:

وَمَن تَكُن بِرسُولِ اللّهِ نُصرَتُهُ

إِن تلقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

وقول الشيخ أحمد الخديم :

وَلَن تَرى مِن وَلِيٍّ غَيرِ منتصِرٍ

بِهِ ولاَ من عَدُوٍّ غيْرِ منذجِرِ

يتناص مع قول البوصيري:

وَلَن تَرى مِن وَلِيٍّ غَيرِ منتصِرٍ

بِهِ ولاَ من عَدُوٍّ غيْرِ مُنقصِمِ

وقول الشاعر شيخ أحمد الخد يم

كأَنّهُ وهُوَ فرْدٌ مِن جلاَلَتِهِ

فِي عسكرٍ حينَ تلقَاهُ وفِي زُمرِ

يتناص مع قول البوصيري:

كأَنّهُ وهُوَ فرْدٌ مِن جلاَلَتِهِ

فِي عسكرٍ حينَ تلقَاهُ وفِي حَشَمِ

ونجد الشاعر أحمد عيَان سِي يشير في مطلع قصيدته ببردة البوصيري وهو يمدح الحاج سعيد النور تال سبط عمر فوتي تال حين قال فيها:

أمن تذكُّرِ من في البَانِ والبَانِ

أَمِن تَغَزّلِ غزْلانٍ بغزْلاَنِ

تأْتِي إلى طَلَلٍ تبكِي لسَاكِنِهِ

وحَيَّ عَنِّي تَحَايَا الخَيْرِ أَوطَانِي[312]

ومن الواضح في البيت الأول أنه يشير إلى مطلع بردة البوصيري في قوله:

أمِن تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ

مَزَجتَ دَمْعًا جَرى مِن مُقلةٍ بِدَمِ

فلَو حَاولنَا إحصاء إشارات الشعراء السنغاليين للبردة قد يستغرق منا وقتا طويلا دون الانتهاء منه ، حتى الشاعر الذي نحن بصدد تطبيق آلية التناص في شعره سنجد منه بعض التقاطعات والتناصات مع هذه القصيدة العظيمة وهذه الدرة الثمينة ، سنأتي إليه بالتفصيل لاحقا.

المطلب الرابع: تجليات التناص في شعر إبراهيم جوب المشعري

إن الحديث عن التناص في ديوان إبراهيم جوب المشعري ، موضوع شيق ، لأن شعر هذا الشاعر مثل جنة وارفة الظلال فيها كلما تشتهيه أنفس الباحثين وتستلذه أعينهم. فمادته الشعرية غزيرة ، وروضة قصائده كثيفة الأشجار وغنيّة الأثمار ، فعندما يسهر الباحث بين ثنايا قصائده متأمّلاً بضمير يقظٍ وبنظرة

((312))) عامر صامب: الأدب السنغالي ، ص115 ،ج1

ثاقبة وفكر حصيف يكاد يسمع صدى الأبيات تقول وهي معتزّة بنفسها مردّدة في نفسها :

أَنا البَحرُ في أَحشائِهِ الدُرُّ كامِنٌ

فَهَل سَأَلوا الغَوّاصَ عَن صَدَفاتي[313]

لكن كي أكون وفيّة لعنوان الورقة العلمية سأغض الطرف عن الدرر الكامنة في هذا البحر الفياض وأكتفي بدرة واحدة وهي الخلفية الثقافية في هذا الديوان المهم ، ولأن المادة العلمية وفيرة سنسرد أمثلة تطبيقية لنكتشف العلاقة بين شاعرنا إبراهيم جوب المشعري وبين موروثه الثقافي الذي تجلّى لنا بأنماط وأشكال مختلفة ، وسنعرضها على شكل المحاور.

المحور الأول: تناص الشاعر مع القرآن الكريم في ديوانه.

لقد ظهر جليا تأثر الشاعر بالقرآن الكريم في مواطن كثيرة ، منها قوله.

فَفَازُوا بِالْمُنَى إِلَّا أُنَاسًا أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ

[314]

فهذا البيت يتناص مع قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ **[إبراهيم ٢٨-٢٩]**

وقوله أيضا:

سَبَقَتْ لَهُ نورُ العِنَايةِ يَوْمَ قَا

لَ لَهُمْ: أَلَستُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا: بَلَى

يتناص مع قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. **[الأعراف ١٧٢-١٧٤]**

وقول الشاعر[315] :

أذْهبْت سَمْعِي والفُؤَادُ ونَاظِرِي

وَالكُلُّ عَنه غَدًا مَسْؤُولَا

هَذَا وَمَا الْفَضْلُ إِلَّا فِي يَدَيْ مَلِكٍ

يُعْطِيهِ مَنْ شَاءَ مِنَّا دُونَ تَعْيِينِ

البيت الأول يتناص مع قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. **[الإسراء ٣٦]** والبيت الثاني يتناص مع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ **[البقرة ١٠٥]** (الآية والسورة) .تشكيل البيت الثاني

المحور الثاني: مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم

نرى الشاعر يمدح شيخه شيخ أحمد الخديم ويستحضر حديثا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول الشاعر في داليته المديحية.

فَفَضْلُكَ شَيْخِي عَلَى كُلِّ نَدْبٍ عَلَى سَائِرِ الطَّعْمِ فَضْلَ الثَّرِيدِ

يشير هنا الشاعر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم -إنَّ فضلَ عائشةَ على النِّساءِ ، كفضلِ الثَّريدِ على سائرِ الطَّعامِ[316] ، ولا بد أن أشير هنا أن حضور القرآن الكريم في شعر أكثر من ورود الحديث النبوي فيه.

---

313 البيت ينتمي إلى الشاعر المصري حافظ إبراهيم ، https://www.aldiwan.net/quote78.html

314 المرجع نفسه ، ص- 197

315 المرجع نفسه ، ص- 363

316: صححه الألباني من حديث أنس بن مالك وأبو موسى الأشعري وعائشة صحيح رقم2117 . .

المحور الثالث: التناص مع الشعر الجاهلي:

تأثر الشاعر إبراهيم جوب المشعري بالأدب الجاهلي أيما تأثر ، لأن الشعر الجاهلي هو الأصل الأمثل والمنبع الأصفى للقصيدة العمودية المعروفة إلى يومنا هذا ، مما جعلنا نلمح حضور التراث الجاهلي قويا جدا في شعره سواء من حيث تقنيات بناء القصيدة أو الصورة الشعرية البيانية أو اللغة والمضمون أحيانا.

إذن تأثر بالشعراء الجاهلية عموما ولا سيما منهم النابغة الذبياني وامرؤ القيس ، وسنعطي أمثلة على ذلك.

1) التناص مع معلقة النابغة الذبياني

أتى الشاعر إبراهيم جوب المشعري أبياتًا تتناص مع معلقة النابغة الذبياني في ديوانه فمثلا يقول النابغة في مطلع القصيدة:

يَا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ والسَّنَدِ

أَقْوَتْ وَطَالَتْ عَلَيْهَا سَالِفُ الأبدِ

فيقول شاعرنا في مطلع قصيدته أيضا:

يَا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ والسَّنَدِ

وَنَحْوَهَا اطْرَحْ فَمَا بِالدَّارِ مِن أَحَدِ[317]

فالشاعر هنا استخدم الشطر الأول من معلقة النابغة الذبياني ، ولعل جانب التناص بينهما واضح فلا يحتاج الإشارة إليه.

فقول الشاعر إبراهيم جوب المشعري[318].

والنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

مَاذَا تُفِيدُكَ أَطْلَالٌ تُسَائِلُهَا

فيتناص مع قول النابغة في معلقته[319]:

والنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

إِلاَّ الأَوَارِيَ لَأْيًا مَا أُبَيِّنُهَا

وتتواصل قصة المشعري مع معلقة النابغة الذبياني في أبيات أخرى في قصيدته الدالية التي يمدح فيها الشيخ أحمد بمب ، فأبدى شاعرنا الإعجاب الشديد بقصيدة النابغة التي تعد من أهم القصائد العشر في المعلقات المذهبات بقافيته الدالية ، فهو يعرضُهذه القصيدة ويقتبس منها حينا ، ويتناص معها في الأفكار والمعاني أحايين كثيرة مادحا شيخه الشيخ أحمد بمب رضي الله عنه.

فالشاعر مثلا يقول[320]:

فَضْلاً عَلى النَّاسِ فِي الأَدْنَى وَفِي البُعَدِ

ذَاكَ البَكِيُّ الذِي حَازَ العُلاَ وَلَهُ

فهذا البيت يمدح فيه شيخه البكي الذي له فضل على الناس سواء القريب أو البعيد منهم لكرمه و سعته ، ولم يختلف في الرؤية والشكل مع النابغة عند مدحه للنعمان بن المنذر في قوله[321]:

فَضْلًا عَلَى النَّاسِ فِي الْأَدْنَى وَفِي الْبُعُدِ

فَتِلْكَ تَبْلُغُنِي النُّعْمَانَ إِنَّ لَهُ

ولم يكتف من هنا بل واصل حتى نهاية القصيدة ، كما في قوله[322]:

---

317 الديوان شيخ إبراهيم جوب المشعري ، ص- 123

318 الديوان المشعري ، ض- 123

319 الديوان النابغة ، ص- 9. النؤي: حفرة حول الخياء لئلا يدخله ماء المطر ، والنون مثلثة

320 الشيخ ابراهيم جوب المشعري ،الديوان ، ص-124

321 الديوان النابغة الذبياني ، ص-12

322 ديوان الشيخ ابراهيم جوب ، ص- 124

وَمَا أُحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ

وَلَا أَرَى فَاضِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ

يتناص بشكل صريح مع قول النابغة[323]:

وَلَا أُحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ

وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ

فبمقارنتا هذه القصيدة مع معلقة النابغة الذبياني نجد تشابها كبيرا بينهما ، وهذا التشابه سواءٌ في انتقاء الألفاظ اللغوية والصور الفنية والتراكيب النحوية. ، وهذا التوسع الثقافي أكسب لأسلوبه قوة وجمالا ، فمعلقة النابغة الأصلية ومعلقة المشعري الفرعية يتداخلان في الألفاظ والمعاني والبحر والروي حتى في الجُمل دونما مرة واحدة ، وقد تأثر النابغة بهذه القصيدة أكثر من تأثره من قصيدة أخرى في المعلقات العشر ، وسنعرض الآن تأثره بمعلقة امرئ القيس.

2) التناص مع معلقة امرئ القيس

لقد تجلى تأثر شاعرنا بشعر امرئ القيس ، الذي يعتبر أمير الشعراء في العصر الجاهلي ، لجزالة ألفاظه ، والسبك الجيد في أشعاره ، وكونه بديع الخيال ، ظريف التشبيه[324]. فتأثر المشعري بمعلقته الذي يعد من أشهر المعلقات في الجاهلية ، وأكملها دربة فنية ، وقد سار على نهجها الشاعر فاستخدم نفس الأساليب ونفس الوزن حيث يقول[325]:

فَقَدْ رُمْتُ مِنْ مَوْلَاكَ أَنْ أَتَطَهَّرَا

وَإِنْ يَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ

عجز البيت يتناص مع معلقة امرئ القيس وذلك قوله[326]:

فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

وَإِنْ يَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ

ونجد بيتا آخر يتناص معه كما في قوله[327]:

وَلَا لهيضم الكشح ريا المخلخل

طَرِبْتُ وَلَمْ أَطْرَبْ لِتذْكَارِ مَنْزِلِ

الشطر الثاني من البيت يتناص مع معلقة امرئ القيس[328]:

علي هضيم الكشح ريا المخلخل

هصرت بفودى رأسها فتمايلت

المحور الرابع: التناص مع الشعر الملوكي، "بردة البوصيري نموذجا"

لاحظنا عند قرائتنا لديوان الشاعر إبراهيم جوب المشعري أنه تأثر مع بردة الإمام البوصيري مرات عديدة ، ولا نطيل سنسرد بعض الأمثلة الآن.

فقول الشاعر إبراهيم جوب المشعري في مدح شيخه:

بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا

مِنَ الْعِنَايَةِ أَرْكَانًا مَتِينَاتِ[329]

يتناص مع الإمام البوصيري في قوله.

بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا

---

323 الديوان النابغة الذبياني ، ص-12

324 الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر ، ص- 7

325 ديوان المشعري ، ص- 176

326 ديوان امرؤ القيس ، دار المعارف ، ص-13

327 ديوان المشعري ، ص 278

328 ديوان امرؤ القيس ، دار المعارف ، ص- 15

329 الديوان ، ص- 97

مِنَ الْعِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مُنْهَدِمِ[330]

كذلك قوله:

بِجَاهِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى خَيْرِ خَلْقِهِ

فَتًى رَاوَدَتْهُ بِالذُّهُوبِ الْأَبَاطِحِ[331]

يَتَنَاص مع قول الإمام البوصيري في بردته.

وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ

عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ[332]

كذلك قوله أيضا:

إِنْ أَنْكَرَ الْأَغْبِيَاءُ فَضْلَهُ حَسَدًا

فَالْعَيْنُ تُنْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ[333]

يتناص مع قول الإمام البوصيري في بردته.

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ

وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ[334]

وقوله

قَرَّتْ بِهِ عَيْنُ مَنْ يَأْوِي فَقُلْتُ لَهُ:

لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاعْتَمِدِ[335]

يتناص مع قول الإمام البوصيري في بردته.

قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ

لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاعْتَصِمِ[336]

وقول الشاعر إبراهيم جوب المشعري.

وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَعْ قَدْرِهِ أَبَدًا

مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ عَالٍ وَتَعْظِيمِ

يتناص مع قول الإمام البوصيري في بردته.

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ

وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمِ

وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ

وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ

حَدٌّ فَيُعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ[337]

وهكذا دواليك يمكن الاستمرار إلى ذكر النماذج التي تؤكد التلاحم والتدخل بين ديوان هذا الشاعر المميز وبين الدواوين الشعرية السابقة، بدءً من العصر الجاهلي والعباسي والأموي كما أسلفنا القول وصولا إلى العصر المملوكي والشعر المريدي، الذي زامن تأسيس الطريقة المريدية، ولأن الشاعر واحد من الأعلام الذين لبّوا نداء الشيخ المؤسس، نجد عناصر تأثير الشيخ الخديم في شعره بمستويات وأنماط مختلفة، فلو لا نخاف الإطالة في هذه الورقة العلمية لأوردنا العديد من النماذج الدالة على ذلك.

---

330 بردة الامام البوصيري: الفصل السابع في اسرائه ومعراجه – صلى الله عليه وسلم، ص- 27

331 المرجع نفسه، ص- 103

332 م.ن: الفصل الثالث في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ص- 09

333 المرجع نفسه، ص-126

334 بردة البوصيري: الفصل السادس في شرف القرآن الكريم ومدحه – 25

335 المرجع نفسه، ص- 127

336 البردة: الفصل السادس في شرف القرآن الكريم ومدحه - 24

337 م.ن. الفصل الثاث في مدح النبي، ص- 12

وخلاصة القول إن وجود التناص في شعر إبراهيم جوب المشعري كما رأينا معا في خضمّ هذه الجولة العلمية يبرهن بشكل واضح أن الشاعر يتمتّع بثقافة واسعة وذكاءٍ متّقدٍ وذاكرة مشتعلة ، فأبدع في دمج نصوص السابقين إلى متنه الشعري بفنّية عالية ، حيث لا يتفطّن إليه إلا باحث متبصّر ، نجد في الديوان تناصّات واستدعاءات كثيرة ، سواءٌ على صعيد الأسماء والأساطير التاريخية والرموز الثقافيّة السابقة ، أو على صعيد استدعاءات الأزمنة والأمكنة احتفاءً بها فنجد الرسوم والبكاء على الأطلال والدّمن كما نجد أمكنة غير جاهليّة مثل "انجاريم" و"باول" و"طوبى" و"صارصارة" وغيرها ، وكل هذه الاستدعاءات لم تُحدث نشازا في صوته الشعري ، لأنه برع في توظيف الموروث الثقافي وفق مبتغاه الإبداعي ، واستدعاء الشاعر للنصوص السابقة في ديوانه ليس ضعفًا منه لكنه كان ينوي الخلود لهذا العمل مثل ما خلدت تلكم الأعمال السابقة ، والدليل على ذلك أننا ما زلنا نقرأ معلقات العشر وقد كانت هذه القصائد قبل مجيء الإسلام كذلك يريد الشاعر الخلود لعمله ليبقى دارجا في لسانه مدى الدهور والعصور ، ولأجل هذا زاوج بين المادتين وربط بينهما ، فحيثما ذكر إبراهيم جوب الشاعر نجد له وشائج قربى مع شعراء كل هذه الأعصر الغابرة المشهودة بالشعر الجيد ، وهذا هو ما يبرر لجوئه إلى التناص الأدبي. والتناصُّ مهمته ربط نص لاحق بنص سابق ، بحيث يستعمل جزءًا من ذلك النص السابق ، و يشير إليه ويلمِّح ، وذلك الجزء يترابط مع بنية النص الجديد ويصبح كالتطعيم له ، سواء ارتبط به من جهة اللفظ أو المعنى أو كليهما معًا. وورود التناص نتيجة طبيعية لكون النص لا يبدأ من فراغ وإنما هو مزيج من القراءات المختلفة للنصوص المختزنة في ذهن مبدعه بالإضافة إلى الإبداع الذاتي له ، فهو يقرأ قبل أن يكتب ، وحين يكتب يحدث منه – عفوًا أو قصدًا– أن "يحيل بالمعهود على المأثور"[338] ، فيفتح نافذة للنص رابطة له بإبداع سابق ، ومرتبطة به بنوع ارتباط لفظي أو معنوي.

إن كثرة عودة الشاعر للترات ، والتزامه بالاسترفاد منه ، دليل واضح على أن شعره العمودي ينساق إلى الخصائص التعبيرية والمعنوية التراثية ، وهذا لا يتنافر مع معطيات العصر الحديث ، بل تمكن من التلاؤم مع مختلف المعطيات الواقعية ، وهذا دليل مقدرة فذة في التمكين للموروث الشعري في أن يكون معبرا عن الحاضر حاملا لصورة وهمومه ، بناءً على ذلك ، قد اتضح من خلال الوقوف على صور الزمن في شعر المشعري السنغالي أن خيط التراث الأدبي خيط بارز في نسيج النص الأدبي الشعري عنده ، وأنه مكوّن أصيل من مكوناته ، فالموروث الأدبي يعد من أكثر المصادر التراثية صلة والتصاقا بنفسية الشاعر ووجدانه ، حيث وفر له غير قليل من الوسائل والأدوات الفنية الغنية بالطاقات الإيجابية.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية ورش

2. أبي الحسن ,حازم القرطاجني .**منهاج البلغاء وسراج الأدباء**.ت: ابن الخوجة محمد الحبيب . (تونس :دار الغرب الإسلامي2007م).

3. الإمام يحيى ابن الخطيب التبريزي: **شرح القصائد العشر**. قدم له ووضح هوامشه وفهارسه: فواز الشعار. مؤسسة المعارف – بيروت — لبنان.

338 منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الخواجة ، ط3 ، بيروت ، 1986م ، ص189.

4. امرؤ القيس: **ديوان امرؤ القيس ت: محمد ابن الفض ابراهيم** (دار المعارف2014 م).

5. الإمام شرف الدين أبي عبد الله محمد البوصيري: **قصيدة بردة المديح المباركة**.

6. أنور المرتجي. **سيميائية النص الأدبي- إفريقيا الشرق**- ط1- 1987.

7. جوليا كريستيفا. **علم النص- ترجمة فريد الزاهي**-دار توبقال —الدار البيضاء -ط2- 1997م.

8. د.كباعمران. **الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي** .(منشورات المنظمة الاسلامية والعلوم والثقافة -ايسيسكو , 1452هـ2011/م).

9. د.كباعمران. **الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي** .(منشورات المنظمة الاسلامية والعلوم والثقافة -ايسيسكو , 1452هـ2011/م).

10. د.كباعمران. **الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي** .(منشورات المنظمة الاسلامية والعلوم والثقافة -ايسيسكو , 1452هـ2011/م).

11. الدكتور عامرصامب. **الأدب السنغالي العربي ، الهدية السنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان** ، جزآن .(الجزائر :الشركة الوطنية للنشر والتوزيع1978 م).

12. السيد علاء الدين رمضان. . **ظاهرة التناص بين الإمام عبد القاهر الجرجاني وجهوده في اثراء علوم العربية** .(أسيوط: جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية 2014).

13. سلمان كاند: **عالم النص**_ دار الكندي_ الأردن_ سنة 2003_ د ط6_ ص246

http://adab1392atu.blogfa.com/post/50

14. الشيخ محمد الأمين جوب الدغاني (ت .1968) **إرواء النديم من عذب حب الخديم**. ت:مجموعة من الباحثين .(الرباط /المغرب :مطبعة المعارف الجديدة 2017م).

15. الشيخ إبراهيم . جوب المشعري **ديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري في مدح الشيخ أحمد بمب المشهور بالشيخ الخديم** .ت: عبد القادر امباكي وأبو مدين شعيب تياو الأزهري .ط .2.(الرباط :دار الأمان 2021م).

16https://www.aldiwan.net/quote78.html.

الشاعر المصري حافظ إبراهيم ،

17.عبد القاهر الجرجاني. **دلائل الاعجاز** ،ت. محمود محمد شاكر أبو فهر .ط .1.(القاهرة :مكتبة الخانجي –مطبعة المدني2008 م).

18. عزيز ماضي شكري: **إشكالية النقد الحديث** ،

مجلة الآداب اللبنانية- العدد 1-2 كانون الثاني وشباط - السنة 46- 1998.

19. محمد الأمين جوب. **تأثير بردة البوصيري على شعر السنغالي العربي دراسة نقدية تحليلية**.ت: دة العالية ماء العينين .(جامعة محمد الخامس -الرباط : رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير2020 م).

20. ميخائيل باختين. **شعرية دوستويفيسكي**- ترجمة جميل ناصف التكريتي- مراجعة حياة شرارة- دار توبقال للنشر- د/ط- د/ت.

21. ميخائيل باختين. **الخطاب الحواري**- ترجمة محمد برادة- دار الفكر للدراسات والنشر- القاهرة- ط1-1987.

22. النابغة الذبياني. **ديوان النابغة الذبياني ماجستير في اللغة العربية وآدابهم** .إعدادعبد الساتر عباس .(بيروت-لبنان :دار الكتب العلمية 1996م).

ركن التراث السنغالي العام

حركة التأليف في فقه الأسرة العملي بالسنغال: المكتبة والمسار

بقلم الباحث: عمر فال[339]

تقديـــــــــم

يحسن أن نفتتح المقال ببيان المراد بفقه الأسرة العملي، وبيان المرحلة الزمنية التي تشملها دراستُنا والمدرسة الفقهية التي تَعنينا.

من المعلوم أن فقه الأسرة؛ فرع من فروع الفقه الإسلامي؛ يتناول أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بالأسرة، من زواج وطلاق وما ينشأ عنهما من التزامات، كالطاعة والمهر والنفقة والوصية والنسب وما يترتب عليه من حقوق وواجبات. وهو بعبارة أوجز: القواعد التي تنظم علاقات الفرد بأسرته. ويطلق عليه أيضا مصطلح "فقه الأحوال الشخصية". ويعتبر هذا الأخير أحد فروع القانون المدني[340].

وعليه فالمقصود بفقه الأسرة العملي في هذه المقالة؛ الجانبُ العملي من أحكام الأسرة في الفقه الإسلامي. والفقه العملي كما يعرّفه أستاذنا الطيب لمنوار هو: مجموعة من الأحكام الفقهية المقننة أو الأحكام الفقهية ذات الصلة بالواقع العملي والتشريعي، أو علم القانون الإسلامي. ويندرج تحته القضاء الإسلامي وما عليه الفتوى والمدونات المستنبطة من الفقه الإسلامي[341].

ندرس هذا الفرع من الفقه والدراسات النقدية التي أنجزت عليه في السنغال، ولم نقصد بالعنوان عمومَ التأليف في الموضوعات ذات الصلة بالأسرة وبقضاياها؛ فالتأليف في عموم فقه الأسرة بالسنغال واسع، توجد مادتُه في مختلف المؤلفات الفقهية السنغالية[342]. ونحن إذْ نخصص الدراسة لهذا النوع من الفقه؛ فلأننا نقدر قيمته ونعتمد أطروحةَ أستاذنا التي مفادها: أن قوة الفقه في رسميته وقانونيته وليست في أصوله فقط[343]؛ فالمذهب الفقهي يزداد قوّة ويرتفع شأنه عندما تعتمده الدولةُ وتُقنن أحكامَه وتُصبح قواعدُه ملزمة.

مراحل فقه الأسرة العملي بالسنغال

وقد عرف فقه الأسرة العملي بالسنغال مرحلتين مختلفتين: وهما مرحلة ما قبل الاستقلال ومرحلة ما بعد الاستقلال.

مرحلة ما قبل الاستقلال

تنطلق هذه المرحلة من سنة 1832 إلى وقت الاستقلال. وتوجد مادتها الفقهية في عرائض أعيان المسلمين وكذلك في السوابق القضائية لمختلف محاكم المسلمين التي أسّست في زمن الاستعمار.

---

339 باحث في سلك الدكتوراه بدار الحديث الحسنية – الرباط.

340 انظر: الأصول العامة لنظام التشريع: دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون الوضعي لمحمد مصطفوي (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي) ط 2، 2017، ص 80.

341 وللتوسع في خصائص هذا المفهوم ومهمة الفقيه العملي، يرجى قراءة مقدمة كتابه: البعد الوظيفي للفقه العملي – الهدف والمنطلق (سطات: مكتبة الرشاد ط 1، 2021)

342 وللوقوف على نماذج من مؤلفات سنغالية في عموم فقه الأسرة يمكن الرجوع إلى دراسة الباحث سرين مود بوسو: إعمال النظر المقاصدي في نوازل الأسرة عند علماء السنغال (كلية أصول الدين بتطوان 2023).

343 مقدمة البعد الوظيفي للفقه العملي.

مرحلة ما بعد الاستقلال

تمتد هذه المرحلة من تاريخ صدور قانون الأسرة الساري في السبعينات إلى وقتنا الراهن. وهي المرحلة الزمنية التي نتكلم في هذه المقالة عن المؤلفات والدراسات التي أنجزت في عهدها.

صدور قانون الأسرة السنغالي وتعقّب المؤلفات

كان من مزايا قانون الأسرة السنغالي المثير للجدل أن تعقَّبه صدور مؤلفات فقهية إسلامية معاصرة؛ جعلت مكتبة فقه الأسرة السنغالية تحفل وتزدان بمؤلفات ودراسات متخصصة في الموضوع لم تعرف مثلها من قبل.

أثارت موادُ القانون المخالفة للفقه الإسلامي والتي لم يرد المشرع السنغالي مراجعتها وتعديلها وفق المنهج الإسلامي السليم بعد أن تلقى ملاحظات أعيان المسلمين وتوصياتهم، حفيظة جماعة من الفقهاء؛ الذين نهضوا للدفاع عن هويتهم الدينية وعن توجههم الفقهي المشروع.

فأفرزت القضيةُ اعتراضات وسالت بسببها أقلامٌ، ونتجت عنها مؤلفاتٌ ودراسات جامعية متخصصة، بعضها صدر قبل أن يدخل القانون حيز التطبيق و بعضها بعد أن دخل. وما زال الباحثون يهتمون بها ويتناولونها في دراساتهم بمناهج وأغراض ولغات متباينة، مما أفضى إلى ظهور مدارس وأقطاب.

مدارس فقه الأسرة السنغالية

لما صدر القانون انشطر الناس في شأنه إلى اتجاهين؛ مدرسة إسلامية تنتقد القانون وتكشف عن عيوبه وتدعو إلى الإصلاح، ومدرسة علمانية أو حقوقية نسوية تنوه بالقانون وتحاول تفنيد الدعوات الإسلامية الإصلاحية.

فكان هذا التدافع بين المدرستين حافزا كبيرا أنشط حركة التأليف في فقه الأسرة السنغالي؛ حيث انكب أقطاب كل مدرسة على التأليف مطالبين بالتشريع الذي يتماشى وهُويتهم الدينية والعرفية، أو يساير مبادئهم الإنسانية وتصوراتهم الحقوقية، مستعملين أساليب ضغط مختلفة على السلطات السنغالية.

ونحن في هذه المقالة، سنقصّر الكلام على أعمال المدرسة الإسلامية التي تُصدر دراساتها غالبا باللغة العربية، بخلاف المدرسة الحقوقية التي يؤلف رجالُها باللغة الفرنسية.

وتتنوع إصدارات هذه المدرسة إلى مؤلفات أعيان المسلمين وإلى دراسات أكاديمية بإنجاز بعض الطلبة والأساتذة الباحثين السنغاليين. وسوف نبسط الكلام عن كل واحد من هذه المؤلفات بقدر من التفاوت حسب أهمية البحث. نبتدئ بمؤلفات أعيان المسلمين في المحور الأول ونتبعها بالبحوث الأكاديمية في المحور الثاني.

❖ المحور الأول: أعمال أعيان المسلمين

تعمدنا استعمال لفظة أعمال، بدلا من الدراسات؛ لأن مضمون هذا المحور يشمل بعض الأعمال التي لا يمكن وصفها بالدراسات ولا بالبحوث. وتشمل هذه الأعمال مقترحات مشاريع قوانين ووثائق وتعليقات وقصائد ومؤلفات على الشكل الآتي:

1. وثيقة المجلس الإسلامي الأعلى 1971[344]

[344] تأسس المجلس الإسلامي الأعلى سنة 1958 بمبادرة من الشيخ الحاج إبراهيم انياس والشيخ التجاني سه المكتوم، لمحاولة توحيد جبهة الشيوخ المسلمين بالسنغال. وقد تأسس نتيجةَ اختلافٍ بين زعماء الدين وبين الحكومة. حيث قامت الجمعيةُ الوطنية بعملية تصويت لاختيار أعضائها دون مشاورة الشيوخ. فأثار ذلك غضبهم وكتبوا رسالة إلى الرئيس الفرنسي آنذاك وهو الجنرال ديغول. وكان يضم المجلس

ترجمت تنسيقيةُ الجمعيات الإسلامية وثيقة المجلس من العربية إلى الفرنسية[345] ، ونشرتها مِن بين ما نشرتْ من الأعمال التحضيرية لمشروع القانون. وتقع الوثيقة في حدود ثماني عشرة صفحة ، تتضمن مقدمة وفصلا موسوما بعنوان"مراجعة نقدية لبعض مواد القانون المخالفة للشريعة" وأربعةَ ملاحق. يعالج كلٌّ ملحق منها موضوعا خاصا يتعلق بالمشروع.

أهمّ الأفكار الواردة فيها

استهل أعضاء المجلس وثيقتَهم بمقدمة متوسطة ، تحتوي بعد البسملة والحمدلة على بيان سموّ الشريعة وشموليتها وحاكميتها. وأتبعوها بفقرة تتكلم عن أسباب اجتماع المجلس؛ حيث ذكروا أنهم يُبدون آراءهم بشأن المشروع لسببين اثنين: الأول أن الحكومة -بواسطة رئيس الوزراء عبد جوف- استشارتْهم في مشروع القانون. وثانيا: أنهم يُبيّنون موقفَهم من القانون بتصحيح ما يرونه فيه مخلا لمبادئ الشرع الحنيف؛ بصفتهم حملة لواء الدين في البلاد ومرجعية أغلب الشعب ، وعلى عاتقهم حفظ بيضة الإسلام؛ ولا يقصدون قطعا إهانة أركان الحكومة.

وقد تكلموا كذلك عن مشروع القانون وبيّنوا موقفهم منه جملةً؛ وهو أنه قانون غير صالح للتطبيق على المسلمين؛ لأنه لا يحترم المبادئ المقدسة للإسلام. وأن المشروع لم يكن وفيا بالآراء السديدة التي وردت في تقرير وزير العدل. وكان الوزير قد عرض في تقريره عددا من التوصيات للهيئة المسئولة عن صياغة القانون منها: ضرورة الرجوع إلى روح القانون العرفي وضرورة احترام القيم التقليدية وضرورة التقيد بما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ولذلك يخلص أعضاء المجلس إلى أن المشروع يناقض تقريبًا كل هذه التوصيات الحميدة ، وأنهم يرفضون رفضا قاطعا أيَّ قرار لا يحترم المبادئ السامية لدينهم وإن كان رسميا.

وقد جاء بعد المقدمة فصل عنونوه بـ: **مراجعة نقدية لبعض مواد القانون المخالفة للشريعة الإسلامية.** وتتوزع تلك المواد على مختلف كتب القانون السبعة وفصولها؛ من الخِطبة وعقد الزواج والطلاق والنسب والميراث... اختار معالي الشيوخ في هذا الفصل بعض من المواد التي يرونها مخالفة وبسطوا فيها الكلام ، وقارنوها بأحكام الفقه الإسلامي وبيّنوا أوجه الاختلاف بينهما. واستندوا في عملية المقارنة إلى مصادر إسلامية؛ من القرآن والسنة ، وتفسير القرآن العظيم لفخر الدين الرازي ، وبداية المجتهد لابن رشد ، وإحكام الأحكام شرح تحفة الأحكام لمحمد بن يوسف ، وكذلك مختصر خليل بن إسحاق المالكي.

ثم أتى عقب هذه المقارنة الملحقُ الأول ، وفيه جرّد الشيوخ كل المواد المخالفة للشريعة من مشروع القانون ، وقد بلغ عددها خمسا وسبعين مادة[346].

الإسلامي الأعلى منذ أن تأسس معظمَ الشيوخ وخلفاء البيوتات الدينية في البلاد. وكان يديره -في السبعينات- مكتبٌ يتكون من الشيخ سعيد نور تال (الرئيس) . والشيخ عبد العزيز سه الخليفة العام للزاوية المالكية في زمنه (نائب الرئيس) . والشيخ أحمد امباكي(الأمين العام) والشيخ محمد الفاضل امباكي الخليفة المريدية في زمنه. والشيخ محمد البشير امباكي. والشيخ إبراهيم انياس. والشيخ محمد حواء بلا. (انظر وحدة المسلمين في فكر الشيخ إبراهيم انياس لإبراهيم أحمد اتيام. وكذلك كتاب التصوف والطرق الصوفية في السنغال للدكتور خديم امباكي).

[345]() وقد اعتمدت في هذه الدراسة على النسخة الفرنسية؛ لم أقف بعد على النصّ العربي الأصلي.

[346] أربع وعشرون منها تتعلق بالخطبة والزواج والطلاق ، أي بالكتاب الثاني من القانون. وخمس عشرة منها تتعلق بالنسب والتبني بالكتاب الثالث. وتِسعُ مواد منها تتعلق بالقرابة ، بالكتاب الرابع. وخمس مواد تتعلق بأحكام القاصر والسلطة الأبوية والوصية بالكتاب الخامس. ومادتان تتعلقان

وعرضوا في الملحق الثالث والرابع أسماءَ أعضاء اللجنة التوجيهية للمجلس والمكتب التنفيذي له ومحاضر الاجتماع.

اتفق أعضاء المجلس خلال هذا الاجتماع الذي عقد في منزل رئيسهم الشيخ سعيد نور تال بمدينة دكار، بتاريخ 3 يناير 1971 على عدة نقاط أهمّها:

أ- الإعلام بأن أحكام الله سبحانه وتعالى ثابتة لا تبديل لها بقوانين بشرية.

ب- رفض اللجنة المواد المخالفة رفضا تاما طِبقا لتعاليم القرآن والسنة.

ت- أنهم بصفتهم مستعربين، وجدوا صعوبات في مراجعة هذا القانون العريض المكتوب بالفرنسية. ومن ثم التمسوا من الحكومة، إذا أرادت مرة أخرى أن تستشيرهم بشأن نصوصٍ من هذا القبيل، أن تُترجمها أوّلاً إلى العربية.

ث- وفي الأخير، أوصى الشيوخ الحكومةَ أن تقوم بتأسيس مؤسسة تتكون من زعماء الدين والعُرف، تُعين البرلمانيين للنظر في المشاريع القانونية.

وكان في الملحق الرابع والأخير، قائمة تتضمن مسائل أسرية في الفقه الإسلامي غير واردة في القانون؛ سكت عنها المشرّع ولم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد. وأوصوا الحكومة أن تأخذ هذه النقاط بعين الاعتبار في حالة مراجعة العمل. وهي: الحدُّ المحتمل للطلاق في الإسلام؛ أي عدد الطلاق الوارد في قوله تعالى: "الطَّلاقُ مَرَّتَانِ"[347]). وأنواع الطلاق (السنّي والبدعي والرجعي والبائن...). وحكم الظهار و الإيلاء وأحكام الأخوة بالرضاع، ومدة إقامة الزوج عند زوجته الثانية أو الثالثة أو الرابعة المتزوج بها حديثا. وحكم الزواج بنيّة الطلاق وعدة المرأة التي لم يدخل بها زوجها. وبيان أسهم الورثة بيانا شافيا. والحالات التي يجوز فيها للأب أو الوصي أن يجبر ابنته على الزواج[348].

هذا مجمل الأفكار الواردة في الوثيقة. و قد تناولها الباحثون بالدراسة والتحليل في بحثوهم الأكاديمية والجامعية.

2. كتاب كلمة الله هي العليا للشيخ أحمد امبَاكِي غَيْنْدِي فَاطَمَ

صدر بعد وثيقة المجلس الإسلامي الأعلى كتابُ: كلمة الله هي العليا، ينحو منحاها ويؤيّد رأيها وينتصر لها. دوّنه الشيخُ الفاضل أحمد امباكي غيندي فاطم (1913 م – 1978 م) الأمين العام السابق للمجلس الإسلامي الأعلى.

ويبدو أن الشيخ ألّف كتابه هذا بعد أن تمادى المشرع السنغالي في موقفه، ولم يعمل بتوصيات المجلس الإسلامي[349]. مثله مثل قصيدة الشيخ عبد العزيز الدباغ سِهْ وكذلك تصريحات المشايخ الفردية التي أوردتها اللجنة الإسلامية في مقدمة مشروعها القانوني الإسلامي. لما استدعى رئيس الوزراء المجلسَ

بأنظمة الملكية الزوجية. بالكتاب السادس. وأما المواد الباقية فتنتمي إلى الكتاب السابع الذي يتناول الميراث...

[347]() البقرة آية 229

[348] Collectif des associations islamiques, Avis des guides religieux du senegal sur le code de la famille de senghor en 1971-2, (CIRCOF 2002).

[349] يقول الناسخ في مقدمة الطبعة الأولى: "فهذا نصّ الكلمة التي أبرزها بطل الإسلام الشيخ أحمد البكي... لما عرض عليه العلماء السنغاليون قانون العائلة".

الإسلامي واستشارهم في القانون، فأدلى المجلس بوثيقته مطالبا تعديل بعض المواد، لم يأخذ المشرع بوصايا المجلس، بل صدر القانون دون أن يتلقى تعديلا في هذا الجانب، أي صدر بموادها المخالفة للفقه الإسلامي. وهذا التصرف من السلطات أثار غيظة زعماء الدين فألّف الشيخ أحمد غيندي فاطم كتابه هذا "كلمة الله هي العليا"، وكتب الشيخ عبد العزيز سهٌ الدباغ قصيدته، وألف الشيخ محمد المنصور سهٌ أيضا في الموضوع كتابا، وسوف يأتي الكلام عنهما.

نشرت تنسيقيةُ الجمعيات الإسلامية كتاب "كلمة الله هي العليا". ثم وضعَ له شرح الدكتورُ نجوغو بن مبكي صمب ، وأخرجه مذيلا بترجمة فرنسية، سنة 2018.

ويتضح من مقدمة المؤلف أن أصل الكتاب عبارة عن ورقة مقدمة في جلسة أو حوار بين الشيوخ حول مشروع قانون الأسرة. قدّمها الشيخ أحمد بعد أن قرأ ما كتبه المجلس عن المشروع " وثيقة المجلس الإسلامي". ولذلك يوجه الخطاب في مقدمة الكتاب إلى أعيان المسلمين يقول: " حضرات الإخوان الكرام فقد طالعت ما كتبتم في قضية قانون العائلة الذي وضعته الحكومة السنغالية ليتخذه الشعب قانونا يسير عليه أحواله كافة دينية ودنيوية، فقد أحسنتم وأديتم ما أوجب الله عليكم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..."[350].

والكتاب بحجم صغير، يندد فيه الشيخ بالقانون ويصرّح بعيوبه، ويرى بأنه لا يصلح أن يكون قانونا ينظم شؤون أسر مسلمة، لأسباب ثلاثة وهي: تناقض أحكام القانون مع الآيات القرآنية وتنافيها مع الأحاديث المتواترة وخَرقه الإجماع القطعي[351]

وانتهى المؤلف إلى ما انتهى إليه المجلس من ضرورة تعديل القانون وإصلاحه وفق المنهج الشرعي القويم؛ لأن الشريعة تعلو ولا يعلى عليها، وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولما كتب الشيخ أحمد ورقته هذه، أطلع المشايخ عليها، فاستحسنوها ووافقوا على مضمونها، وقام كثير منهم بتقريظها شعرا ونثرا. وقد أورد الدكتور نجوغو بن مبكي صمب هذه التقاريظ في مقدمة كتابه " كلمة الله هي العليا للشيخ أحمد مبكي غيندي فاطم انتصار للحق ونصيحة للخلق"[352].

3. قصيدة مام عبد العزيز سهٌ الدباغ الخليفة العام للزاوية المالكية التيجانية في زمنه

كتب الشيخ عبد العزيز سهٌ الدباغ قصيدة طويلة ينتقد فيها القانون هو أيضا، ويبلغ عدد أبيات القصيدة 67 بيتا. مطلعها:

كِتَابٌ **رَبُّنَا** هُوَ الْكِتَابُ = تَمَسَّكُوا **بِهِ** هُوَ الصَّوَابُ.

والقصيدة توجد في الجزء الثاني من ديوان الشيخ "مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني"، وقد أتى بها كاملةً الشيخُ محمد المنصور سه أيضا في كتابه "المحجة البيضاء في إنقاذ الأمة الغراء".

---

[350] نجوغو بن مبكي صمب، كلمة الله هي العليا للشيخ أحمد مبكي غيندي فاطم انتصار للحق ونصيحة للخلق (طوبى، السنغال 2018) ص 52

[351] () المصدر السابق ص 53.

[352] ومن المقرظين: الشيخ عبد الأحد امباكي، الشيخ صالح امباكي، الشيخ شعيب امباكي، الشيخ محمد المرتضى امباكي، الشيخ حبيب امباكي الإمام، الشيخ سيدي المختار امباكي، الشيخ محمود امباكي، الشيخ عبد العزيز سه الدباغ، الشيخ محمد بن أبي مدين الشنقيطي، الحاج محمد مصطفى آن التلري، السيد مصطفى جوب كَيل، السيد بشير سك بن محمد بن وار الطيبيّ.

من مواضيع القصيدة: بيان دستورية القرآن وسموّه وكونه فوق كل الدساتير ، وأنه الواجب اتباعه ولا يُخشى في ذلك لومة لائم. من الأبيات التي تشير إلى هذا المعنى:

كِتَاب **رَبُّنَا** هُوَ الْكِتَابُ = تَمَسَكُوا **بِهِ** هُوَ الصَوَابُ

كيف يكونُ بعده الدستورُ = يا أيها الإخوان لا تجُورُوا

دستورنا نحن كتاب الله = من جاءنا بغيره فلاهِ

وقد تعرض الشيخ في قصيدته أيضا لنقد الفقهاء الذين كانوا يؤيدون مشروع القانون بالتأويل وليّ أعناق النصوص الدينية ، يقول الشيخ:

بالرأي لا تُفَسِّرُوا الكِتابا = إن خِفتُم يوم الجزا العِقابا

ولا تُحرِّفُوا كتاب الله = لأجلِ دُنياكم عبادَ الله

من منكم حُرمةَ الإسلامِ هَتَك = للجاهِ أو أغْراضِه فقد هَلك.

والقصيدة مفعمة بإشارات إلى الآيات القرآنية التي تدعو إلى ضرورة تحكيم القرآن والتي تحذر من مخالفتها تحذيرا شديدا.

4. مشروع قانون الأحوال الشخصية الإسلامي لتنسيقية الجمعيات الإسلامية 2002

أُسست اللجنة الإسلامية لإصلاح قانون الأسرة السنغالي سنة 1996 ، وهي منبثقة من تنسيقية الجمعيات الإسلامية[353]. وكانت اللجنة وقتَ إعداد مشروع القانون الإسلامي ، تشمل أعضاءً من الطوائف الدينية في البلد وثمانيَ عشرة جمعية إسلامية و أعضاءً مستقلين.

كان هدف اللجنة الأساس هو الوصول إلى إصلاح قانون الأسرة السنغالي وفقا للشريعة الإسلامية وأعراف البلد؛ ليتمكن الشعب السنغالي المسلم من الرجوع مباشرة إلى شريعتهم في مسائل الزواج والطلاق والميراث وقضايا الأسرة. ويرى أعضاء اللجنة أنه يجب أن يخضع كلٌ من المسلمين والمسيحين بالسنغال لقانون خاص يناسب مفاهيمهم الدينية والفلسفية.[354]

ولتحقيق هذا الغرض ، عمِل أعضاءُ اللجنة خلال أربع سنوات ، وأعدّوا مشروعَ قانون أسري جديد. أصلحوا فيه القانون المدني الساري ، واستندوا في عملهم إلى وثيقة المجلس الإسلامي الأعلى. فلما انتهى العمل سنة 2000 ، تقدموا به إلى الخلفاء وزعماء الدين فوافقوا عليه ووقّعوا على طلبهم ، وكتب بعضهم تقريظا على جهودهم. ثم تقدموا بالعمل إلى السلطات السياسية أهل الحل والعقد فلم يتلق المشروع منهم قبولا[355].

كتبوا إلى الرئيس عبد الله وَادْ يطلبون منه لقاءً خاصا من أجل التطلع إلى كيفية تنفيذ مشروع القانون على المسلمين خاصة ، وفق للمادة الثامنة من

---

[353] () نجوغو امباكي صمب ، جماعة عباد الرحمن التاريخ والمنهاج (الرباط: مركز المقاصد للدراسات والبحوث) 2018 ، ص 155

[354] Collectif des associations islamiques, Proposition de loi instituant le code du statut personnel au Sénégal, exposé des motif (CIRCOF)2002

[355] () نجوغو امباكي صمب ، جماعة عباد الرحمن التاريخ والمنهاج (الرباط: مركز المقاصد للدراسات والبحوث) 2018 ، ص 155. ومشروع القانون الذي تقدم به البرلماني الإمام امباي انياغ إلى مجلس النواب.

الدستور السنغالي التي تضمن للمواطنين حرية دينية. وعلى الرغم من توقيع زعماء الدين وموافقتهم على المشروع ، لم يسمح لهم الرئيس بهذا اللقاء ولم يردّ على طلبهم قط[356]. وقد وقع على الرسالة الموجهة إلى رئيس الجمهورية لطلب المصادقة على المشروع عدد كبير من الشخصيات الدينية في البلد[357].

وفي سنة 2002 قامت اللجنة الإسلامية لإصلاح قانون الأسرة السنغالي بتقديم المشروع إلى مجلس النواب ، بمبادرة من النائب البرلماني ومنسق اللجنة الإمام امباي انياغ Imam MBaye Niang. ولكن لم تنجح هذه الخطة أيضا؛ فأقبر المشروع في مهده على غرار وثيقة المجلس الإسلامي الأعلى؛ فلم تتمكن اللجنة إلى الوقت الراهن من تحقيق هدفها.

مضمون مشروع القانون

يحتوى المشروع على مقدمة طويلة.[358] بيّنت فيها اللجنةُ الأسباب المدعاة إلى القيام بهذه المبادرة ، وشرعية وضع قانون أسري جديد خاص بالمسلمين. كما فصّلوا الكلام في المقدمة عن الانتقادات التي وجهها المجلس الإسلامي الأعلى في السبعينات إلى القانون الساري وقت صدوره. وقد أتت بعد المقدمة الأحكام الفقهية المقننة التي تتوزع إلى أحكام عامة وسبعة كتب وأحكام ختامية. ويتكون كل كتاب بمجموعة من الأبواب[359].

وهذا الكتاب (مشروع القانون الإسلامي) إذا قُورن بقانون الأسرة الساري نجده وجيزا جدا. فهو يتكون فقط من 35 صفحة و277 مادة ، في مقابل 109 صفحة و854 مادة التي يتكون منها قانون الأسرة الساري.

وسبب التفاوت في الحجم بين القانونين يرجع إلى بعض الأحكام والأبواب التي تناولها القانون الساري بالتفصيل ولم يتناولها مشروع قانون المسلمين لأنها مسائل غير شرعية ، مثل مسائل التبني التي يتكرر ذكرها في عدة مواد من القانون الساري. كما يرجع السبب إلى وجود ما يسمى بـ "نظام الخيار أو التعددية القانونية" في بعض أبواب القانون الساري مثل باب الزواج والميراث. الشيء الذي يقتضي تعدد المواد والمسائل المتعلقة بهذه الأبواب. ولا يوجد هذا النظام في مشروع القانون الإسلامي لأنه قانون يخصّ المسلمين وحدهم.

مصادر مشروع القانون الإسلامي

يمكن أن يستخرج مصادر مشروع القانون الإسلامي من مواده الثانية والثالثة والرابعة الواردة في الأحكام العامة. وهذه المصادر أربعة وهي : القرآن والسنة (المادة الثانية) والعرف السنغالي الذي لا يتنافى مع تعاليم الشرع (المادة الثالثة) ثمّ المذهب المالكي (المادة الرابعة).

---

[356] Proposition de loi instituant le code du statut personnel au Sénégal, exposé des motifs

[357] تنسيقية الجمعيات الإسلامية ، مشروع مدوّنة الأحوال الشّخصيّة في السّنغال (المعهد الإسلامي بدكار 2002).

[358] هذا في النسخة العربية التي هي عبارة عن مسودة ، بخلاف النسخة الفرنسية التي تمت معالجتها وتهيئتها بشكل يصلح للدخول حيز التنفيذ.

[359] والكتب كالتالي: الكتاب الأول: الزواج والواجبات المترتبة عليه ، الكتاب الثاني: الفرقة بين الزوجين. الكتاب الثالث: التبني والنسب وحضانة الأولاد. الكتاب الرابع: الوصاية. الكتاب الخامس: الوصية. الكتاب السادس: الإرث. الكتاب السابع: الوقف.

يقول القانون في المادة الثانية: "...فيتم تطبيق بنود المدونة الحالية وذلك كلما كانت القاعدة القانونية التي سيتم تطبيقها مستندة إلى مصدر من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة". ويقول في المادة الثالثة: "سيتم أخذ العادة بعين الاعتبار ما لم تكن مخالفة لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وكان من شأنها تشجيع التقدم الاجتماعي". ويقول في المادة الرابعة وهو يتكلم عن أقصى مدة الحمل: "يتم تحديد أقصى مدة الحمل[360] بالرجوع إلى المذهب المالكي"[361].

خاصية هذا القانون أنه فقهي إسلامي محض مضمونا وشكلا ونسقا؛ أصلحت فيه اللجنة جميع المسائل التي أشار إليها المجلس بأنها مخالفة للفقه الإسلامي، مثل: تحديد أقصى مدة الحمل، واستلحاق الولد الطبيعي ومسائل التبني وغيرها. وأدرجت فيه أيضا المسائلَ الفقهية التي سكت عنها المشرع السنغالي كأنواع الطلاق وحكم الظهار وحكم الإيلاء وأحكام الأخوة بالرضاع وغيرها.

وقد أشارت اللجنة في المادة الأولى أن القانون ينطبق على المسلمين السنغاليين فقط، أما غير المسلمين فسيظلون خاضعين لأحكام قانون الأسرة 1972.

5. المحجّة البيضاء في إنقاذ الأمة الغراء للشيخ محمد المنصور سهْ

هذا الكتاب عبارة عن أوراق صغيرة في حدود 30 صفحة بخط غليظ. ألفها الشيخ محمد المنصور الخليفة العام للزاوية المالكية التيجانية في زمنه. وقد نشرت الطبعة الأولى منه سنة 2003.

وكان تأليفه بمناسبة زيارة لجنة إصلاح قانون الأسرة السنغالي؛ التي زارت الشيخ بصفته الخليفة العام، وعرض عليه أعضاؤها مشروعَ قانون الأحوال الشخصية الإسلامي؛ فوافق عليه وأيّده بنصره وأشاد على جهود القائمين بالعمل.

وقد انطلق المؤلف في الكتاب بذكر تاريخ وضع القانون الساري وملابساته، ليصل إلى أنه لا يلائمنا نحن المسلمين لأنه "ما أخذ بعين الاعتبار اختيارَ المجتمع ومُثُله وقيمه الأخلاقية والدينية"[362]. ثمّ ذكر جهود المجلس الإسلامي الإصلاحي وأثنى عليها بنص نثري مشفوع بقصيدة، أشاد فيهما عمل المجلس وذكر أعضاءه بالاسم وبجميل الوسم وأثرهم البالغ في مشروع القانون 1972.

وأورد المؤلف عقب ذلك، قصيدةَ الحاج عبد العزيز سِه الدباغ كاملة وشاهدة على جهود المجلس الإسلامي الأعلى. وربط مشروع تنسيقية الجمعيات الإسلامية بمشروع المجلس الإسلامي القديم. والخيط الناظم بينهما حسب المؤلف هو أن هذا المشروع الجديد يحاول -لا أقل ولا أكثر- أن يُدخل المشروع القديم حيز التنفيذ. يقول: " يُعْتَبَرُ ظُهُورَ مَشْرُوعِ مُدَوَّنَةِ الْأَحْوَالِ الشخصية اللاحق هَذَا امتدادا للقانون الإسلامي السَّالِفِ"[363] ولذلك أوصى المؤلف الحكومة بضرورة إعادة الاعتبار لمشروع قانون الأسرة للمسلمين. ثم ختم كتابه بقصيدة طويلة يقرظ فيها مشروع تنسيقية الجمعيات الإسلامية.

---

[360] وقد ورد تفويض أقصى مدة الحمل إلى المذهب المالكي في النسخة الفرنسية دون العربية

[361] collectif des associations du Sénégal, Code du statut personnel Réédition 2010) p: 6 (CIRCOF,

[362] الشيخ محمد المنصور سه، المحجة البيضاء في إنقاذ الأمة الغراء، الطبعة الأولى 2003، ص 3

[363] المرجع السابق ص 20، 21

❖ **المحور الثاني: الدراسات الأكاديمية والبحوث الجامعية**

كما أسلفنا ، تناول القانون وما يرتبط به من أعمال تحضيرية عدد من الباحثين الأكاديميين في مقالات وبحوث التخرج وأطروحات أكاديمية. وسوف نسرد هذه الدراسات الواحدة تلو الأخرى مع الاختصار.

1. حقوق وواجبات المرأة ، للدكتور خديم امباكي

أنجز الدكتور خديم امباكي دراسة نقدية على قانون الأسرة السنغالي بعنوان: "حقوق وواجبات المرأة في قانون الأسرة ، نظرة إسلامية ". نشرتها مجلة جمعية البحوث والدراسات في الإسلام والتنمية التي أنشئت عام 1984.

وقد أورد الكاتب نتيجةَ بحثه هذا في كتابه "من وحي السبعين". وملخصها أن قانون الأسرة السنغالي إذا نُظر إليه من منظور الفقه الإسلامي نجده ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عبارة عن أحكام إجرائية لا علاقة لها بالفقه الإسلامي. والقسم الثاني: عبارة عن مسائل وافق فيها القانون الفقه الإسلامي. وأما الثالث: فإنه يعارض الفقه الإسلامي معارضة تامّة. وقد ذكر الباحث في هذا القسم الأخير ما يربو على مائة أمثلة[364].

2. Mariage et divorce entre le code de la famille du Sénégal et le droit musulman: problématique d'application du droit de la famille.

هذه الدراسة (الزواج والطلاق بين قانون الأسرة السنغالي والفقه لإسلامي: صعوبة تطبيق قانون الأسرة) عبارة عن أطروحة الدكتوراه ، أنجزها الباحث محمد بمب جوب في كلية اللغة العربية بجامعة الشيخ أنت جوب خلال الموسم الدراسي: 2007 – 2008.

وقد جاء البحث على ثلاثة أجزاء ، يتكون كل جزء من مجموعة من الفصول. تناول الباحث في الجزء الأول تاريخ التشريع الأسري بالسنغال منذ الاستقلال ، ثمّ أجرى في الجزء الثاني والثالث على التوالي دراسة مقارنة للنظامين التشريعين في الزواج وفي الطلاق.

ودراسة الدكتور محمد بمب جوب هذه ، من أشمل الدراسات في الموضوع. استطاع الباحث فيها أن يحيط بالموضوع من جوانبه التاريخية والثقافية والاجتماعية والفقهية القانونية. ولا نقصد بالجانب التاريخي التاريخَ القديم المتعلق بالوضع الخاص للقضاء الإسلامي قبل الاستقلال فحسب ، والذي نجده يتكرر في معظم البحوث. ولكن نقصد تاريخ تدوين وصياغة قانون الأسرة الذي استمر لسنوات ، والهيئات التي شاركت في الأعمال التحضيرية بأعضائها وصفاتهم التي شاركوا بها ، والمناقشات التي كانت تدور بين هذه الهيئات ، والمواضع التي اتفق فيها رأيُهم ، والأسلوب المتبع للحسم في مواضع الاختلاف. وهذا كله علاوة على الجانب الفقهي القانوني ، الذي خصصه الباحث لمسائل الزواج والطلاق في الفقه والقانون.

3. دراسات الدكتور نجوغو بن مبكي صمب

وأما الدكتور نجوغو بن مبكي صمب فله جهود مشكورة في الموضوع. تُعد دراساته من أهمّ المصادر التي يرجع إليها الباحثون في المجال ويستفيدون منها.

تناول الدكتور القضية في بحث الماجستير ثمّ الدكتوراه. وينتهج في دراساته منهج المجلس الإسلامي الأعلى في وثيقته؛ من عرض مواد القانون المخالفة

[364] () خديم سعيد امباكي ، من وحي السبعين. (السنغال: داكار) 1439 / 2018. ص 134

ومقارنتها بالشريعة الإسلامية وبيان أوجه الاختلاف بين القانونين ، ثمّ التنبيه على ضرورة إصلاح ما وقع فيها المشرع من أخطاء جسيمة.

كان عنوان بحثه في الماجستير: الأحكام الفقهية المتعلقة بالنكاح والطلاق التي خالف فيها قانون الأحوال الشخصية السنغالي الفقه الإسلامي ، ناقشه في جامعة المدينة العالمية بماليزيا 2009. و أما في سلك الدكتوراه فقد تناول الدكتور الموضوع الآتي :الأحكام الفقهية المتعلقة بحقوق الأولاد التي خالف فيها قانون الأحوال الشخصية السنغالي الفقه الإسلامي ، دراسة مقارنة ، ناقشها في الجامعة نفسها سنة 2018.

ثم جمع البحثين في كتاب مطوَّل ، يقع في حدود 370 صفحة ، بعنوان: **قانون الأحوال الشخصية السنغالي في الميزان**. وضعه على بابين. الباب الأول: الأحكام الفقهية التي خالف فيها قانون الأحوال الشخصية السنغالي الفقه الإسلامي في الزواج والطلاق. والباب الثاني: الأحكام الفقهية المتعلقة بحقوق الأولاد التي خالف فيها قانون الأحوال الشخصية السنغالي الفقه الإسلامي

يقارن الباحث في هذا الكتاب بين الفقه الإسلامي والقانون السنغالي في الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق وحقوق الأولاد. وكان من منهج الباحث في مقارنته أن يرجع إلى مختلف مذاهب أهل السنة؛ المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والظاهري.

وللدكتور نجوغو بن مبكي صمب أيضا كتاب آخر في الموضوع وهو **شرح كلمة الله هي العليا**. وقد سبق الكلام عن كتاب كلمة الله ، شرحه الدكتور بعنوان: كلمة الله هي العليا للشيخ أحمد مبكي غيندي فاطم انتصار للحق ونصيحة للخلق. صدر الكتاب بنسخة عربية وفرنسية سنة 2018.

وقد قام الدكتور بعملية التحقيق والشرح معا ، حيث ضبط الكتاب وأخرج النص سليما من التصحيف والتحريف. افتتح الكتاب بمدخل عن كمال الشريعة ثم أورد تقاريظ العلماء عن الكتاب وترجم للمؤلف الشيخ أحمد غيندي فاطم في مستهل الكتاب ، وتكلم عن أهمية النصيحة ومراتبها في الإسلام ، وانتقل بعدها إلى دراسة نص الكتاب والتعليق عليه.

4. **الأعمال التحضيرية لقانون الأسرة السنغالي: وثيقة المجلس الإسلامي الأعلى نموذجا للباحث عمر فال.** هذه الدراسة عبارة عن بحث لنيل شهادة التأهيل (ماستر) في الدراسات الإسلامية بمؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط ، التابعة لجامعة القرويين ، سنة 2019- 2020.

يحتوي البحث على فصلين؛ وقد خصص الباحث الفصل الأول بكامله للحديث عن تاريخ القضاء الإسلامي في السنغال ، مركزا على مؤسسات القضاء في دولة الأئمة وعلى المبادئ الإنسانية التي قامت عليها هذه الدولة. وخصص مبحثا في هذا الفصل للحديث عن علماء السنغال الذين اشتهروا في الذاكرة الجماعية باعتلائهم منصب القضاء ، وخاصة القاضي مجخت كَلَ ومجالسه القضائية ونوازله الفقهية. ثم تطرق في المبحث الثالث إلى الحديث عن رفض أعيان مدينة سينت لوي الخضوع للقانون المدني الفرنسي الصادر سنة 1830 في المستعمرات ، وعن عرائضهم المتعددة التي كلّلت بإنشاء أول محكمة للمسلمين في غرب إفريقيا سنة 1857.

كما خصص الفصل الثاني للكلام عن قانون الأسرة السنغالي والاعتراضات التي أفرزها؛ من خلال الوقوف على سياق تاريخ تدوينه ، وما يقتضي ذلك من الكلام عن أهمّ الهيئات الإسلامية المشاركة في الأعمال التحضيرية. ودراسة وثيقة المجلس الإسلامي الأعلى وبعض مواد القانون في ضوء الفقه المالكي. ثم تحدّث الباحث في مبحثٍ خاص عن صعوبات تطبيق قانون الأسرة من جهة التقبل ومن جهة التنزيل. وذيّل بحثه بخاتمة بيّنَ فيها أهمّ النتائج التي توصل إليها في هذه الدراسة.

والباحث عمر فال المنتسب إلى مؤسسة دار الحديث الحسنية ، هو بصدد إنجاز أطروحة الدكتوراه في ذات الموضوع ، بعنوان: **التنازع الاختصاصي القضائي بين الفقه المالكي والقانون المدني من خلال قانون الأسرة السنغالي.**

5. **موقف زعماء الدين السنغاليين من قانون الأحوال الشخصية السنغالي 1972 ، كلمة الله هي العليا ووثيقة المجلس الإسلامي نموذجين دراسة فقهية قانونية ، للباحث بَارَ بِيِيّ.** وهو بحث لنيل شهادة الإجازة ، كلية الشريعة آيت ملول (بالمغرب) ، 2020 – 2021.

قسّم الباحث بار بيي عمله إلى ثلاثة كتب: المقدمات ثم القضاء الشرعي ثم مشروع القانون 61 - 72.

وهذا البحث يشترك مع نظيره المذكور أعلاه في بعض الجوانب. وتظهر خصوصية هذا الأخير في مقدماته التمهيدية التي عرّف فيها الباحث بعض مصطلحات الموضوع ، وكذلك في تركيزه على تحليل مضامين كتاب كلمة الله هي العليا المذكور سابقا ، وفي تناول الباحث بالدراسة والتحليل موادَ قانونية فقهية مختلفة كالخطبة والتعدد وأحوال الولد الطبيعي والتبني.

6. **المرأة السنغالية بين قانون الأسرة وأحكام الشّريعة** للباحثة أمي لي ، بحث لنيل شهادة ماستر ، بالمعهد العالي للحضارة التابعة لجامعة الزيتونة ، 2021 – 2022.

وضعت الباحثة بحثها على فصلين: المرأة المسلمة في القوانين الرسمية بين زمني الاستعمار والاستقلال ، ثمّ المرأة السنغالية وثنائية القانون والشريعة. وقد ركزت الباحثة على الازدواجية المرجعية في الواقع السنغالي المتمثلة في القانون العلماني والشريعة الإسلامية ، وعلى الاضطرابات التي أوجبتها هذه الازدواجية في حياة المرأة السنغالية.

وميزة هذا العمل أن الباحثة استطاعت أن ترصد مطالب الجمعيات النسوية السنغالية وتاريخها والتطورات الاستراتيجية الواقعية التي عرفتها هذه الجمعيات. وقد ناقشت هذه المطالب في ضوء الشريعة الإسلامية والعرف السنغالي. فالبحث من المراجع المهمة في هذا الباب.

والباحثة أمي لي في طور تحضير أطروحة الدكتوراه في الموضوع بعنوان: **الحركة النسوية في غرب إفريقيا بين الوافد الغربي والموروث الثقافي** ، بالمعهد العالي للحضارة التابعة لجامعة الزيتونة.

7. **ترجمة قانون الأسرة السنغالي للباحث سليمان سو** (السنة الأولى في ماستر بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية بباريس. 2020 – 2021.

قام الباحث سليمان سو بترجمة الباب الأول من الكتاب السابع للقانون المعنون بـ "الميراث من دون الوصية" ، من الفرنسية إلى العربية. ويبدأ هذا الباب من المادة 396 إلى المادة 514. وهو عبارة عن أحكام عامة حول الميراث. يأتي بعده الباب الثاني المعنون بـ : الميراث بدون الوصية في القانون العام.

وأما الباب الثالث والأخير في هذا الكتاب فيتناول الميراث بالقانون الإسلامي.

يتفرد الباحث سليمان سو بهذا العمل في حدود علمنا؛ وهو أول من نعرف أنه ترجم جزءا من قانون الأسرة السنغالي إلى العربية.

الخاتمة

إن إصدارات المدرسة الإسلامية علاوة على تنوّعها بين مؤلفات أعيان المسلمين ودراسات الطلبة الأكاديميين؛ فإنها تنقسم أيضا إلى دراسات فقهية يناقش أصحابُها المسائل الفقهية القانونية الواردة في قانون الأسرة السنغالي، وإلى مؤلفات لم يكن غرض المؤلفين فيها دراسة مواد القانون مادةً مادةً، ولكن بيان محاسن الشرع والتنويه عن ضرورة تحكيمه ونبذ كلما يخالفه من مواد قانون الأسرة السنغالي. السمة الأولى هي الغالبة في دراسات الأكاديميين بينما يغلب في مؤلفات الأعيان السمةُ الثانية.

ويُدرك من كل ما سبق أن التنازع الاختصاصي بين النظام القانوني الإسلامي والنظام المدني "العلماني" كان من شأنه في السنغال أن يشجع على حركة التأليف والإصدار.

وكان الهدف من هذه المقالة تسليط الضوء على الدراسات الفقهية الإسلامية التي ولدت من رحم التنازع بين النظامين منذ السبعينات. ولكن حركة التأليف في فقه الأسرة العملي بالسنغال لم يبدأ مع صدور القانون الساري سنة 1972. بل توجد في عرائض أعيان المسلمين بسينت لوي (من 1832 إلى 1847) وكذلك في السوابق القضائية لمحاكم المسلمين من سنة تأسيسها (1857) إلى وقت الاستقلال مادةٌ فقهية قانونية أسرية كبيرة؛ تنمّ عن وعي فقهي قضائي في وقت مبكر لسلفنا. أشاد الشيخ عبد العزيز سِه[365] وغيره من أعيان المسلمين في مؤلفاتهم بتلك الجهود. وقد تسنح الفرصة لدراسة هذا التراث الفقهي القانوني الإسلامي وكذلك إصدارات المدرسة الحقوقية النسوية في مقالة خاصة بإذن الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع

1. أحمد امباكي غيندي فاطم، كلمة الله هي العليا (د. ت).
2. إبراهيم أحمد اتيام، وحدة المسلمين في فكر الشيخ إبراهيم انياس (د. ت).
3. أم لي، المرأة السنغالية بين قانون الأسرة وأحكام الشّريعة (المعهد العالي للحضارة بجامعة الزيتونة، 2021 – 2022).
4. بار بيي، موقف زعماء الدين السنغاليين من قانون الأحوال الشخصية السنغالي 1972، كلمة الله هي العليا ووثيقة المجلس الإسلامي نموذجين دراسة فقهية قانونية (كلية الشريعة آيت ملول 2020 – 2021).
5. تنسيقية الجمعيات الإسلامية، مشروع مدوّنة الأحوال الشّخصيّة في السّنغال (المعهد الإسلامي بدكار 2002).

[365] يقول في قصيدته السالفة الذكر:

فلنقتف الآثار ممن قد سلف = لكي نكون بعدهم خير خلف

من اقتفى آثارهم لا يندمُ = إن شاء ربنا فليس يُظلمُ

6. الحاج عبد العزيز سه ، مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني (الديوان)

7. خديم سعيد امباكي ، التصوف والطرق الصوفية في السنغال (الرباط: معهد الدراسات الإفريقية). 2002.

8. خديم سعيد امباكي ، من وحي السبعين. (السنغال: داكار) 2018.

9. سليمان سو ، ترجمة قانون الأسرة السنغالي (المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية بباريس. 2020 – 2021).

10. الطيب لمنوار ، البعد الوظيفي للفقه العملي – الهدف والمنطلق-(سطات: مكتبة الرشاد) ط 1 ، 2021.

11. عمر فال ، الأعمال التحضيرية لقانون الأسرة السنغالي "وثيقة المجلس الإسلامي الأعلى نموذجا (مؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط 2019-2020).

12. محمد مصطفوي ، الأصول العامة لنظام التشريع: دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون الوضعي (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي) الطبعة الثانية 2017.

13. محمد المنصور سه ، المحجّة البيضاء في إنقاذ الأمة الغراء (الطبعة الأولى 2003).

14. نجوغو بن مبكي صمب ، الأحكام الفقهية المتعلقة بحقوق الأولاد التي خالف فيها قانون الأحوال الشخصية السنغالي الفقه الإسلامي ، دراسة مقارنة (جامعة المدينة العالمية بماليزيا 2018).

15. نجوغو بن مبكي صمب ، الأحكام الفقهية المتعلقة بالنكاح والطلاق التي خالف فيها قانون الأحوال الشخصية السنغالي الفقه الإسلامي ، (جامعة المدينة العالمية بماليزيا 2009).

16. نجوغو بن مبكي صمب ، جماعة عباد الرحمن في السنغال: التاريخ والمنهاج (الرباط: مركز المقاصد للدراسات والبحوث) 2018.

17. نجوغو مبكي صمب ، قانون الأحوال الشخصية في الميزان دارسة مقارنة بالفقه الإسلامي.

18. نجوغو بن مبكي صمب ، كلمة الله هي العليا للشيخ أحمد مبكي غيندي فاطم انتصار للحق ونصيحة للخلق (طوبى: 2018).

19. Collectif des associations islamiques, *Avis des guides religieux sur le projet de code de la famille du Sénégal 1972,* (CIRCOF 2002).

20. Collectif des associations islamiques , Proposition de loi instituant le code du statut personnel au Sénégal, exposé des motifs (CIRCOF2002)

21. Collectif des associations islamiques, Code du statut personnel (CIRCOF, Réédition 2010)

22. Mouhamadou bamba diop Mariage et divorce entre le code de la famille du Sénégal et le droit musulman: problématique d'application du droit de la famille.(Thése pour le doctorat de 3ème 2007-2008)

تَمَثُّلاَتُ الْمَرْأَةِ فِي التُّرَاثِ السِّنِغَالِي الْعَرَبِي

بقلم الباحثة: نوغاي سيسه [366]

المقدمة:

تَمَثُّلاَتُ الْمَرْأَةِ فِي التُّرَاثِ السِّنِغَالِي الْعَرَبِي

نوغاي سيسه

المقدمة:

لقد حظيت المرأة في التراث الإنساني مكانة مميزة لا تكاد تخفى على أحد؛ فمنذ فجر التاريخ كانت حواء شريكة حياة سيدنا آدم أول خليفة الله في الأرض. وهكذا ظلّت المرأة محورا هاما في هذا الكون الفسيح ، فلا نستطيع ذكر الرجل إلا أن نجدها ردفا لها في الكينونية والمكانة سواء في السياق الزماني والمكاني. فالمرأة في المنظور البحثي تحمل دلالات كثيرة متنوعة حسب المجالات الإنسانية والفلسفية والفكرية والتخصصات المعنيّة بالموضوع ، لكنني باعتباري باحثة متخصصة في الأدب والنقد سأتناول في هذه الورقة العلمية حضورها في الأدب المكتوب باللغة العربية عموما ولا سيما السنغالي منه بشكل أخص. ونكتشف أن الشعراء تناولوا صورة المرأة عبر محطات أنظار مغايرة ومتباينة؛ فهي عند البعض تعتبر المثل الأعلى للجمال والكمال ، في حين أن الآخرين يرونها المثل الأعلى للنقصان ومصدرا للخيانة ، فيما يعتبرها الآخرون رمزا للغواية في إغراءاتها الشيطانية وهلم جرا.
ولا يخفى على أحدٍ أن المرأة مُلهِمة الشُّعراء ، وزينة القصائد ، والتاريخ الأدبي خيرُ شاهدٍ على ذلك ، فبنظرة عاجلة على الشعر العربي في العصر الجاهلي لا تخطئ العينُ صورةَ المرأةِ البارزة والجليَّةِ في أشعارِ الجاهليِّين ، ويكفي أنَّ ما من معلَّقة من المعلَّقات العشر – وهي أجود عشر قصائد في الشعر الجاهلي – إلا واستهلَّت بالحديث عن المرأة والوقوف على أطلالها المندَرِسة والبكاء على فراقها. ولمّا جاء الإسلامُ لم يتخلَّ الشعراءِ كليَّةً عن هذا المبدأ؛ فنرى المقدِّمات الطلليَّة والغزليَّة عند شعراء صدر الإسلام الذين عاصروا الرسول – صلى الله عليه وسلم أمثال: حسان بن ثابت شاعر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكعب بن مالك ، وغيرهما ، ثم تطوَّر الأمرُ بعد ذلك ، ولم تَعُدِ المرأةُ يُستَهَلُّ بها القصائد فحسب ، بل صارت تَحتَلُّ قصائدَ كاملة ، وظهر شعراءُ لم يكتبوا شعرًا إلا في المرأة ، وأطلق مؤرخو الأدب على هذا اللون: "الشعر العذري" ، وتميَّز هذا اللونُ من الشِّعر بتناول المرأة تناولاً معنويًّا ، لا تناولاً حسيًّا ، ومن الواضح أن أغلب حضور المرأة في القصيدة العربية إنما كان حضورا غزليّا باعتبارها رمزا للجمال.

لعل من الجدير بالذكر هنا أن المرأة في الأدب السنغالي العربي حضورها لا يقل شأنا من حضورها في الأدب العربي ، فنلاحظ أن الشعراء السنغاليين اهتموا بالمرأة اهتماما بالغا ، وقد نظروا إليها بزوايا مختلفة تتجلى في ثنايا البحث ، ولهذا ارتأيتُ أن يحمل موضوع مقالتي عنوان" تمثلات المرأة في الأدب السنغالي العربي " ومن الملتفت للنظر أن هذا الموضوع القيم لم يحظ بدراسة مستقلة ترصد معالمها في الأدب السنغالي العربي هادفة إلى استجلاء صورة المرأة كأحد أبرز الموضوعات التي طرقها وعني بها الشعراء السنغاليون.

العرض:

إن المرأة كانت ولا زالت مشاركِة فعّالة في تحديد نمط الحياة الاجتماعية السنغالية. والحقيقة أن المرأة السنغالية قبل الإسلام لم تعان من التهميش الذي

[366] طالبة باحثة في جامعة عبد الملك السعدي – تطوان.

تعرضت له المرأة الشرقية مثلا ، ولما جاء الإسلام عزز مكانة المرأة السنغالية كثيرا وقيدها بضوابط إيجابية لحمايتها حتى صارت المرأة السنغالية مثقّفة منتمية إلى أدراَج العلم والمعرفة والتربية ، حيث لعبت هذه المرأة دورا كبيرا في تربية الأجيال ، وزرع القيم وترسيخها في نفوس الناشئة وغيرها ، وسوف نشير هنا إلى بعض **أدوار** أقامت بها المرأة السنغالية:

أ-الدور السياسي:

ففي هذا الجانب لعبت فيه المرأة السنغالية دورا واضحا ، وخير شاهد على ذلك ، التأثير البالغ الذي تركته في بيوت الإمارات. ويتفاوت هذا التأثير من إمارة إلى أخرى. ولكن تعتمد كافّة الإمارات نسب الأم شرطا أساسيا في كل من يترشح لهذا المنصب الرفيع على امتداد الممالك؛ سواء كانت " والو" أم " كجور" أم "بول" أم "سين" أم "سالوم" فمثلا " لِينغْيرَاتُ وَالُو" كلِينغْيرْ "انَدَتهْ يَلَّهْ" التي أبلغت سلطة المرأة ذروتها ، قبل أن يحتل الاحتلال الفرنسي البلاد ووضعها تحت وصايتها. وهي أول من جابهت القوة العسكرية الاحتلالية في بلاد الولف كلها ، وذلك لرفضها التنازل عن أي شبر من الأرض أو الخضوع لمطالب الإدارة الاحتلالية ، وكذلك "لِينغْيرَاتُ كَجُورْ" ك"أَمِنَةَ يَلَهْ" التي لها دور لا يستهان به في توثيب قومها وتأليبهم على جيش الملك الذي أراد الهجوم على "لَاتْ جُورْ" المراهق من إخلال إجبار مضيفه "سَمْبَ أَمِنَةَ" على إعادته إلى غريمه " مَجُوجُو" الذي طالب به العصيان. وقد هزم الأمير " مجوجو" في معركة " تيوخور" فضلا لإثارة السيدة الحمية في قلب ولدها " سمب أمنة". وكذلك "لِينغْيرَاتُ بَوَلْ" ك "حَوَاء جُورْ جِنغْ" التي تزوجت أمير جلف ألبوري انجاي ، ونزحت معه نحو الشرق في جهاده ضد الكفّار ، حتى إذا مات الأمير قفلت راجعة إلى بلادها الأصيلة. ولما وصلت إلى لَمْباي عُيّن شقيقها الكبير " تَنُور جنغ" أميرا للبلاد فطلبت منه التوسط عند الإدارة الاحتلالية لإطلاق سراح العبيد الذين كانوا مع "أَلْبُورِي" إلى هذه البلاد ، ففعل ، وهي التي أيضا أنشأت قرية " كر حواء جور".[367]

ب-الجانب الاجتماعي:

يعد للمرأة أدوار كبيرة في المجتمع فقد شاركت عبر العصور القديمة والحديثة في شتى المجالات ، حيث تمكنت المرأة السنغالية من القيام بدور اجتماعي مميز بفضل التربية والإعداد اللذين تلقتهما في بيت والدها؛ إذ كانت تتربى على حفظ القرآن الكريم ومزاولة الخدمات المنزلية لذلك يصطلح الولف على المرأة من هذه المراكز ب" سُخْنَهْ" التي ترجمها محمد بمب درامي محقّا ب " السيدة الذكية الصالحة" وولدها يسمى " دُومُو سُخْنَهْ" أي ابن سيدة شريفة زكية.[368] وأي رجل مهما أعجبك صلاحه أو علمه فلا تشك فإن وراءه امرأة شريفة ذات مروءة ودين... ولا تزال رواسب هذه المعتقدات باقية في كثير من الأوساط السنغالية ، وكانت لهذه المرأة أدوارٌ أخرى عديدة كشاعرة ، فقيهة ، فنانة... كما أن لها الفضل في العديد من الاختراعات... ولعل دورها الاجتماعي يتجلى ويتمثل في بناء أسرتها ورعايتها حيث تقع على عاتقها كامل مسؤولية تربية الأجيال ، وتتحمل بصفتها زوجة أمرَ إدارة البيت وجل أموره ، وكما يعتبر نسب الأم مقياسا أساسيا للكفاءة في الزواج

---

367 - الدكتور خديم سيلا والأستاذ سرين امباكي محمد لوح ، المرأة المريدية في الدعوة الخديمية (طوبى – السنغال ، 2021م) ص: 37.

368 محمد بمب درامي. "بصمات نسوية في تكوين الأعلام الصوفية السنغالية خلال القرنين 19 ، 20 الميلادي ، المرأة في الغرب الإسلامي ، الصفحات المشرقة والتحديات المحدقة والأسئلة العالقة". **مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات** ، ص: 176 ، 192.

وكأن الزوجة هي عماد البيت الأسري ، وإليكم "سُخْنَهْ خُجَّهْ كُمْبَ سَيْ" التي لعبت دورا كبيرا في الطاعة الزوجية وقد اشتهرت بفضل زوجها "مام آل لوح" حيث اعتنت "سُخْنَهْ خُجَّهْ" بزوجها المسنّ المريض وتخضعه للتدليك الصحي وتراعيه حتى قام زوجها من جديد واستعاد صحته وبعض قوته ، ورزق لهما الله ولدا فسمى الوالد المولود "السراج" ودعا له ولأمه بالبركة ، وتقبل الله دعوته. والملاحظ أن العقلية الجماعية السنغالية ، تمدح- بل أحيانا تنسب- كل من يحمل لوح إلى السراج هذا ، فيقولون "يابْنَ سِرَ" [ترخيم للسراج] "خجّه كمب سي وغِيدِيلْ خُجَّهْ كُمْبَا"[369] ، ومثل هذه المرأة المطيعة في التضحية في بيت زوجها كثير في السنغال. وما زال التاريخ يذكرنا بتاريخهن وبطولاتهن وعزمهن في طاعة الزوج ودورهن في بناء القائد المثالي الذي يحمل على عاتقه هموم أمة بأسرها ، وكانت من أبرزهن سخنة مريم بوصو التي سنفصل الحديث عنها في ما يلي.

جـ-الجانب التربوي:

فمن الأمور التي أجمع عليها المربون إقرارهم بأهمية التربية وبوصفها عاملا رئيسا في توجيه الأفراد نحو أهداف المجتمعات. وقد كان اهتمام علماء التربية الإسلامية التركيز على التربية البيتية أو المنزلية باعتبارها قاعدة أساسية في إعداد الأفراد ، موضحين بشكل بارز أهمية دور الوالدين في تلك المهمة. وفي هذا المقام أدت المرأة السنغالية دورا مهما في تربية الأجيال وحفظ القيم الاجتماعية وترسيخها في نفوس الناشئة ، فدور النساء السنغالية في هذا المجال أكبر من دور الآباء ، لأن المرأة تحتل مكانة مهمة وأساسية في التربية ، لأنها جندية حيث لا جند ، لها من قوة الجذب والاستعطاف والرحمة والحنان قدرا كبيرا ، وتمثل العاطفة أدقها وأجلها لكمالها ونضجها ، لأنها تمثل نصف المنزل تماما ، بل أساسه الذي ينبني عليه. وسنأخذ نموذجات / أمثلة في هذه المرأة النموذجية ، فمثلا "السيدة عائشة والو ، وسخنة جارة بوصو ، ومام فا واد ويلي" ، فالسيدة "عائشة والو" كانت امرأة طاهرة صالحة حافظة للقرآن الكريم عالمة بالعلوم الشرعية ومثقفة ، وتعد من جهابذة أهل العلم ، حيث حفظت بين يديها جماعة كثر وأفادت من علمها الكثير من الخلق ومن بينها ابنتها العزيزة "سخنه مريم بوصو" والسيدة مام أنت انجاي امباكي. فقد كانت هاتان السيدتان قدوتين في العلم والعبادة والورع وحب الخير والعطف والشفقة على طلبة العلم ورواد بعلهما "الشيخ القاضي ممر أنت سلي" ، وكانت السيدة مريم بوصو شديدة الاعتناء بأولادها ومديمة السهر على تربيتهم على الأخلاق السمحة والمروءة ، وفي هذا الصدد قيل إنها: " كانت تربي أولادها على المروءة والدين والطهارة وكثيرا ما تحكي عليهم حكايات الصالحين"[370] ولقد أثّرت هذه التربية في الشيخ الخديم رغم صغر سنه تأثيرا إيجابيا رسخ في قلبه التقوى وثبّته على الإقبال إلى الله تعالى.

وكذلك السيدة "مام فا واد ويلي" التي كانت متقنة للقرآن الكريم بأكمله منذ طفولتها المبكرة ، وكانت تجمع نساء قريتها لمساعدتهن على تعليم أمورهن الدينية والدنيوية ، وكانت تساهم في تربية المجتمع ولا سيما طلاب العلم الذين كانوا يقرؤون القرآن في الكتاتيب.

وعلاوة على هذه الأدوار الاجتماعية والسياسية والتربوية الجليّة التي لعبتها المرأة السنغالية ، هل ساهمت في الأدب السنغالي؟

369 المرأة المريدية في الدعوة الخديمية ، المرجع السابق.

- الشيخ محمد البشير امباكي. منن الباقي الخديم

وكما كان دورها واضح في الجانب الاجتماعي في إصلاح المجتمع ، أدّت المرأة السنغالية دور بارز بصفتها أديبة . فالمرأة السنغالية وقفت جنبا إلى جنب الرجل مشاركة إياه بكل فعالية في بناء الحضارة العريقة. وقد شهد لها الكثير من الباحثين والمؤلفين والكتّاب بتفوقها في هذا المجال الحيوي في السنغال ولا يخفى على أحد أن المرأة السنغالية لعبت دورا هاما في إثراء الأدب السنغالي الفرنسي خاصة في فن القصص والرواية. ويثبت بالتاريخ أن المرأة قد واجهت مشاكل كثيرة وتحديات عظيمة في دخول مسيرة الأدب مثل الرجل. لما نحلل الأسباب القائمة وراء تخلف المرأة في مجال الأدب فنجد عوامل كثيرة بما فيها حرمانها من التعليم والثقافة بسبب العراقيل الاجتماعية والأفكار السلبية التي كانت سائدة في المجتمع ضد المرأة. ولكن قام بعض من أهل هذا المجتمع بإرشاد المرأة إلى الجامعات العالمية وحصول التعليم العالي فيها ، والتي أدت إلى تثقيفهن وتزويدهن بالعلوم اللغوية وغيرها. وعندما اتجهت المرأة السنغالية إلى التعليم خلال القرن التاسع عشر تحسّن وضعها في المجتمع ، وخرجت من ظلام الجهل والانحطاط ، وازداد شعورها بذاتها ، وشارك الرجال في قضايا البلاد والمجتمع ، مما هيَّأ الظروف لبداية المرأة السنغالية رحلتها الإبداعية القصصية. ومن أبرز الكاتبات الأدبية مريم بَا صاحبة رواية Une si longue lettre ، والأديبة آمنة صُوْ فَال ، صاحبة رواية Le Jujubier du patriarche ، والأديبة فاطمة جُمْ ، صاحبة رواية Impossible de grandir وغيرهن من المُبدعات. هذا إذا نظرنا إلى الأدب السنغالي العربي نلاحظ أن إبداعات النساء فيها ليست كثيرة ويمكن أن نأخذ مثالا منها " السيدة رقية انياس" التي ألفت كتابا موسوما بعنوان "**تنبيه البنت المسلمة في الدين والدنيا**" فقد ضم الكتاب بين طياته 13 تنبيها ، وقد لاحظنا من كتابات هذه الأديبات أنهن عالجن فيها قضايا المرأة ، وكتاباتهن تشرح لنا مكانتهن في المجتمع لأنهن يتناولن القضايا الاجتماعية فيها.

- **تمثلات المرأة في الأدب السنغالي العربي:**

بناء على ما سبق فإنّ أدباء السنغاليين شغلوا الحديث عن المرأة والتغني بجمالها وأخلاقها الفاضلة ، ولإبراز هذا الجمال أكثر كانوا يشبهون المرأة بأجمل ما وقعت بها أبصارهم ، محاولين بذلك الوصول إلى المثل الأعلى للجمال. وباستقرائنا لأشعارهم نجد أنهم شبهوا المرأة وصوّروها بصور جمالية وأخلاقية متنوعة ، ويمكن أن نتساءل هنا ، هل المرأة في وجهة نظر الأدباء السنغاليين امرأة عادية؟ أو هي امرأة خارقة للعادة باذخة التكوين وفارهة الجمال؟ أو هي بين هاتين؟ أم هي فوق ذلك؟

ومن خلال هذه الإشكالية سنحاول أن ندرس صورة المرأة في الأدب السنغالي العربي على بعدين:

1-البعد الجسماني: إن التطرق للكلام عن الجسد يقودنا إلى مواضع الجمال فيه ، والحديث عن الجمال هو قديم وقد وجد منذ وجود البشر على هذه الأرض ، وتطرق إليه الإنسان بشتى الطرق من أجل إدراكه ، لكن الشاعر السنغالي اعتنى بالمرأة في بعدها الجثماني وتغزل بجمالها بشكل أو بآخر. فقد استطاع الشاعر السنغالي أن يقدم لنا امرأة نموذجية في الجمال ، وإذا كان لا بد من إعطاء مثال للجمال فالمرأة هي صورة الجمال وعينها ، ونجد أن الشاعر السنغالي يحاول أن يرسم لنا صورة خاصة للمرأة يقدمها على طريقته فيخرج من واقعها إلى خياله في لون متميز ومبدع ، فتبدو لنا المرأة تمثال جمال فائق ، فمثلا: الشاعر ذو النون لي في قصيدته النونية:[371]

[371] عامر صمب. **الأدب السنغالي العربي**. (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1978) ، 271/1.

إِنَّا نَرَى فِيكِ أَوْصَافًا يُقَارِنُهَا

نَهْدٌ وَقَدٌّ كَرُمَّانٍ وَمُرَّانِ

إِنْسَانَةٌ مَا رَأَتْ عَيْنِي مَبَاسِمَهَا

إِلَّا وَشَيْطَانَهَا لِلْحَاجِ أَنْسَانِي

دُمُوعُهَا دُرَّةٌ بَيْضَاءُ نَاصِعَةٌ

وَأَدْمُعِي كَالعَقِيقِ الأَحْمَرِ القَانِي

نُونَانِ فِي حَاجِبٍ ، قَوْسَانِ فِي وَتَرٍ

رَمَتْهُمَا تَحْتَ صُبْحِ الوَجْهِ عَيْنَانِ

ففي هذه القصيدة يصف فيها امرأة أغرم بها ، امرأة اجتمعت فيها صفات الحسن بأسرها ، حيث يشبه نهدها بالرمان ، وقدّه

ا بالمرّان ، ودموعها الرقراقة بالدرة البيضاء ، كما يشبه حواجبها بحرف النون تارة ، وبالقوس تارة أخرى.

وكذلك قوله:[372]

وَفَتَانَةُ الأَلْحَاظِ وَاللَّفْتَاتِ

لَهَا وَثَبَاتِي فِي العِدَى وَثَبَاتِ

يتحدث في هذا البيت عن جمال عيون المحبوبة وكونها فتانة حتى النساء الأخريات يَغَرْن عن جمال عينيها.

وكذلك قوله:[373]

أَقُولُ وَعَيْنَكِ الحَوْرَاءَ عَبْرَى

أَهَذِي عَبْرَةٌ أَمْ ذَا عَبِيرُ

في هذا البيت وصف الشاعر عين المرأة بالحوراء ، ولم يكتف بذلك بل يتساءل في ذهنه هل الدموع التي تخرج من تلك العيون دمع أم ماء عذب لجمالها.

ومنه كذلك قول الشاعر الشيخ إبراهيم جوب المشعري:[374]

أَكْرِمْ بِهَا ظَبْيَةً لَوْ أَنَّهَا سَمَحَتْ

لِظَامِئٍ بِوِصَالٍ فِيهِ إِرْوَاءُ

جَيْدَاءُ غَيْدَاءُ قَدْ رَاقَتْ مَحَاسِنُهَا

يَصْبُو الحَلِيمُ لَهَا عَيْنَاءُ شَنْبَاءُ

غَرَّاء أَكْمَلُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قِدَمٍ

حُسْنًا وَمَا مِثْلُهَا فِي الخُلْدِ حَوْرَاءُ

في هذه الأبيات شبه الشاعر امرأة بالظبية ، وكما عرفنا أن الظبية رمز للمرأة الجميلة ، كما شبهها أيضا بطويلة العنق والمتثنية لينا ، وبينة الشنب ، وشدة بياض العين وشدة سوادها. وإن هذا الوصف الدقيق لأعضاء جسد المرأة تداوله كثير من الشعراء السنغاليين ولم يخرجوا على هذه المقاييس في وصف المحاسن ، وإن اختلفوا في كيفية عرض الصورة المحسوسة من الجسم.

وكذلك نجد قول الشاعر القاضي مجخت كل:

وَتَنْظُرُ بِالعَيْنَيْنِ مِنْ نَعْجَةٍ مَهَا

على لَحْظَاتٍ كِدْنَ يَقْطَعْنَ بَالِي

372 المصدر السابق ، ص265.

373 المصدر السابق ، ص268.

374 الشيخ إبراهيم جُوبْ الْمَشْعَرِي. **الديوان**. تحقيق: عبد القادر امْبَاكِي وشعيب تِيَاوْ. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. ط. 2. (الرباط: دار الأمان ، 2021) ، 45.

ونرى الشاعر يستعمل التشبيه الضمنى في هذا البيت ، حيث شبه عيني محبوبته و جمال وجهها ولحظاتها التى تقطع أوطار قلبه بعيني النعجة وجمالها.

وكذلك قصيدة سينغور المترجمة إلى العربية بعنوان "يا امرأة سوداء" فقال:

غَزَالة موصولة أطرافك بالفردوس

والنجوم لآلئ في ليل بشرتك

لذة التخمين الفكري؛

بريق الذهب الأحمر على جسدك اللدْن

تحت ظلال شعرك تخفّفت من همّي بالشموس المجاورة لعينيك

يا امرأة عارية ، يا امرأة سوداء ، أغنى لجمالك العابر[375]

والملاحظ هنا أن الأديب جريء جدا ودقيق في وصفه وحديثه عن المرأة عند عرض مفاتن جسده فوصفها بالغزالة والشمس ، والنجوم وفردوس وكل هذه التشبيهات رمز للمرأة الجميلة.

وكذلك قصيدة الشاعر محمد الأمين جوب المعنون ب "شيء من مأساة أوديب العاشق":

تَتَغَنَّجِينَ تَغَنُّجَ الحَسْنَاءِ

وَأَنَا أَضُمُّ البَاءَ تِلوَ الحَاءِ

تَتغنّجين عَلَى الأرائك طِفْلَةً

دَاختْ خُطَاها في يد الحِنَّاء

إلى قوله:[376]

فَبِأَيِّ أَلَاءِ الجَمَالِ هَزَمْتَنِي

فَكَأَنَّكِ المعنى بِكُل نَقَاء

يصف الشاعر نفسه كأنه ذات مقهورة مفتونة بالمحبوبة ما جعله يقف أمام بابها متولها ممتلئا بالشغف ومفتنا بجمال السمراء ، فالشاعر رغم قدرته التصويرية ولغته الذاخرة بالكلمات ومفرداتها الكثيرة ، إلا أنه عندما وقف أمام جمال المرأة الإفريقية خصوصا السنغالية منها ، شعر بضحالة مفرداتها وذوبانها ، هذا ما جعله يؤمن أن لا لغةَ تتسع لوصف المحبوبة؛ هذا لأن جمالها فوق اللغة والبلاغة وجماليات التصوير. وفي نفس الوقت يرى الشاعر أن جميع قصائد الغزلية بمثابة قطرة في الماء لأنها لا تستطيع أن تعكس المرأة السمراء بسحرها وجمالها المتفرد ، إذن الشاعر مندهش أمام هذه الجميلة السمراء ، مما جعله يستشكل ويطرح سؤالا ملحا على نفسه وعلى الجميلة أيضا قائلا منها:

أمن الجنان الخلد جئت فريدة ؟ فهو يسأل السمراء ، هل نزلت من السماء؟ وهل هبطت من جنة الله الخالدة؟ لأنها لست فتاة عادية ولأنها فوق الجمال ، ولأنها لا تصلح أن يطلق عليها جميع الأوصاف التي وصف شعراء القدامى سواء الجاهلين منهم أو المحدثين بالمرأة الجميلة ، وهذا يعني أنها لست من نساء الدنيا وإنما هي واحدة من نساء الجنة اللواتي قال الله في حقهن واصفا جمالهن: ﴿ وَحُورٌ عِين كَأَمْثَلِ لِلُّؤلُوِ لمَكنُونِ﴾ [الواقعة: 22-23] ولم يقف الشاعر عند هذا الحد ، فالفتاة السمراء بقدر ما هي جميلة في نظر الشاعر هي أميرة النجمات وهي التي

375 لوبول سدار سنغور. **الأعمال الشعرية الكاملة**. ترجمة: جمال الجلاصي. جزآن. ط1. (القاهرة: مؤسسة أروقة للدراسات والنشر والترجمة ، 2018) ، 1/27.

376 محمد الأمين جوب. ديوان **ظلّ مؤقت لجسد مؤجل**. ط1. (الشارقة: دائرة الثقافة والإعلان ، 2022) ، 127.

تضيء العالم بجمال عينيها وبراقة ثغرها ورشاقة شكلها الفاتن الساحر ، ويرى أن الجميلة حينما تمشي لا تمشي على الأرض كما تمشي النساء الأخريات فهي تمشي على تربة جوزائية هذا ما نفهم من قوله: يا خطوك العالي على الجوزاء.

ومن الملاحظ أن الجمال الخَلقية للمرأة جاءت في أشعار الشعراء السنغالين ، وقد اقتصر أغلب قصائدهم الغزلية في وصف الجمال الخارجي كجمال الوجه والعين والجسم. وكان الشعراء يتفننون بوصف جمال المرأة ومحاسنها ، لكنهم لم يوظفوا الغزل الصريح كما كان عند بعض الشعراء الجاهليين مثل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما الذين كانوا يهتمون بوصف تفاصيل المرأة ومفاتنها دون أدنى حياء أو تحفظ.

إذن أغلب شعراء هذه المنطقة تغزلوا على المرأة الأفريقية مع تحفظ كبير دون المبالغة والإغراق في التصوير احتراما لها ومراعاة لمكانتها في المجتمع ، فرغم كون حضورها في شعرهم حضورا قويا ، لكنهم وضعوا حاجزا بينها وبين كل شيء خادش للمروءة و الحياء ، فقد تناولوا المرأة بأبعدها الجثمانية في قصائدهم الجميلة ولم يصفوا إلا الظاهر منها كالعيون واللون والحواجب وأمثالها.

2-البعد الروحاني: وإذا كان من الشعراء من ينظر إلى المرأة ويصفها بمظهرها الخارجي ، فهناك شعراء آخرون ولا سيما الصوفيون منهم ، اهتموا بالمرأة ببعدها الروحاني ، وسنأتي بأمثلة في الوصف الخُلقية للمرأة ، ومنها: قول سرين مصمب مريم في السيدة مريم بصو:

أصيلةٌ وطنًا شريفةٌ نسَبَا

كَرِيمَةٌ حسبا تَفْضيلُها بَانَا

مطيعةُ ربَّهَا وَالشَّيْخَ سَيِّدها

أَرضتْه أفعالُها للّه إِدْمَانَا

وَلم تَهُنْ أحدا ولم تَشُنْ أبدا

ولم تَبِنْ أحدا من عَابَهَا مَانَا

من حاولوا حاجةً في مِلكِها وجدوا

نجح الحوائج لا يلقون حِرمانا

إلى قوله:[377]

إِن زارَهَا جائعٌ أو زارها ظَمِئ

صَارَا بِمَا عِندها شَبْعَانٌ ريَّانا

يا طالبا نائلًا فاسأل بجَارتِنا

وامْرُرْ بها تَلق إحسانا فإحسانا

كم مستعينٍ أتاها وهي تُنْجِدُه

فارتَدَّ يَنجد إنسانا فإنسانا

نجد الشاعر في هذه الأبيات يذكر الصفات الخُلقية لهذه السيدة الكريمة ، حيث تخلّقت بالطاعة لربها وزوجها وكذلك متصفة بصفة الجود ومساعدة المحتاجين وإشباع الجائع والظامئ ، وهذه المرأة هي التي جسدت معنى بيت الشاعر:[378]

فالأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَهَا

أعددتَ شعبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

[377] د. خديم مصطفى عبد الرحمن لوح. **بحوثات ومقالات**. ج1 ، ص: 77.

[378] المصدر السابق ، ص78.

وقد مدح هذه السيدة أيضا سرين محمد الأمين جوب الدغاني:[379]

لها العلامةُ لا يخفى على أحدٍ

صَومٌ صَلاَةٌ دعاءٌ ثم استِغْفَارا

صبر حياء وأخلاق مهذّبةٌ

طيِّبَةُ الكلام وما بالقَوْل إكثارا

صُمتٌ سُكُوتٌ والقرآن تُرتّله

وقتَ السحَارِ إذا ماالليلث إدبارا

تلازم البيت خوف الله بارئها

بطاعة وعبادات وأذكارا

الليل قائمة والنهار صائمة

تراقب الليلَ إجلالا وأفكارا

تعطي وتطعم مسكينا وسائلةً

توصل الرحم إخفاء وإظهارا

ذكر الشاعر هنا أن السيدة مريم بوصو عابدة لربه وطيبة الكلام ومنخفضة الصوت ، وكانت تقرأ القرآن الكريم وترتّله ، وملازمة لبيتها في طاعة ربها ، كما تعطي السائل وتطعم المسكين الفقير ، وخلاصة القول أنها سيدة طيّة بكل معاني الكلمة.

ومن هنا نتساءل هل تصور الأدباء السنغاليين للمرأة هي نفس التصور للشعراء الصوفيين؟. ومن هنا نلاحظ أن الشعراء الصوفيين لعبوا دورا بارزا في إكرام المرأة وإعطاءها حقها المستحق فنجد في أشعارهم رموزا يمثل المرأة المثالية ، ومن هذه الرموز:

- المرأة رمزا للتضحية والمثالية الأم نموذجا: لا جدال في أن الأم هي الرمز الخالد والأكثر شهرة في الحنان والعطف على الأبناء والتضحية من أجل توفير ما يشتهون ، ورفض التخلي عنهم حتى ولو كان ثمن هذه التضحية راحتها وسعادتها. وكيفما كان وضعها الاقتصادي والاجتماعي تعتبر رمزا للتضحية ، حيث تتجاهل بآلامها وأحزانها مقابل تكريس كل أوقاتها وجهودها في البيت وخارجه لإسعاد زوجها وأفراد أسرتها ، لذا يرى الشاعر أحمد شوقي أن الأعراق الطيبة على يد المرأة المثالية ، والأمر كذلك كما قال الله تعالى ﴿وَ لبَلَدُ لطَّيِّبُ يَخرجُ نَبَاتُهُ بِإِذنِ رَبِّهِ وَ لَّذِي خَبُثَ لَا يَخرجُ إِلَّا نَكِدا﴾ [الأعراف: 58] والتراث الإنساني مليء بهذه الأمثلة المثالية للأم.

نرى أن أم موسى لعبت دورا كبيرا في رعاية ولده وحمايته على الخطة التي أوحاها الله تعالى إلى هذه الأم المفجوعة بفقد ولدها. فهذه السيدة العظيمة بتضحياتها وصبرها العظيم وطاعتها الدؤوبة لأوامر الله ، ففي هذ الموقف الحرج بشرها الله بتولي العناية لهذا المولود الضعيف حتى يكبر ، وبشرها بأن يكون له شأن كبير ، كأن يصبح واحدا من خيرة الأمة. ومن هنا نفهم دور الأم في نجاح ولدها بتيسير الله جميع أمره بسببها ، فالأم الطيبة تقي الولد من المهالك ، والدليل على ذلك أن موسى عليه السلام لما كاد له فرعون نصره الله عليه فأغرقه في البحر ، وكذلك نرى السيدة آسية بنت مزاحم امرأة فرعون مؤمنة رغم وقوعها تحت جناح الطاغوت ، قد ضرب الله بها المثل في التمسك بالطاعة والثبات على الدين تحت هذه الظروف الصعبة والتضحية والزهد في الملذات ابتغاء وجه الله ، وكذلك سيدتنا مريم التي بتبتلها وإخلاصها تعتبر مثالا يحتذى بها في التوكل والصبر.

وعلى الصعيد الوطني المحلي نرى سيدات كثيرة بذلن تضحيات لرعاية أفراد أسرتهن وأزواجهن

379 الشيخ محمد البشير امباكي. **حياة السيدة جارة الله**. بدون تاريخ ، ص: 16.

ومجتمعهن ، وخير مثال في ذلك السيدة جارة الله مريم بوصو التي كانت مثالية في العزم والطاعة والتضحية. قيل إنها ذات يوم لم تجد حطبا لطبخ طعام زوجها القاضي لكنها فكّت حزينة ملابسها الخشبية وطبخت بها الطعام ، وكذلك أرسلت لها شيخها لإحضار ماء للوضوء فبحثت عن الماء ولم تجده ، حتى ذهبت إلى البئر ولم تجد ما تستعين بها لإخراج الماء فدخلت في البحر وأخرجت منها بجروح بسيطة ومعها ماء ، وقد ضحت كثيرا وأخلصت في طاعة الله وطاعة الزوج وتربية أولادها ، وهذه التضحيات لم تذهب سدى بل لها نتائجها المباركة والمحمودة. فكذلك نساء "تلاتي اندير" اللواتي قدمن للمجتمع تضحيات جسيمة ، حيث أحرقن أنفسهن للاحتفاظ بشرفهن وقيمهن وسُمعتهن.

وبناء على هذه التضحية التي قدمتها النساء السنغاليات فإن شعراء هذه المنطقة أشادوا بها في أبياتهم الشعرية ومجدوها تمجيدا ومن بين تلك الأمثلة الدعوات الكثيرة من قصائد التوسلية للشيخ الخديم التي دعا فيها لوالدتها مريم بوصو لعظمة مكانتها ، وبكونها رمزا للمرأة المثالية ، ومنها: [380]

ونجِّني وجميعَ المسلمين معا

ونجِّ والدتي آمين يالله

واغفر لنا ولها واستُر معائبَنا

والطف بنا وبها في الهول يالله

عنها تجاوزْ وإياها ارحمن فما

لها سواك وأنت البر يالله

في برزَخٍ مع قَبْر كن لها وزرا

ومن كروب وخوف نج يالله

لا تَختَبِرها بما ليست بقادرة

ولا تُخيِّبْ رجاها فيك يالله

وأسقنا معها من كوثر من

اخْترتَه من جميع الخلق يالله

ومن القصائد التي تتجلى فيها الأم كرمز للتضحية والمثالية قصيدة "فزت" التي ألفها الشيخ الخديم للسيدة مريم بنت عمران ، حيث نجدها تنطبق أوصافها على السيدة مريم جارة الله: [381]

أنتِ سُلالةُ الكرام

ما أمَّ نحوك حرام

وأنتِ ذاتُ الاحْتِرام

بلا انْتِحَا للشُرُك

شَكَر ربُّنا الكريم

شأنُك شكرا لا يريم

ابنك نال ما يروم

عند الذي لم يدرك

ومن القصائد التي ترمز الأم كذلك ، قصيدة الشاعر الهادي توري التي رثى بها والدته ، حيث قال:

سين وخاء ونون ثم يتبعها

باءٌ وكافٌ لها في الخلد تخْليدُ

فيا لها من فتاة كان ديْدَنُها

تبشيرَ ضيْفٍ علا والجار مرفوض

إن ملَّ من يفعل الخيرات كان لها

[380] الشيخ الخديم. قصيدة "الصِّنْديد".

[381] الشيخ الخديم. قصيدة "فُزْتُ".

في كل يوم لفعل الخير تجديدُ

إذا سمعت غَطِيطَ الناس تسمعها

لها من الذكر والتسبيحِ تَرديد

فالله يسترها بفضله كرما

والله يبعثها والجَدّ مسعود

والله يسكنها فردوسه معنى

حيث السرور وحيث الأمن موجود

حيث الصفاء وحيث النور يسّطَع حي

ث لا نوائب حيث الموت مفقود

ففي هذه القصيدة يذكر فيه الشاعر مناقب والدتها ومكانتها العالية في العبادة وفعل الخيرات وإحسانها إلى الناس، إلى أن يدعو لها بالمغفرة والرحمة وأن يكون جنة الفردوس مسكنها.

- **المرأة رمزا للكمال:** ففي هذا الرمز نبيّن فيه مكانة المرأة عند الصوفي السنغالي الكبير المكنّى بالشيخ الخديم، وكان أحد أكبر أعلام الشعر الصوفي في السنغال، اهتم الشيخ بتربية المرأة ويظهر ذلك في حياته الشخصية وفي تربيته للمريدات، حيث جعل التعليم ضرورة للنساء. ويظهر في كتاباته دلالات لضرورة تعلم المرأة، ومنه قوله: "فإني أمرت كل من تعلق بي لوجه الله — تعالى- بتعلم العقائد والتوحيد وأحكام الطهارة والصلاة والصيام وغيرها من كل ما يجب على كل مكلف"[382] ونستنتج من هذه المقولة أن عبارة" أمرت كل من تعلق بي " فيه من تعلق به من الرجال وأزواجهم وأخواتهم، ولم يكتف الشيخ في ضرورة تعلم المرأة فقط بل يحث أزواجهن على ذلك، والمثال في ذلك جوابه لأحد مريديه الشيخ عمر جوب على سؤاله عن واجبات الزوجة على زوجها، فأجابه أن الرجل ملزم بمعرفة فقه النساء ليتمكن من تعليمها إياه[383]، بل رأى الشيخ أن تعليم الزوج لزوجتها واجب، وهذا كله يدلنا على أن رؤية الشيخ الخديم للمرأة رؤية مختلفة لما كان من قبل كما يظهر في كتاباته وصيات يوجهها إلى المرأة، كما في وصيته للسيدة بندا جوب التي قال فيها:

دُومي على التوبة باجتِهادِ

ولا تميلِي لسِوى رشَادِ

دُومِي عَلى الخُمول والتَّستُّر

ولتَخفضي صَوتكِ دَهرًا تُشكُر

إلى قوله:

ولتَعلمِي بأن كُلَّ ما صدَر

لغير وجْه ذِي الجلاَل فَهَدر

فاعلمِي لا ينجُو أحدٌ من عذاب الله حتى يترُكَ أربعةَ أشياء: الكذبَ، والكِبرَ، والبُخلَ، وسُوء الظنِّ

فشيخنا الخديم-رضي االله عنه-كان متشددا في منع خلطة النساء بالرجال، فلم يكن يقبلها، ومن أجل ذلك كان يفصل بين الجنسين في كل شيء وخصوصا في السكنى حيث كان يخص بيوتا لهن وأخرى لهم، وفي ذلك يقول-رضي االله عنه:

ولا تـزالي تسـترين البـدنا

[382] الشيخ محمد الأمين جوب الدَّغَاني (ت. 1968م). **إِرْوَاءُ النَّدِيم مِنْ عَذْبِ حُبِّ الخَدِيم**. دراسة وتحقيق: مجموعة من الباحثين. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1439هـ/2017م)، 83.

[383] هو الجواب المعروف ب " مفتاح الغيوب في جواب خلنا عمر جوب" ضمن ديوان **سِلك الجَواهر في أخبار السَّرائر**. ص635.

ولا تخـالطي الرجـال زمنـا

ولن تنالي الدين حتى تستري

جسمك يا زينب بالتخمر

ونلاحظ أن الشيخ —رضي االله عنه-قد أمر النساء في هذه الوصية بالتوبة والاجتهاد وعدم الميل إلا إلى الرشد ، والسكوت وتخفيض صوتها وستر عوراتها ، وكذلك طاعة الله وطاعة الزوج كما قد نهاها الغيبة والتكبر والكذب والرياء والعجب والسمعة والبغضاء وعن رفع أصواتهن بمحضر الأجانب. وهذه النصائح التي قدمها إلى المرأة يشرح لنا المكانة التي وضع فيها الشيخ المرأة حيث ينهيها أشياء فضلا عن تحسينها وترقيقها واحترام قيمها.

- **رمزية المرأة عند الشيخ الخديم:**

كانت المرأة تمثل لدى أهل التصوف تجربة عرفان عكس ما كانت تتركه من أثر لدى الشاعر منذ زمن قديم؛ فحين يتغزل الصوفي بالمرأة فإنما يتغزل بخالقه ويبث شوقه إليه وحبه له ، فمحبة النساء جزء من المحبة الإلهية ، وإدراك الجزء يؤدي إلى إدراك الكل ، من هنا تضمنت لغة الصوفية طريقة في التلويح بالرمز الأنثوي للدلالة على الذات الإلهية ، حيث يمزجون بين العيني والمجرد ، فهم ينظرون إلى المرأة مثل غيرها من عينات الجمال الإلهي ، نظرة تجريدية ميتافيزيقية ، لا يحفلون خلالها بالأشكال العادية ، وإنما كان احتفالهم بالمفاهيم الرحبة التي ترتبط بقدرة هذه الأشكال على الرمز ، وهذا ما يلاحظ في أبيات الشيخ الخديم في قصيدته" همت سليمى" حيث قال في مطلع القصيدة:[384]

همّتْ سُلَيْمَى بِصَرْفِي عَن مَزِيّاتِ

كَيْ ما تَقُودُ زِمامِي لِلرَّزِيّات

إذا تأملنا هذه القصيدة جيدا نستطيع أن نقول بأن المرأة في نظر الشيخ الخديم من خلال هذه القصيدة على نوعين اثنين:

- **المرأة الدنيوية:** وهذه المرأة رمز بها الشيخ بكلمة "سُلَيْمَى" وتتصف هذه المرأة بكونها تبدي مفاتنها لتصطاد قلوب الناس وتحاول إغراء قلوب الرجال كما تحاول اللعب بقلوب الرجال بخيانتهم ، وتلعب بمشاعرهم كما تلعب الأذكياء لعبة شطرنج ، وهذه المرأة تحاول أن تكتسب ودّ الشيخ كعادة الدنيا ، والشيخ تعرف أنها مسكونة بعدم الصدق في وعدها ، وإظهارها ما ليس فيها. فهي تولي الشيخ جوائزها تارة وتارة أخرى تمد إليها بالبشارات لكن الشيخ كان حكيما جدا لأنها علمت أن هذه المرأة كذوبة في مقالاتها. وأكثر من ذلك يرى الشيخ أن جميع مواعيدها مثل مواعيد عرقوب ، من حيث يجد أن هذه المرأة لا تعد إلا بالخيانة ، وفي هذا المعنى يدور قول الشيخ:

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثَلا

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثَلا

ليست تُرِي الصفوَ إلا قد أرت كَدرًا

من بعده وتَداري بالمكيدات

ولا تُري النَّفعَ إلا أدخَلَتْ ضَرَرًا

فيه وتضمن هضمًا في المعونات

إذن فهذه المرأة التي تنخضع منها الشعراء ويقفون على الرسم والدمن ويتحملون الصعاب واصفين إياها بكل الأوصاف الوردية ويكتبون في حقها أجمل القصائد وأبدعها وأكثرها ابتكارا في الاستعارات

384 الشيخ الخديم أحمد بَمْبَ البَكِيُّ. **جَالِبَةُ الْمَزِيَّاتِ وَدَافِعَةُ الرَّزِيَّاتِ فِي مَدْحِ خَيْرِ الْبَرِيَّاتِ**. مرقون؛ https://urlz.fr/gDYd

والكنايات والصور والتشبيه ، فإن للشيخ الخديم رأيا آخر غير ما لدى الشعراء. فالمرأة هاته عند هؤلاء الشعراء هي رمز للجمال والكمال وفي المقابل نجد أن الشيخ الشاعر يعتبرها مجرد متطفلة في حضرة الجمال ، ويرى أنها تبالغ في رسم البهجة وتسعى إلى إمالة القلوب وتظهر صدق الوعود وهي كاذبة ، لأن مواعدها ليست بأفضل من مواعد عرقوب.

- **المرأة الأخروية:** هذه المرأة في نظر الشيخ الخديم تتميز بكثير من الأشياء من بينها أنها متصفة بالكمال ومتشحة بالجمال وتتميز بالطاعة لعاشقها ، فهي مختلفة عن النساء الدنيويات فلا تقاربها حيض ولا درن كما تقارب نساء الدنيا وهذا يعني أنها نقية في كل الأوقات وفي هذا المعنى يدور قول الشيخ:

حُورٌ لدى اللّه عَينٌ لا يقاربها

حُورٌ لدى اللّه عَينٌ لا يقاربها

إلى قوله:

فقن القناديلَ نورا طيبها عبق

يخْجِلْن بدر يد فوق السماوات

من خلال هذه الأبيات نكتشف أن المرأة الدنيوية إذا كانت طيلة حياتها موسومة بالنقصان وانعدام الكمال وضحالة الجمال فهذه النساء الأخرويات يتصفن بكل أوصاف الكمال فهن النساء الحقيقيات وهن الغواني الجميلات اللواتي يمكن أن نكتفي بالحديث عن مدى جمالهن بوصفهن بالحور. وقد قال اللّه في حقهن: ﴿وَحُورٌ عِين كَأَمثَلِ لِلُّؤلُوِ لَمكنُونِ﴾ [الواقعة: 22-23] ، فلم يطمثهن إنس ولا جان ولم يقترب إليهن حيض ولا درن فهن دائما في دوامة النقاء والصفاء. ولا يتجلى الاختلاف بين هذين النموذجين وأعني بهما المرأة الدنيوية التي تحدثنا عنها سابقا والمرأة الأخروية التي نتحدث عنها الآن بما ذكرنا فقط ، بل هناك جوانب كثيرة عجيبة في هذه المرأة الأخيرة لا توجد عند المرأة السابقة ، فاللاحقة تقيم في وسط الجنان التي عرضها السماوات والأرض بينما السابقة لا تقيم إلا في وسط الخيام التي ترمز للبداوة والصحراء القاحلة.

إن أجمل ما في هذه الغواني النموذجيات أنهن يبقين عذارى طيلة حياتهن وأنهن خريدات صفيات وأنهن يمرعن دائما في ريعان شبابهن فلن يزدلف إلى حضرتهن موت ولا هرم ،. إذن هذا ما جعل الشيخ يقول: بعد ما لاحظ الفرق الصريح الموجود بين هاتين يفضل الأخيرة على الأخرى ، وبين أن مهرهن ليس كمهر النساء الدنيوية ، فمهرهن تقوى اللّه واجتناب النواهي قائلا في حقهن:

هنّ الغواني اللواتي القلبُ طاب بها

يختارُهنَّ على سلْمى وهندات

ومَهرُهن اتقاء اللّه فَاطِرِهَا

بتوبة من هوى نفس لطاعات

ونلاحظ أن الشيخ قام بالتجديد ، حيث جاء بما لم يعرف سابقا في الشعر ، فقد كان النسيب عند العرب يتم عبر وصف المرأة الموجودة في هذه الدنيا لكن الشيخ قام بوصف امرأة لا توجد في هذه الدنيا بل توجد في الآخرة موصوفة بالكمال والوفاء والطاعة.

الخاتمة:

وبعد جولة طويلة في دراسة تمثلات المرأة في الأدب السنغال العربي ، وبيان الأدوار التي لعبتها المرأة السنغالية السنغال والحديث عن المكانة التي احتلت بها في المجتمع السنغالي وإسهاماته الجليلة في الأدب السنغالي ، وكذلك إبراز تصور الأدباء السنغاليين وتصويرهم للمرأة السنغالية من بعدها الجسماني والروحاني ، فإنه يمكن أن نقول بأن نظرة الشاعر الجاهلي والشاعر السنغالي إلى المرأة اختلفا تختلفان نسبيا ، حيث كل واحد منهما نظر بمنظاره الخاص. و يمكن القول بأن المرأة الأفريقية شغلت بال الشاعر السنغالي ، فطفق يتغنى بها في جميع كتاباته حبا فيها واحتراما لها ممعنا في سبر أغوارها؛ فاهتم بوصفها جسدا وروحا. فأما الجسد فيتمثل في صورة المرأة الجميلة بوصفها بالظبية الحسناء وشبه نور وجهها بنور القمر وعيونها الحوراء وخدها وغير ذلك ، إلا أنهم يختلفون عن بعض الشعراء الجاهليين الذين كانوا صريحين في وصف المرأة. وأما الروحانية ، فكان الشاعر السنغالي يحسب المرأة المثالية تمثالا مقدسا خاليا من العيوب والنقائص فذكر أخلاق المرأة الحميدة ، لتسمو بتلك الأوصاف من التمثيل الواقع المادي إلى سماء القداسة والتعظيم. ولكن كل هذا لا ينفي من وجود امرأة من طين خاص ، حيث اهتم بها الشاعر الصوفي الشيخ الخديم- رضي الله عنه- فجاد عليها بفيض قلمه ، بتشبيه امرأة غادرة بالمرأة الدنيا كما جاء بشيء جديد وهي وصف امرأة أخروية — حور عين — كرمز الكمال حيث جاءت هذه المرأة مثالية تحمل معاني الطيبوبة والتضحية والحب والجمال ،. وهكذا نلاحظ أن الشاعر السنغالي القديم والحديث أبدعا أيما إبداع في رصد صورة المرأة السنغالية للمتلقي سواء ببعدها الجثماني أو الروحاني.

المصادر والمراجع:

- ✓ مفتاح الغيوب في جواب خلنا عمر جوب، ضمن ديوان **سِلك الجَواهر في أخبار السَّرائر**.
- ✓ د. خديم مصطفى عبد الرحمن لوح. **بحوثات ومقالات**.
- ✓ الشيخ إبراهيم جُوبٌ الْمَشْعَرِي. **الديوان**. تحقيق: عبد القادر امْبَاكِي وشعيب تِيَاوْ. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. ط. 2. (الرباط: دار الأمان، 2021).
- ✓ الشيخ الخديم أحمد بَمْبَ البَكِيُّ. **جَالِبَةُ الْمَزِيَّاتِ وَدَافِعَةُ الرَّزِيَّاتِ فِي مَدْحِ خَيْرِ الْبَرِيَّاتِ**. مرقون؛ https://urlz.fr/gDYd
- ✓ الشيخ الخديم. قصيدة "الصِّنْديد".
- ✓ الشيخ الخديم. قصيدة "فُزْتُ".
- ✓ الشيخ محمد الأمين جوب الدَّغَاني (ت. 1968م). **إِرْوَاءُ النَّدِيم مِنْ عَذْبِ حُبِّ الخَدِيم**. دراسة وتحقيق: مجموعة من الباحثين. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين بالمغرب. (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1439هـ/2017م).
- ✓ الشيخ محمد البشير امباكي. **حياة السيدة جارة الله**. بدون تاريخ.
- ✓ الشيخ محمد البشير امباكي. منن الباقي الخديم.
- ✓ عامر صمب. **الأدب السنغالي العربي**. (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978).
- ✓ لوبول سدار سنغور. **الأعمال الشعرية الكاملة**. ترجمة: جمال الجلاصي. جزآن. ط1. (القاهرة: مؤسسة أروقة للدراسات والنشر والترجمة، 2018).
- ✓ محمد الأمين جوب. ديوان **ظلّ مؤقت لجسد مؤجل**. ط1. (الشارقة: دائرة الثقافة والإعلان، 2022).
- ✓ محمد بمب درامي. "بصمات نسوية في تكوين الأعلام الصوفية السنغالية خلال القرنين 19، 20 الميلادي، المرأة في الغرب الإسلامي، الصفحات المشرقة والتحديات المحدقة والأسئلة العالقة". **مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات**.